

THE FIFTH CORPSE

VOLUME TWO

الطبعة
5

رواية

الجثة الخامسة

الجزء الثاني

حسين السيد

الكتاب : الجثة الخامسة 2
المؤلف : د. حسين السيد
تصميم الغلاف : اسامة علام
تدقيق لغوي : عاشور عطا
رقم الإيداع : 2019/28188
الترقيم الدولي : 5-213-778-977-978
الطبعة الأولى : 2020



20 عمارات منتصر – الهرم - الجيزة
ت-02-35860372 011-27772007
info@noonpublishing.net

الجثة الخامسة 2

رواية

د. حسين السيد



إليها وحدها

ريماس

جوهرتي الأولى

وهل يكفيك عمر واحد أعشقك فيه كله ؟



(1)

أكثر ما صار يحير جمال ويخفيه، هو تلك الأحلام أو لنقل الكوابيس التي عادت تؤرق نومه دفعة واحدة في الآونة الأخيرة. بدأ يتساءل في قلق، أي لعبة سخيفة يمارسها عقله الباطن معه بعد كل تلك الأعوام الطويلة من نسيان أو محاولة نسيان تلك الحادثة المخيفة التي حدثت له قبل ثلاثين عاما.

في تلك اللحظة، هب من نومه دفعة واحدة بأنفاس متلاحقة سريعة، وحلق يابس، وفم مفتوح على اتساعه يتسول الهواء، بينما ظل قلبه يقرع صدره في عنف. إنه كابوس جديد.

إنها الجثة الخامسة مرة أخرى؟!

تلك الشيطانة الملعونة التي تدعى رومية، والتي كادت أن تهلكه فيما مضى أثناء عمله كعامل بالمشرحة في كلية الطب بجامعة عين شمس قبل أكثر من ثلاثين عاما. الحجرة كانت مظلمة وزوجته مازالت كما يعرفها منذ تزوجها، بدينة حمقاء ترقد على ظهرها بجانبه كخرتيت كسول، وقد تعالى شخيرها المعتاد كنفير مرجل بخاري معطوب. كان يعلم أنه لا شيء قد يوقظها من نومها مهما حدث، لقد استيقظ وهو يصرخ فزعا من الكابوس المريع، لكنها وكما يرى لم تشعر بفزعه ولا صراخه، ويبدو أنها لن تستيقظ حتى لو فجر قنبلة فوق رأسها.

ثم بدأ الألم المريع المميز لقصور الشرايين التاجية يغزو صدره، ويتسلل حثيثا نحو عنقه وكتفه الأيسر، فامتدت يده بلا تفكير تفتش عن أقراص النيتروجليسرين الموضوعة دوما فوق الكومود المجاور للفراش. دفع بقرصين مرة واحدة أسفل لسانه، وأغلق عينيه في إنهاك، وهو يمتص الطعم المر للأقراص في جشع، متجاهلا مرارتها المريعة.

على قلبه أن يهدأ وإلا أصيب بجلطة مميتة كما أخبره الطبيب أكثر من مرة، لكن كيف يهدأ، وهو يحلم بشيطانة رأى بعينيه ما تستطيع فعله من أمور شنيعة مريعة. كان يشعر بالظمأ، لكنه انتظر حتى تلاشى الألم

من صدره وانتظمت أنفاسه، ثم نهض بتثاقل وهو يجر جسده البدين من فوق الفراش، واتجه إلى الثلاجة الموجودة في ردهة منزله، وعلى ضوء فلورسنتي شبحي فتحها، ومد يده نحو إحدى زجاجات الماء، ثم رفعها نحو فمه ليشرب.
احتاج الأمر لدفقتين من السائل ليدرك أن ما يشربه ليس الماء، كان السائل أكثر لزوجة، كما لاحظ أنه يتمتع بطعم ملحي معدني يميل للصدأ، إنه طعم يعرفه ويحفظه جيدا.
إنه طعم الدماء!
سعل في عنف ليطرد السائل اللزج اللعين من فمه وحلقه، وهو يلقي الزجاجة بعيدا عنه لتهوي على الأرض، ليسيل منها السائل الأحمر القاني. كان متأكدا أنه قد صرخ لكن العجيب أن أحدا من أبنائه أو زوجته لم يهب لنجدته، عاد قلبه ليدق في جنون، شاعرا بالغثيان، مال بجذعه نحو الأرض ليتقيأ ما شربه.
هنا تسللت لأنفه رائحة عطرة مثيرة.
رائحة لم ينسها يوما رغم أنها داعبت أنفه آخر مرة قبل ثلاثين عاما. وحين مست عنقه من الخلف أنامل باردة رقيقة وجد نفسه يبكي على الفور، وقد عرف من تكون صاحبتها من قبل أن يلتفت.
كانت رومية!
عاد ليرتجف، كطفل بلل ملابسه، وقد اختنق الكلام في حلقه، ثم سمع صوتها يأتيه من خلف أذنه، وأنفاس حارة تلفح عنقه، وهي تغمغم:
-أهكذا ترحب بأصدقائك القدامى يا جمال، هل تبكي وتبلل سروالك ما أن رأيتني.
ورغم الدوار المريع الذي راح يغمر عقله، ورغم القبضة الملتهبة التي اعتصرت صدره، فقد أدار رأسه نحوها في عنف ليراها مرة أخرى. كانت هناك تقف أمامه بكل جمالها وفتنتها وإثارتها ووحشيتها، هي نفسها كما رآها آخر مرة قبل ثلاثين عاما. لم يتقدم العمر بها لحظة واحدة. كانت تبتسم له في براءة تليق بحمل وديع وليس شيطانا رجيما. ثم مدت يدها

نحوه لتساعده كي ينهض. وجد نفسه يستسلم ليدها ويقف أمامها رغم الإرهاق والألم الرهيب المتفجر في صدره، اتسعت ابتسامتها للحظة ثم دفعت بسبابتها نحو صدره فوق مكان الألم تماما وهي تغمغم:
-"احتشاء قلبي ممتد، وارتجاف بطيني مميت. هل أسرفت كثيرا في تناول الدهون، أم تراه بفعل داء السكري السخيف، يا لبؤسك يا صديقي القديم. لو كنت أمام طبيبك لأخبرك أنها لحظاتك الأخيرة في هذه الدنيا!".
لم يرد وهو يعلم أنها صادقة، قلبه بالفعل يحيا لحظاته الأخيرة. في الواقع كان يتمنى لو يدركه الموت بلا إبطاء، ربما كان موته هذه اللحظة أكثر رحمة من المصير الذي تعده له هذه الشيطانة، لكن إحساسا بالبرودة راح يغزو قلبه حيث وضعت رومية سبابتها، وبدأ الألم في الانحسار بسرعة كبيرة، ثم راح يشعر بنفس الراحة التي يحسها مع أقراص النيتروجليسرين حين يتناولها. وجد أنفاسه تعود لهدوئها رغم فزعه وهدأت دقات قلبه كثيرا واستعادت انتظامها. هل أنقذته رومية من الموت؟ كان أمرا غريب. لكنها هزت رأسها في تلك اللحظة، كأنما قرأت أفكاره، وقالت:
-لا تتخيل لحظة أنني قد أنقذتك لأن حياتك قد تهمني. كل ما في الأمر، أنك كنت تواجه ميتة سهلة سخيفة وسريعة. موتة لا تروق لي في الواقع.
ثم اقتربت بوجهها منه فتسللت لأنفه أنفاسها الطيبة الزكية وغمزت بعينها له وهي تكمل:
-لنقل أنني أنقذتك لأني أدخر لك ميتة أكثر إثارة.
- ماذا تريدين مني؟
كانت هذه أول كلماته التي نطقها، وقد خرجت من فمه مرتجفة كجسده:
- هناك دين لي وجئت لأسترده، أم هل تراك قد نسيت.

ولكن كيف ينسى، ومازال يذكر جيدا تهديدها بالعودة والانتقام من الجميع، في ذلك اليوم اللعين الذي مارسوا فيه طقسا سحريا لمنعها من الاستيقاظ، وها قد جاءت لتنتقم كما وعدت. وبينما تحركت رومية نحو زجاجة الدماء التي مازالت تبصق الدماء من قلبها، فكر جمال في الهرب، إن باب الشقة قريب لا يبتعد عنه أكثر من أمتار أربع، وفور أن يخرج منه سيهبط الدرج بسرعة ليصير بالشارع، وربما وجد بعض الأمان هناك وسط المارة، لكنه عاد وتذكر أبناءه وزوجته، إنهم بالشقة، ولن يدعهم بمفردهم فيها مع هذه الشيطانة. لقد عاش من العمر ما يكفي، ولم تعد به رغبة في المزيد من الحياة، مع كل تلك المعاناة من الفقر والسمنة وآلام الظهر والمفاصل، ومرض السكري والقلب، وأخيرا الزوجة اللعينة التي أحالت ليله ونهاره لجحيم دائم لا ينقطع. لو كان لأحد أن يموت هذه الليلة فليكن هو. راقبها وهي تلتقط الزجاجة بعد أن أشارت بأناملها للسائل المنسكب منها فعاد إلى قلب الزجاجة كله، ثم رفعت الزجاجة لفمها وراحت تتجرع ما بها من دماء في نهم ولذة، وهي تقول:

-"من الخطأ تبديد مشروب طازج ومنعش كهذا، لكن، أتعلم يا جمال لمن تكون هذه الدماء؟ لقد تذوقت بعضها بالفعل منذ قليل، خمن دماء من هذه؟".

كانت تنظر إليه في عبث وهو ينكمش حول نفسه في رعب حقيقي، وقد تذكر الكابوس المريع الذي حلم به قبل قليل. كانت رومية هناك في الكابوس، وكانت زوجته معلقة أمامه في الفراغ والظلام بقيود خفية، والدماء تسيل من جروح كثيرة في كل جسدها العاري، نحو إناء كبير أسفلها، ثم ملأت رومية منه بعض الدماء في كاس زجاجي، وقربته منه وهي تقول له آمرة:

-اشرب!

ورغم كل إرادته ورفضه، وجد يده تمتد للكأس ورفعه نحو فمه وبدأ يشرب في نهم غريب، حتى شرب كل قطرة فيه. بالفعل مازال يتذكر

طعم تلك الدماء في حلقه، إنها نفس الدماء التي تجرعها في الحلم، وسمع رومية تغمغم:
-أجل، إنها بالفعل دماء زوجتك التي تركتها نائمة في وداعة كالحمل، قبل دقائق.
ثم أشارت لباب غرفته وأردفت:
-هل ترغب في التأكد، تعال لترى بنفسك.
مرة أخرى وجد نفسه يتبعها في خضوع، وفي الحجرة التي توهجت بضوء قوي كضوء الصباح كانت زوجته هناك. تماما كما رآها في الحلم. معلقة في فراغ الغرفة، عارية كما ولدتها أمها، وقد امتلأ جسدها الضخم بجروح مميتة غير منتظمة وكأن مخالب هائلة نهشتها.
راحت زوجته ترمقه بعيون مليئة بالألم والرعب، وكأنها تستجديه أن ينقذها. تمنى بالفعل لو يقدر على مساعدتها، لو يفعل أي شيء ليرحمها من كل هذا العذاب. لكن جسده بدا وكأنه لا ينتمي له، وقد رفض أن يستجيب لأوامره، تجمد في مكانه وراحت عيونه الدامعة تراقبها في عجز وألم. ثم سمع رومية تهمس في أذنه:
-"هل يروقك المشهد؟ لا تنكر أنك طالما تمنيت لو تخنقها أو تذبحها، وهي التي أحالت حياتك لجحيم. الخبر الجيد أن أحلامك الدفينة صارت حقيقة، أرأيت كم يهمني أن أحقق أحلام أصدقائي قبل رحيلهم.
رمقها بعجز وعينه ترمق جسد زوجته في يأس، ثم ارتفع كفا رومية لأعلى والتمعت عيناها ببريق شيطاني وهي تهتف في نشوة:
-إنها لكم يا صغاري، لن تزعجكم هذه المرة بصراخها ولن تقاوم. لا أريد موتة سريعة، دعونا نستمتع قليلا ببعض الألم!
ومن قلب جدران الغرفة ظهرت خمس قطط سوداء كبيرة، بعيون حمراء كالدم وأنياب تتدلى من فكوكها منذرة بالألم، أطول من أي أنياب أخرى رآها جمال في حياته، وفي وحشية راحت القطط تقفز نحو الجسد المعلق الدامي وهي تنتزع منه في كل مرة قطعا ضخمة اللحم لتتفجر المزيد من الدماء والصرخات المكتومة من الزوجة المسكينة.

وفي نفسه هتف جمال في عجز:
"الرحمة يا الله".
لكن رومية التفت إليه وقالت:
-لو كنت مكانك لتألمت لنفسي، ودعوت بالرحمة لي، فماذا تعانيه زوجتك لا يقارن بما ينتظرك يا صديقي البدين.
ثم أحاطت وجهه البدين المحتقن بكلتا كفيها. كانت أناملها الباردة، في قمة الرقة والنعومة، وقد فاحت منها رائحة ياسمين منعشة. وقالت رومية له:
-ما هو أكبر مخاوفك يا صغيري. دعني أرى!
وضغطت بأناملها على جانبي جبهته، وأغمضت عينيها وكأنها تقرأ أفكاره. في تلك اللحظة لم يتمالك نفسه أكثر من هذا وابتل سرواله أكثر وأكثر من الرعب. بينما تمتمت رومية:
-إذن أنا أكثر ما يخيفك. هذا مؤثر. لنفتش أكثر عن شيء آخر. ماذا أرى هنا؟ الظلام، الكلاب الضالة والجرذان. أجل إنها الجرذان.
كان يشعر بالرعب بالفعل من أي فأر يراه. وكان هذا يعود لحادث لعين في طفولته. كان يلعب مع بعض أقرانه الأكبر سنا وهو ما يزال في السادسة من عمره، يومها نجح أحدهم في اصياد جرذ صغير، قيدوا إحدى قدميه في خيط وراحوا يلعبون به، قبل أن يتفتق ذهن أحدهم عن فكرة شيطانية تليق بالأطفال، فأمسك الجرذ وفي لمح البصر دسه في صدر جمال أسفل ملابسه، وبينما كان جمال يتواثب في فزع لا حد له، راح الأطفال يضحكون في جنون. وكانت النهاية حين قضم الجرذ إحدى حلمتي صدره. كان الألم مريعًا، وفي الحال فقد وعيه.
اتسعت عيناه في فزع أكبر حين أبعدت رومية إحدى كفيها عن وجهه، وأغلقتها وابتسامتها تتسع ثم فتحتها. كان الجرذ اللعين الذي عقره في طفولته يرقد في منتصف كفها وينظر إليه في تهديد. كان يعلم أنه هو. بالبقعة البيضاء من الشعر في منتصف ظهره الرمادي.
-ألن ترحب بصديقك القديم؟

تمنى لو يفقد وعيه، لكنه لم يفعل. ثم مدت رومية كفها وألقت الفأر ثانية في ملابسه، ليعاوده الفزع القديم والجرذ الصغير يهرول فوق صدره وبطنه. بينما غمغمت رومية:
-الآن سيبدأ المرح.
انتبه للمرة الأولى للحفرة الضخمة التي ظهرت مكان الفراش الذي اختفى من الحجرة. وحين نظر داخلها رأي تابوتا حجريا ضخما مفتوحا، وبداخله هيكل عظمي بال، وإن بدا واضحا أن صاحبه كان يتمتع بقامة ضخمة طويلة، وحين نظر إلى الجمجمة التي مازالت تحتفظ ببعض أنسجتها البالية المتحللة، أدرك من يكون صاحب الهيكل. وسمع رومية تهتف في غضب حقيقي:
- نعم، إنه منصور، صديقك الذي نجا من مصير لم يكن ليتخيله بوفاته، لكن حتى موته لن ينقذه من انتقامي.
فوجئ في اللحظة التالية بجسده المتجمد وقد رفعته قوي خفية، ثم دفعته نحو التابوت الحجري ورفات عم منصور الموجودة بداخله، كان ألم السقطة مريعا، وشعر ببعض عظامه وقد تهشمت، لكن رعبه أنساه كل هذا، ووجد نفسه يرفع رأسه لأعلى ليرى رومية تنظر إليه من فوق سطح الأرض وهي تقول:
-سوف تؤنسك عظام صديقك القديم في ساعاتك القليلة الباقية.
وفجأة هوت فوق رأسه عشرات الجرذان وقد برزت هي الأخرى من العدم. راحت الجرذان الشيطانية تتواثب فوقه في شراسة ليرى عيونها الحمراء الشيطانية. ثم سقط فوق التابوت غطاؤه الحجري الثقيل، ليسمع صوت رمية من بعيد:
"هل أدركت ما ينتظرك من مرح مع جرذاني الصغيرة، أتمنى لك وقتا ممتعها يا صديقي القديم. وداعا".
ثم سكت كل شيء بغتة وغاب الضوء تماما، فقط كانت هناك العيون المتألقة الحمراء للجرذان والأنياب الحادة التي تنتظره، ومع أول عضة شعر بها في ساقه، زال عن جسده كل جموده ووجد نفسه يصرخ.

راح يصرخ كما لم يفعل من قبل.
بينما واصلت الجرذان أداء مهمتها في شراسة.

(2)

في الحقيقة كانت عشرات الفئران تمرح في عقل وقلب الدكتور محمد شاهين في تلك اللحظة، حتى أنه كان من العسير أن يستمتع بإفطاره المميز هذا الصباح، والذي يحرص على تناوله مرة واحدة على الأقل في كل شهر. كان إفطارا فاخرا، يتكون من عجّة قوامها أربع بيضات، منكّهة بالتوابل والكركند، ومغطّاة بنحو الربع كيلوغرام من الكافيار الفاخر من نوع (Beluga Caviar) المستخرج من سمك الحفش. وجبة فخمة تكلفه نحو 500 دولار في كل مرة، حيث يتناولها في مطعم فندق الفورسيزون نايل بلازا بالقاهرة، بيد طاه بريطاني محنك.
راح يتناول طعامه في شرود، ثم شعر فجأة أن معدته لن تتقبل المزيد، فأنهى إفطاره دون أن يكمل حتى نصفه، رغم أنه عادة ما يتناول طبقه كاملا، ثم أشار للنادل الذي هرع إليه ليجلب له القهوة التي يشربها دوما بعد هذه الوجبة. عاد لالتقاط جريدة الأهرام ثانية، وللمرة الثالثة هذا الصباح عاد ليطالع الخبر الذي احتل نصف صفحة الحوادث في الجريدة، مقتل ربة منزل بصورة بشعة واختفاء زوجها في ظروف غامضة، كانت التفاصيل رهيبة، فقد وجد الأبناء أمهم أو ما تبقى منها في الواقع في الصباح في حجرتها، كانت مجرد هيكل عظمي دام والقليل من الأحشاء والأنسجة واللحم، لكن الأب لم يكن هناك. جاءت الشرطة على الفور وأثار حيرتهم كيف ماتت الأم بتلك الطريقة الوحشية والتي بدا مما تبقى منها وكأن قطيعا كاملا من وحوش البرية قد التهمتها، العجيب أنه رغم تلك الصورة الوحشية لم يكن هناك في الغرفة غير القليل من الدماء، حتى أن الطبيب الشرعي ظن أن الأم قد قتلت في مكان آخر ثم قام القاتل المزعوم بإعادة أشلائها لحجرتها ثانية، لكن الأبناء رفضوا هذا الاحتمال بصورة قاطعة، فأمهم كما أكدوا قد دخلت

حجرتها في المساء أمام الجميع لتنام، وكان الأب قد سبقها إلى الجحرة حينها. ثم كان السؤال المهم، أين اختفى الأب؟
حادث مريب مفزع، لكنه رغم غرابته ما كان ليشغل بال الدكتور محمد شاهين، لولا أن بدا اسم الأب المفقود مألوفا له بصورة لا لبس فيها، جمال حافظ، عامل المشرحة البدين الذي اشترك في مغامرته الرهيبة القديمة في أوائل السبعينات من القرن الماضي، أشعل غليونه وألقى بالجريدة أمامه وأغمض عينيه وهو يطلق القليل من سحب الدخان وراح عقله يستعيد تلك الذكرى القديمة. بدأ الأمر حين طلب الدكتور مصطفى رئيس قسم التشريح سابقا مساعدته في الكشف عن غموض أحداث مريبة وقاتلة تحدث في مشرحة كلية الطب بجامعة عين شمس، بدأ الأمر حين قتلت إحدى الطالبات في المشرحة في ظروف غامضة، ثم تبعها معيد شاب يعمل في قسم التشريح. كانت هناك حكايات لا تصدق عن جثة حديثة لفتاة، سرقت من إحدى المقابر، وجاء بها أحد العمال الحمقى للمشرحة، وكيف أنها راحت تظهر لعمال المشرحة في أحداث مخيفة. لكن الأمر كان أكبر من مجرد جثة دبت فيها الحياة ثانية، كانت الجثة تنتمي لجنس قديم شيطاني عاش قبل البشر على الأرض، جنس أطلِق عليه اسم "الكيانات القديمة"، وبالاستعانة بكتاب سري يملكه يدعى "كتاب اللعنات" قام بطقس سحري للقضاء على شر تلك الشيطانة، التي توعدتهم حينها بالعودة ثانية والانتقام منهم.
كان السؤال الذي يشغل باله هذا الصباح، هل تراها عادت بالفعل بوسيلة ما، وهل بدأت انتقامها؟ خاطر مريع لا يتمنى حدوثه، وإن كان الأمر غير مستبعد، وفي تلك اللحظة اختنق حلقه بدخان الغليون فراح يسعل في قوة.
جاء النادل حاملا فنجان القهوة ووضعها أمامه في حرفية، فشكره بإيماءة أرستقراطية، قبل أن تمتد يده نحو فنجان القهوة ليرفعه نحو فمه، ثم يرتشف بعض الشراب الساخن في شرود، كان غائبا عن العالم

من حوله، حتى أنه لم يلحظ تلك السيدة الأنيقة الجميلة التي راحت تتطلع إليه في نظرات متقطعة، في إعجاب واهتمام لم تجتهد في إخفائه، كانت في نهاية الثلاثينات من عمرها، أنيقة في فستان صباحي بسيط، وإن نم عن مدى ثرائها وذوقها وأرستقراطيتها. في الواقع كان عقله يتذكر أبطال تلك التجربة المخيفة في تلك اللحظة، عم منصور وجمال وعبد الدايم ومتولي والدكتور مصطفي والدكتور نعيم، لو كان ما يتوقعه صحيحا، فمن بقي حيا من هؤلاء الرجال سيكون في خطر رهيب هو ومن حوله. كان يفكر هل ينبغي عليه تحذيرهم؟ وهل سيجدي مثل هذا التحذير نفعا غير إثارة فزعهم، وهو يجهل كيف يواجه تلك الشيطانة.

ربما كان عليه الاستعانة بكتاب اللعنات ثانية، وربما كان عليه أن يفتش بين صفحاته المقبضة عن شيء، قد يفيده في موقفه هذا.

راح يطلق سحب الدخان من غليونه حين انتبه في النهاية لتلك الحسناء التي تراقبه، تلاقت عيونهما للحظة فلم تتمالك السيدة الجميلة نفسها وابتسمت رغما عنها، وعلى الفور أومأ لها برأسه محيياً، راح عقله في سرعة يضع تقيما نفسيا لها، كانت جميلة في منتصف العمر تحرص على أناقتها، وكان هذا يناسب ذوقه تماما في المرأة، ربما كان ليدعوها لفنجان من القهوة مثلا لو لم يكن متكدر المزاج هذا الصباح. أبعدت السيدة نظرها عنه في حياء فعاد لشروده ليفكر في الأمر الآخر الذي يشغل باله، تلك الرسالة الغامضة التي وجدها أسفل وسادة فراشه هذا الصباح. كان من العسير أن ينتبه لوجودها لولا أن خاطرا ملحا غامضا دفعه ليفتش أسفل الوسادة وهناك وجد تلك الرقاقة المطوية، والتي كانت تشبه المخطوطات القديمة في لونها واهترائها، لكنها كانت تختلف عن المخطوطات في تكوينها، كانت من الجلد، وبالنسبة لطبيب مثله متخصص في الخوارق لم يكن من العسير أن يعرف أنها من الجلد البشري. فضها في قلق وهو يتساءل من يكون صاحبها وبدأ في قراءتها.

"لا يكفي لقتل الأفعى أن تقطع ذيلها، ستعود حتما لو فعلت، ستعود لتنتقم، أنعش ذاكرتك أيها البشري وتذكر عدوك القديم، لقد عاد، عاد حاملا معه الموت والشر للجميع، فتش في أوراقك القديمة، فربما وجدت ما قد يرشدك نحو النجاة".

رسالة غامضة لم يفهم مغزاها في الصباح، لكنه وجد نفسه في الحمام وهو يشعل النار في الرسالة، لتتصاعد رائحة الشواء الخانقة، قبل أن يشغل السيفون ليتخلص من بقاياها.

لكنه الآن يعلم كنه الشر القديم الذي حذرته منه الرسالة، لقد عادت رومية، تلك الشيطانة من نسل الكيانات القديمة، عادت لتنتقم ممن واجهها، وعادت لتنشر الشرور في هذا العالم الغافل. كان عليه أن يبدأ التحرك على الفور، فقط كان عليه قبلها أن يقوم بأمر غريب قبل أن يغادر، كانت الفاتنة مازالت هناك، لا زالت ترمقه من حين لآخر، وهي تدعوه إليها برسائل خفية. تقدم نحوها بخطوات هادئة ثم توقف أمامها فرفعت عينيها نحوه في ترحيب غير خفي، وقدم لها نفسه قائلا:

-"هل تسمحي لي بتقديم نفسي، أنا الدكتور محمد شاهين، طبيب نفسي.

-"وأنا ماهينور حشمت، سيدة أعمال، مرحبا يا دكتور.

ابتسم في ثقة، وقد أدرك أنها تبدو أكثر إشراقا وجمالا حين اقترب منها، وأنها تحمل في أعماقها الكثير من السحر والفتنة. انحني قليلا نحوها ثم التقط أناملها الطويلة الدقيقة ورفعها نحو شفتيه، وقبلها في رقة، قبل أن يجلس في المقعد المجاور لها.

إنها فرصة جيدة للتعرف على سيدة مميزة كهذه، ولقد تعلم بعد كل هذا العمر الطويل أن هناك من الفرص الجيدة مالا يجب تفويته، ولهذا قرر أن يقضى القليل من الوقت معها.

(3)

ابتسمت سكرتيرة رئيس التحرير بلزوجة مقيتة، وهي ترمقه في تشف، حتى أن أسنانها النخرة التي أتلفها التبغ ظهرت كاملة أمام عينيه. كان هذا يعني أن كارثة قادمة في الأفق لتهوي فوق رأسه، فتلك السكرتيرة اللعينة، لن تظهر أبداً مثل تلك السعادة، إلا وهي تخفي في جعبتها مصيبة له. ابتلع يوسف الشوني، ريقه في صعوبة، ونظر للساعة التي في يده للحظة، دون أن يرى عقاربها، ثم قال بصوت خافت:

- هل سأنتظر هكذا طويلا؟

- الأستاذ خالد طلب أن تنتظره، وحين ينتهي من مسائله، سيخبرني كي أدخلك.

-لكنني هنا منذ نصف ساعة، وهناك تحقيق عدد الغد من الصحيفة، ولم أنتهي منه بعد.

- لو كنت في عجلة يمكنك بسهولة أن تطرق بابه وتدخل، الأمر بسيط كما ترى. والآن إما أن تنتظر في هدوء وصمت كالطفل المهذب أو تغادر المكان كله، أو حتى تقتحم مكتبه لتخبره عن مدى نفاد صبرك وكثرة مشاغلك، لكن رجاء لا تضيع وقتي بالحديث عن متاعبك، فأنا أشعر بالصداع.

رمقها يوسف في غل وغيظ وفي أعماقه راح شيطان غضبه يصرخ في جنون:

"تبا لك أيتها العجوز الشمطاء القبيحة، وتبا لرئيس التحرير الغبي الأفاق الفاسد، تبا لكم جميعا يا أولاد العاهرات، تبا لكم ألف مرة".

تمنى لو يرتفع صوته يوما بمثل ذلك السباب ويطلقه في وجوههم، لكن هذا اليوم لن يأتي أبدا كما يعلم، فرئيس التحرير موجود منذ سنوات في موقعه هذا، حتى بات كأحد الحقائق الأبدية في الجريدة، ولا يلوح في الأفق أي بادرة أمل في تغييره يوما، وكيف يفارق رجل كهذا مثل هذا المنصب الهام، وهو يجيد فنون التملق والتدليس والتطبيل للرئيس وحكومته وكبار رجال الأعمال والدولة، أضف إلى كل هذا، أن قيادات

الأمن كانت راضية عنه تماما، وكيف لا تفعل وهو الذي يصر على أن تكون صور وزير الداخلية أكبر من صورة أي مسئول آخر في الدولة، حتى لو كان رئيس الحكومة نفسه، بالطبع تلك القاعدة لا تنطبق على رئيس الجمهورية، فالجريدة المسائية ربع صفحاتها بالكامل مخصص لرئيس الجمهورية، أخباره، ولقاءاته، مع مقالات وآراء تسبح بحمده، وتتغنى بحكمته وعبقريته وتفرده، أضف لهذا أبوابا ثابتة تتحدث عما تقوله الصحف العالمية عنه من إشادة وتهليل، بالطبع كانت أغلب تلك التقارير المنقولة عن الصحف العالمية مفبركة لا أصل لها، لكن من يفتش عن الحقيقة في بر مصر؟

انتبه من شروده على صوت، سكرتيرة رئيس التحرير وهي تقول في لامبالاة دون أن ترفع رأسها عن الأوراق التي تطالعها فوق مكتبها:

- الأستاذ خالد في انتظارك.

نهض على الفور، وعدل من ملابسه، وهو يلتقط كاميرته التي لا تفارقه إلا وقت النوم، واتجه نحو باب رئيس التحرير، طرقها في خفة، ثم فتح الباب ودلف إلى الحجرة الفخمة التي تحتل نحو نصف الطابق كله، والتي زودها رئيس التحرير بكل أسباب الرفاهية، متعللا بأن العمل في الجريدة يستهلك أغلب وقته، ولهذا يجب أن يكون مكتبه مريحا، كي يكون قادرا على الإبداع، في المرة الأولى التي رأي فيها يوسف المكتب، اختنقت الكلمات في حلقه من الانبهار والبذخ الذي يراه، حتى أنه لم ينطق كلمة واحدة مفهومة، ورغم هذا كان جليا أن هذا سَر خالد شعبان رئيس التحرير، وأنه يروقه أن يرى الانبهار في عين من يعمل تحت قيادته في الجريدة، الآن لم تعد الحجرة وما فيها تشغل باله، فما يفكر فيه الآن هو ماذا يريد منه ذلك اللعين ولماذا استدعاه هذا اليوم بالذات، وهل سيفتح (جاعورته) له، أم ماذا؟

وقال فور أن دخل في رقة:

-صباح الخير يا أستاذ خالد.

لم يرفع خالد صلعته المميزة وجوانبها المصبوغة الشعر عن الأوراق التي أمامه، ولم يرد التحية. بداية غير مبشرة، هذا يعني أنه غاضب من أمر ما لا يعلمه يوسف، وهذا يعني بالضرورة أن يستعد لطوفان من الصراخ والشتائم التي تصل غالبا حد البذاءة، طال الوقت ويوسف واقف في انتظار أن يرفع خالد رأسه ويكلمه، ورغم جو الحجرة البارد بهواء المكيفات التي لا توجد في مبنى الجريدة كلها إلا في هذه الحجرة وملحقاتها، فقد راحت قطرات من العرق البارد تحتشد في جبهة يوسف، لكنه لم يجرؤ على مسحها بالمنديل، بل ظل منتصبا في جمود كالتماثيل، في النهاية قرر خالد أن يضع حدا لمعاناته وترقبه وحدسه فرفع رأسه أخيرا وقال ببطء:

- منذ متى وأنت تعمل في الجريدة يا يوسف؟

- أنا هنا م.. ..

لكن خالد قاطعه دون أن يدع له الفرصة ليجيب.

-أعلم بالفعل متى عملت، هذا حدث منذ سبعة أعوام تقريبا، أنا لا أسألك سؤال لا أعرف إجابته، فكل دبيب للنمل في الجريدة أعلمه، ولهذا وصلت لهذا الكرسي، ولهذا أيضا سوف أبقى فيه حتى الموت".

- أطال الله في عمرك يا أستاذ خالد.

جملة تملق لابد من ذكرها، فالتملق يروق بشدة لرئيسه،

- لكن ألا ترى أنك تعمل كل تلك الفترة الطويلة دون أن يتم تثبيتك في الجريدة، أنت لازلت تعمل بعقد سنوي يا يوسف حتى هذه اللحظة، رغم أن بعض زملاءك قد جاءوا بعدك إلى الجريدة، وتم تثبيتهم بل وبعضهم ترقى في المناصب حتى صار رئيسا عليك، برأيك ما الذي يعنيه هذا؟

هذا يعني بلا شك أن لهم واسطة. (كوسة) في المفهوم الدارج، غياب للعدالة في لغة المثقفين، لكن يوسف لم يجرؤ بالطبع على قول شيئا كهذا. ولهذا أجاب:

- يعني أني لم أنل بعد رضاءك يا سيدي، وأن علي أن أجتهد أكثر في عملي.
ولكن كيف يجتهد أكثر ولا يوجد عدد يومي للجريدة لا يحوي تحقيقا أو مقالا له، كان عمله الأصلي في الجريدة مصورا، لكن خالد أخبره أن هذا لن يكفي، وأن عليه أن يقوم ببعض التحقيقات وتحقيق بعض المقالات لكي يجد له مكانا في الجريدة.
- وهل تعتقد أنني قد أرضى، وأنت تكتب في تحقيقك الأخير عن معاكسات طلاب المدارس الثانوية للفتيات، أن أحد الأسباب الرئيسية له هو غياب الشرطة والأمن عن المدارس، هل هذا هو مبررك أيها الصحفي النابه؟
أسرع يوسف يدافع عن نفسه:
- لم أقصد هذا، فقط قلت أنه أحد الأسباب، وأن هناك أسباب أخرى بالطبع.
هنا صرخ خالد بصوته الحاد وقد احتقن وجهه:
-وماذا سيفعل الأمن في رأيك يا أستاذ، هل سيعين واحدا من أفراده مع كل فتاة كي يحميها، وهل تعتقد أن الأمن يملك الوقت لتلك التفاهات، الأمن الذي يحارب الإرهابيين ويواجه أعداء الداخل من المعارضة الممولة ليس لدية الوقت لمثل تلك التفاهات، مثل تلك الأمور تحدث لأن أولئك الأولاد يفتقدون للتربية، لم يربيهم آباؤهم، هل تفهم هذا".
-نعم أفهم، وسوف أقوم بتعديل التحقيق على الفور".
- لا تشغل بالك بهذا، لقد عدلته بنفسي.
ثم بدل من تعبيرات وجهه، ورسم ابتسامة على وجهه وهو يكمل:
-أنت هنا لأمر آخر أكثر أهمية.
- تحت أمرك يا سيدي.
- إنه عمل لا شأن له بالجريدة، لنقل أنه عمل يحتاج لمصور ماهر وصحفي خبير يجيد البحث والتقفي دون أن يشعر به أحد، ولهذا رشحتك له.

بدا الأمر كاللغز.
ومن غرفة جانبية معدة كاستراحة للضيوف خرج شاب أنيق في منتصف الأربعينات من عمره، وسيم وأنيق ومهذب، كان من العسير ألا يعرفه يوسف من الوهلة الأولى، إنه كمال البهتيمي، أحد أكبر رجال الأعمال في مصر إن لم يكن أكبرهم، نظر في البداية إلى يوسف نظرة فاحصة وكأنما يقيمه، فأسرع خالد ليتحرك من خلف مكتبه نحو كمال، وهو يقول:
-هذا هو يوسف الذي حدثتك عنك يا كمال بك، صحفي نشيط ومصور بارع، ورجل أمين. هيا رحب بالأستاذ كمال بك البهتيمي يا يوسف. بالطبع لا تجهل من يكون.
بالطبع كان لا يجهله، إنه أحد الحيتان العملاقة في هذا البلد، من العسير أن تسمع عن مشروع استثماري دون أن ترى اسمه يتصدره أو صورته في المقدمة. مد يوسف نحوه يده في ارتباك وهو يقول:
-أهلا يا كمال بك، شرف لي أن ألتقيك.
مد كمال يده نحو يوسف قائلا، وابتسامة عذبة على شفتيه:
-أهلا بك يا أستاذ يوسف. الأستاذ خالد يثني عليك كثيرا.
قالها في تهذيب شديد، وبوجه خال من التكلف أو الغطرسة، رمقهما خالد وقد طبع على وجهه أكبر ابتسامة لزجة، ثم عدل من بذلته وهو يقول:
-والآن بعد أن قمت بواجبي وعرفتكما ببعضكما البعض، فهل يمكنني الاستئذان لبعض الوقت، كما تعلمون العمل الصحفي، لا ينتهي ولا يعرف الانتظار، المكان مكانك يا كمال باشا.
قالها وانصرف في عجالة، كان واضحا أنه قد ذهب ليمنحهما بعض الخصوصية، أمر آخر مقلق ألقى بعشرات الفئران في قلب يوسف، بينما جلس كمال على مقعد أنيق مخصص للضيوف وأشار لخالد الذي ما زال واقفا:
-تفضل يا أستاذ يوسف. لماذا تقف هكذا، أنا الضيف هنا لا أنت.

جلس يوسف وفي قلبه ألف تساؤل يرتع بحثا عن إجابات، ما الذي يريده هذا الرجل الثري منه ولماذا أتى إليه في العمل، كان بإمكانه أن يرسل في طلبه لو شاء ولم يكن يوسف ليمانع. أخرج كمال علبة سجائر أنيقة، من جيبه ومد ذراعه بسيجارة قائلا:
-هل تدخن؟
أجابه يوسف وهو يهز رأسه بالنفي:
-كنت أدخن أعواما حتى اكتشفت إصابتي بحساسية الصدر فأقلعت رغما عني.
أعاد كمال العلبة إلى جيبه ثانية، قائلا:
-هذا يعني ألا أدخن أنا الآخر كي لا أؤذي صدرك.
غمغم خالد في ارتباك:
-يمكنك التدخين إذا شئت، لم يعد صدري مريضا.
-كلا، أتعلم يا أستاذ يوسف، كثيرا ما أتمنى الامتناع عن التدخين، لكنني أفشل في كل مرة. يبدو أن الأمر يحتاج لإرادة قوية للغاية كي أنجح في تنفيذ أمر كهذا.
لم يعقب يوسف وهو يتعجب، هل اقتطع كمال هذا الوقت الثمين فقط ليحدثه عن متاعبه في التدخين، بالطبع لا، هناك أمر خطير قادم، فقط الرجل يمهد له بهدوء. فقال بحذر:
-كيف يمكنني أن أخدمك يا سيدي؟
ابتسم كمال وهو ينظر لعينه في ثبات وقال:
- إنها خدمة صغيرة، وأعدك أن تكون المكافأة كبيرة، فقط لو تعهدت بالسرية والحذر.
-بالطبع أعدك، لكن ليس قبل أن أعرف طبيعة المهمة أولا؟
نهض كمال وصمت بعض الوقت قبل أن يجيبه:
-أريدك أن تراقب شخصا ما من أجلي، تتابع كل تحركاته، مع توثيق كل هذا ببعض الصور، وبالطبع أتمنى أن يحدث كل هذا دون أن تجعله يشعر بك.

ورغم غرابة المطلوب منه والذي يحتاج لرجل شرطة أو تحرٍ خاص أكثر من مصور صحفي، فقد قال يوسف:
-والشخص الذي ترغب في مراقبته أحد خصومك مثلا؟
هذه المرة نسي كمال وعده السابق بعدم التدخين من أجل سلامة رئتي يوسف، وأخرج لفافة تبغ من جيبه وأشعلها قبل يجيب ببطء:
-كلا، يا أستاذ يوسف. إنها. .. إنها زوجتي.
كان الجواب صاعقا، فارتد يوسف للخلف في ذهول، هل يشك هذا الرجل في أن زوجته تخونه، بالطبع لن يطلب مراقبتها إلا من أجل سبب كهذا، لكن ما الذي يدفعه لهذا وبإمكانه أن يطلقها مثلا، لن تعيقه الماديات بالطبع، طلب غريب بالفعل، راح كمال يدخن ببطء ومازال واقفا دون أن يلتفت نحو يوسف ودون أن يهتم ببقايا التبغ الساقطة على السجاد الفاخر لمكتب خالد، الرجل متوتر للغاية، وهو لا ينكر عليه شيئا كهذا، فكر يوسف. أطبق الصمت على المكان لأكثر من دقيقتين، قبل أن يلتفت إليه كمال ثانية. انحنى نحو المنضدة الأنيقة ووضع في مطفأة السجائر عقب سيجارته، قبل أن يخرج من جيبه دفتر شيكات بنكية، ويخط في الشيك مبلغا ما، ثم زيله بتوقيعه وهو يردف:
-هذا المبلغ هو الجزء الأول من أتعابك، وهناك مبلغ مماثل بعد انتهاء المهمة، هذا بالطبع لو قبلت بأداء تلك المهمة.
قالها وفصل الشيك من دفتره ووضعه بهدوء أمام عيني يوسف. تجاهل يوسف الشيك تماما، ولم ينظر إليه ولو من باب الفضول، وهو يقول:
-معذرة لتطفلي، لكني أعتقد أني بحاجة لبعض الإجابات قبل قبول مهمة كهذه.
-سل ما بدا لك.
-في البداية، أعتذر لو كان سؤالي وقحا، لكن لماذا ترغب في مراقبة زوجتك؟
التقط كمال سيجارته ذات الرائحة العطرية وأجاب بابتسامة باردة:

-أعتقد أن الخيانة هو أول شيء تبادر إلى ذهنك، ولك كل الحق في ظنونك تلك، لكن الأمر أكثر تعقيدا، هل تخونني زوجتي؟ .. اممم .. من يدري، ربما كانت تفعل .. لكن هذا ليس ما يدفعني لمراقبتها، فمازالت أمامي هي نفس الزوجة المخلصة المحبة التي لا تشوبها شائبة، لكن حين تغادر مكانها طوال الوقت ولا تعثر عليها مهما حاولت، فالأمر مريب. حين تنام إلى جوارك طوال الليل، ثم تجد من أصدقائك أنها كانت توجد في ملهى ليلي في نفس الوقت، ويقسم أنه شاهدها بعينيه ومعه شهود على هذا فالأمر مريب، لكني أقسم أنا الآخر أنها كانت بجواري بالفعل في تلك اللحظة تغط في نومها، بل وحين استيقظت في منتصف الليل للذهاب للحمام كانت بجواري، فكيف رآها صديقي في مكان آخر في نفس الوقت؟ مثل هذا الأمر لم يحدث مرة واحدة أو مرتين، بل تكرر كثيرا، وفي أماكن مختلفة، ومع أكثر من صديق أو صديقة.

-ولماذا لم تسألها عن تفسير هذا؟

-ومن قال أنني لم أفعل؟، كنت أسألها وكانت تجيب في سخرية، "ربما كانت قرينتي من الجان هي من يرونها"، لقد كدت أصاب بالجنون، ظننت في البداية أنها تضع لي مخدر في الطعام أو الشراب فامتنعت لأيام عن تناول الطعام في البيت، وتعمدت أن أظل مستيقظا طوال الليل لأتأكد أنها لا تغادر الفراش، ورغم هذا ظل الأصدقاء يلقونها في النوادي والملاهي الليلية كل يوم تقريبا.

-ربما كانت امرأة تشبهها أو حتى توأم لها.

-أولا زوجتي لا إخوة لها، ثانيا كانت تلك المرأة هي زوجتي، لأن بعض أصدقائي تقدموا لتحيتها وكانت تعرفهم وتتحدث معهم بود ولو سألوها عن أخباري كانت تخبرهم بأحوالي كما تفعل الزوجات. حتى جاءتني إحدى الصديقات بصورة جمعتهما في الملهى وهما تبتسمان، لقد كانت زوجتي هي من بالصورة، من المستحيل أن أخطئها، وخاصة

لو كانت ترتدي نفس الحلي والفستان الذي ابتعته لها خصيصا من أكبر مصممي الأزياء في فرنسا.

-وهل واجهتها بتلك الصورة.

صمت للحظة ثم نظر إلى يوسف وأجاب:

-كانت فرصة ذهبية للحصول على إجابة مقنعة، لكن .. لكن حين دفعت بالصورة إليها نظرت إليها ثم ضحكت في تهكم وهي تسألني "ما الغريب بالصورة"، ثم كدت أن أصاب بالجنون حين نظرت للصورة ثانية فلم أجد صورة زوجتي بها، فقط كانت صديقتي وصورة امرأة أخرى لا أعرفها بدلا من زوجتي.

بدا أمرا مريبا ومخيفا في الوقت نفسه. زوجة تظهر في مكانين في وقت واحد، وتظهر ثم تختفي من الصور، أمر مخيف بالفعل، بالطبع من حق هذا الرجل بالفعل أن يبحث عمن يراقب زوجته ليظفر بالإجابات.

لكن لماذا هو وليس أحد آخر، ولهذا عاد يوسف ليسأل:

-ولماذا لم تطلب من أحد رجالك المقربين منك القيام بتلك المهمة، ألا يعد هذا أكثر حيطة، من الاستعانة برجل لم تتعرف عليه إلا للتو.

-بالعكس، لو دخلت عالمي لعلمت أن أخطر الرجال هم المقربون منك، يكفي امتلاكهم سرا خطيرا عنك كي يبتزوك أو حتى يدمروك به لو استطاعوا. ولهذا من العسير أن أطلب شيئا كهذا من أحد رجالي، أضف لهذا أن زوجتي تعرف أكثرهم بالفعل، وسوف تكتشف الأمر بسهولة لو أرسلت أحدهم.

إجابة معقوله، لكن يوسف ظل على عناده، هناك لغز في الأمر، فليواصل طرح الأسئلة إذن.

-وماذا عن الاستعانة بمخبر خاص أو حتى رجل شرطة محترف. إنهم أكثر كفاءة مني بالتأكيد في مثل تلك الأعمال.

-ومن قال أنني لم أفعل.

-وماذا حدث؟

نظر إليه كمال في تردد قبل أن يجيب في بطء:
- لقد اختفوا!

(4)

يعرف الدكتور محمد شاهين مشرحة زينهم جيدا، فطالما احتاج لزيارتها دوما، وخاصة مع الأمور المتعلقة بالخوارق التي يهتم بها، والتي تنتهي غالبا بحوادث القتل، كانت عادة غريبة أورثته متاعب جمة، وخاصة مع الشرطة، حتى أن أحد الضباط المتحمسين، أراد يوما ملاحقته قبل أعوام، متهما إياه بأنه وراء جرائم قتل متسلسلة بشعة، بل واتهمه كذلك بأنه قاتل متسلسل، يتخفى في زي طبيب نفسي يهتم بالهراء المسمى بالخوارق كستار له. كان الضابط مؤمنا بظنونه، ومن حسن حظ الدكتور محمد شاهين أن الضابط فشل في إقناع رؤسائه بشكوكه، ولهذا لم ينجح في استصدار أمر بالقبض عليه. لكنه لم ييأس وراح يراقبه كظله في كل مكان. كان الأمر مسليا في البداية للدكتور محمد شاهين، ففي تلك القضية كانت قيادات عليا من الداخلية هي من طلبت مساعدته، ولم يكن متورطا أو مهتما بتلك القضية على الإطلاق، ولهذا لم تكن شكوك الضابط الشاب تعني شيئا لهم. استمتع الدكتور محمد شاهين وقتها في بث الشكوك في قلب الضابط بارتكابه أفعالا مريبة، فذات مرة انطلق في جنح الظلام صوب المقابر وهو يعلم أن أحد المخبرين السريين والمكلف من قبل ذلك الضابط بمراقبته ليلا، يراقبه، اختفى الدكتور محمد شاهين في المقابر، وكما توقع أسرع المخبر بإخبار رئيسه، وبعد نصف الساعة خرج الدكتور محمد شاهين من ظلام المقابر ليجد ذلك الضابط مع العديد من رجال الشرطة في انتظاره، راح الضابط يرمقه في انتصار، مبتسما قبل أن يدور حوله وهو يرمق الحقيبة القماشية متوسطة الحجم التي يحملها الدكتور محمد في شك ويقول:
- ها نحن نلتقي ثانية يا دكتور شاهين.

-يسعدني لقاؤك دوما يا سيادة النقيب.
شعر الضابط ببعض الريبة من ثقة الدكتور محمد، وعدم ظهور بوادر الارتباك أو الخوف على وجهه، لكنه أقنع نفسه أنها ألعوبة من ألاعيب الطبيب النفسي ليبث الشك في نفسه، ولهذا تمالك نفسه وقال:
-والآن ماذا نرى هنا، طبيب نفسي يخرج من قلب المقابر في قلب الظلام بمفرده وهو يحمل في يده حقيبة كبيرة، ألا توافقني أن هذا الأمر قد يبدو مريبا؟
-ربما كنت أجمع الزهور أيها الضابط، هواية قد تبدو غريبة لكنك لو علمت العجائب والهوايات الشاذة التي يقوم بها البشر طوال الوقت لما توقفت عن الانبهار.
-زهور من قلب المقابر، وتجمعها في الظلام، ما المانع؟ ربما كنت محقا، لكن ماذا لو كان ما تجمعه شيئا آخر، ماذا لو كان ما تقوم به غير قانوني؟
-أمر محتمل، لكن برأيك، ما هو الأمر غير القانوني الذي قد أكون فعلته؟
-ربما تخبرنا بهذا حقيبتك التي تحملها الآن؟
أطلق الدكتور محمد شاهين ضحكة ساخرة وهو يجيب:
-أنت محق، حقيبتي قد تحمل دليل براءتي أو إثبات شكوكك نحوي، ربما كان ما أحمله كومة من الزهور، وربما كانت تحوي رفات موتى أو حتى لفائف مخدرات، ومن يدري ربما كان بها جثة رضيع. كل الاحتمالات قائمة لكن المشكلة أنك لا تحمل إذنا من النيابة بتفتيشي أو تفتيش هذه الحقيبة المريبة، وأنا رجل رغم مظهري الودود، يعرف الكثير من الرجال المهمين في هذه الدولة والذين سيسرهم حتما مجاملتي بمعاقبة ذلك الضابط المتحمس، لو قام بتفتيشي من غير إذن بهذا من النيابة ولم يجد ما يدينني.
بدت الريبة على وجه الضابط ورجاله الذين لم يعتادوا أن يخاطبهم أي مدني بمثل هذا التبجح، لكن الضابط غالب تردده، وقال في تحد:

-سأجازف أيها الطبيب، وأنا متأكد أنك تحاول بث الشك في نفوسنا لنخرج من هنا دون تفتيشك، لكنني متأكد أن تلك الحقيبة تحوي ما يدينك.
ثم التفت إلى رجاله، وأشار إلى الدكتور محمد شاهين وهو يقول آمراً:
-فتشوه هو والحقيبة.
حافظ الدكتور محمد على ابتسامته الساخرة وهم يقومون بالأمر، انتزع مخبر ضخم الحقيبة من يده في عنف وفتحها بفظاظة بيده الضخمة حتى أنه مزقها في الواقع، في نفس الوقت الذي راح اثنان آخران من أمناء الشرطة بتفتيش الدكتور محمد ذاتيا، مرت لحظات قبل أن يخرج المخبر باقة كبيرة من الزهور من داخل الحقيبة الممزقة ورفعها أمام رئيسه قائلا:
-إنها زهور بالفعل يا فندم، لا يوجد بالحقيبة شيء آخر.
اندفع الضابط نحو المخبر في غير تصديق وأمسك كومة الزهور وراح يمزقها في عنف وهو يبحث عن شيء قد يكون مختفيا داخلها، وحين لم يجد شيئا ألقى بالزهور الممزقة على الأرض وراح يقلب الحقيبة القماشية في جنون. كانت فارغة بالفعل، التفت بعدها إلى رجلي الشرطة اللذين انتهيا من تفتيش الدكتور محمد شاهين وهو يرجو أن يكونا قد عثرا على ما يدين الطبيب النفسي، لكن وجهيهما أشارا بالعكس وقال أكبرهما وهو يمد يديه بما وجداه داخل جيوب الدكتور محمد شاهين:
-لم نعثر إلا على هذه الأشياء يا فندم. محفظته وهاتفه المحمول وسلسلة المفاتيح.
زاغت عينا الضابط في توتر ونظر إلى وجه الدكتور محمد المبتسم في ثقة وهدوء ثم إلى الأرض التي امتلأت ببقايا الزهور، ثم سمع الدكتور محمد يقول:
-والآن ماذا يقول نقيب الشرطة الهمام بعد أن اتهم بالباطل مواطنا صالحا، وفتشه بصورة غير قانونية قبل أن يقوم بإتلاف ممتلكاته

الخاصة. هل ما قمت به أيها الشرطي قانوني.
-حتى لو كان ما قمت به غير قانوني فلن يمكنك إثبات هذا؟ لا يوجد شهود على ما حدث ولن يشهد رجالي ضدي.
-خطأ آخر أيها الشاب، فأنا لدي شاهد مهم للغاية سمع كل ما دار بيننا الآن.
ثم مد يده نحو المخبر الذي يمسك بهاتفه المحمول ونزعه من يده وأضاء الشاشة التي أشارت إلى وجود اتصال قائم بالفعل منذ دقائق عشر، وعلى الشاشة كان المتصل عليه شخص هام للغاية، مد الدكتور محمد بالهاتف نحو الضابط وهو يستطرد:
-إنه المحامي العام للقاهرة. صديق شخصي قديم من حسن حظي أنه كان يحدثني قبل تلك المسرحية السخيفة التي قمت بها مع رجالك، أعتقد أنه عليك أن تتحدث إليه الآن.
تراجع رجال الشرطة في توتر وهم ينظرون إلى بعضهم البعض في خوف، وبأصابع مرتجفة التقط الضابط الشاب الهاتف ووضعه على أذنه وهو يقول:
-نعم .. تمام يا فندم .. خطأ غير مقصو.. .. تمام يا فندم. .. سأكون أمام المكتب في الصباح .. في رعاية الله يا فندم.
وبوجه شاحب رغم الظلام وحنق مكتوم، أعاد الهاتف للدكتور محمد شاهين الذي التقطه مبتسما ثم التقط باقي أغراضه من رجل الشرطة الذي فتشه، وسوى هندامه في أناقة. ثم ألقى التحية على النقيب قائلا:
-أمسية طيبة أيها النقيب.
ثم تحرك نحو سيارته وهو يغمغم بصوت مسموع:
-كانت زهورا جيدة للأسف.
في الواقع لم يكن الأمر كله مجرد مزاح، ولو كان ذلك الضابط محظوظا لفتشه قبل دخوله المقابر وليس بعد خروجه، كان يحمل في حقيبته بعض الرفات القديم المطلسم، ففي ذلك الوقت كانت هناك حوادث غامضة تدور في قلب الجبانة أخبره بها حارس المقابر العجوز، أصوات

غامضة تنبعث من قلب مجموعة من المقابر وهزات أرضية خفيفة وأضواء عجيبة، أراد حينها الدكتور شاهين التأكد أن الأمر ليس خدعة من بعض الخارجين عن القانون مثلا والذين قد يكونون قد اتخذوا المقابر ملجأ لهم. كانت تلك الطلاسم مخصصة للإجابة عن سؤاله، سوف يدفنها في قلب إحدى تلك المقابر، ولو احترقت في الصباح فهذا يعني أن الأمر غير بشري وأن شرا ما يحيط بهذا المكان. أما باقة الزهور التي حملها عند عودته فقد اشتراها حارس المقابر في الصباح وتركها هناك كما أمره الدكتور محمد!

خطا الدكتور محمد في أروقة المشرحة، بخطوات من يعرف طريقه جيدا، اتجه مباشرة إلى مكتب الدكتور محسن، كبير الأطباء الشرعيين في المشرحة، وصديقه القديم. وفي المكتب وجد آمال سكرتيرة الدكتور محسن الشابة كعادتها تجلس خلف مكتبها وأمامها كومة ضخمة من الملفات. كانت جميلة في الواقع وإن كان جسدها يميل للبدانة قليلا في غير إفراط، رفعت رأسها حين رأته وقد أشرق وجهها وهي تهتف:

-دكتور محمد شاهين، مرحبا بك.

-آمال الجميلة، كيف حال فاتنتي التي تصر على العمل في هذا المكان الكئيب السخيف.

اعتاد مغازلتها في كل مرة يأتي للمكان، وكان هذا يرضيها كثيرا في الواقع، فرغم سنواته التي تعتقد أنه يقترب فيها من الخمسين إلا أنه ما زال وسيما أنيقا كنجوم السينما، كما أن الشيب على جانبي رأسه كان يثير جنونها، حتى أنها ظلت تتساءل، لماذا لا يولد الشباب بمثل تلك الخصل البيضاء الفاتنة.

أجابته وقد تخضب وجهها بالاحمرار:

-في خير حال يا دكتور. كيف حالك أنت؟

مال نحوها في عبث، وهو يقول:

-هل تعلمين لو كنت أصغر سنا لتزوجتك يا صغيرتي، لكن للأسف صرت كهلا عجوزا لا أصلح لشيء غير النظر للفاتنات بحسرة على

العمر الذي ضاع قبل أن ألقاهن.
هتفت على الفور دون أن تشعر:
-ومن قال أنك عجوز، أنت أجمل وأكثر شبابا من أي شاب رأيته.
ضحك الدكتور محمد شاهين على الفور من جرأتها المفاجئة، بينما انتبهت هي إلى جرأتها، فخفضت رأسها على الفور، وقد احتقن وجهها كثيرا هذه المرة، ثم قال الدكتور محمد:
-مجاملة لطيفة من فتاة لطيفة، لكن من الصعب تصديقها، والآن أخبريني، هل طبيبك العجوز القبيح بالداخل؟
هزت رأسها دون أن ترفعه بالإيجاب.
-إذن سأدخل إليه، لكن قبلها هناك سؤال أخير، هل مازال ذلك العجوز يغازلك ويلقى بحبائله نحوك؟ أخبريني أنه يفعل لأقتله الآن.
ضحكت هذه المرة وهي تهز رأسها ثانية بالنفي. بينما تركها الدكتور محمد وهو يطرق باب حجرة الدكتور محسن، قبل أن يفتحه ويدخل الحجرة، ثم يغلقه خلفه في هدوء، بينما تنهدت آمال في حسرة وهي تقول:
-لماذا لا يتمتع الشباب اليوم بتلك الجاذبية والوسامة!

(5)

نهض الدكتور محسن من خلف مكتبه فور أن رأى الدكتور محمد شاهين، وأطلق ضحكته الصاخبة الطفولية وهو يندفع نحو صديقه القديم ويقول:
-علمت أنه أنت منذ البداية، لا أحد يحدث مثل هذا الصخب خارج غرفتي غيرك.
-إنها آمال سكرتيرتك الحسناء، الفتاة جميلة فعلا يا محسن، فقط لو تخسر بعض الوزن.
-وحتما غازلتها وبالطبع راقها الأمر.

-إنها سخرية القدر يا صديقي، عجوز أصلع بدين مثلك يحظى بمثل تلك الفاتنة كمساعدة له بينما أحظى أنا بوداد كمديرة لمنزلي.
أطلق الدكتور محسن ضحكة مجلجلة جديدة، كان قد اعتاد معابثة صديقه القديم وكان يتقبلها بصدر رحب كالعادة، ولهذا قال:
-يمكنك أن تتزوجها لو شئت، أضمن لك ألا ترفض رغم فارق السن الكبير.
-وماذا لو رفضت؟
- لن يحدث، فقط لا تخبرها أنك تكبرني بنحو عشر سنوات، كي لا تصاب بالهلع، يمكنني أن أساعدك في هذا الأمر، لو أخبرتني بالشراب السحري الذي تتناوله دوما لتبدو شابا هكذا ولا يبدو عليك الهرم.
-شراب أكباد الرضع مع بعض البذور السحرية، أخبرتك بهذا من قبل، أنت فقط الذي لا تصدق.
ضحك الدكتور محسن مرة جديدة، وأشار لصديقه بالجلوس على أريكة من الجلد، ثم جلس إلى جواره وهو يقول:
-وحتى لو صدقتك، هل تعتقد أنه من اليسير العثور على أكباد هؤلاء الرضع، إننا في آخر الزمان يا صديقي ولم يعد شراء وذبح الأطفال الرضع متاحا كالسابق، في الواقع بت أصدق أنك "مخاوي" إحدى الجنيات، وأن هذا سر شبابك الدائم، وعزوفك عن الزواج ببنات البشر، أعتقد أنها ستقتلك لو فعلت.
ضحكا معا بصخب وقد راقت لهما الدعابة. امتدت صداقتهما لأكثر من ثلاثين عاما، وقتها كان الدكتور محسن مجرد طبيب شاب متدرب في المشرحة وكانت هناك جريمة بالطبع يفتش الدكتور محمد شاهين خلفها. وقتها كان الدكتور محسن يعتقد أنه أحد المجذوبين من هواة المشاكل. والآن وبعد هذا العمر الطويل صارا مقربين للغاية حتى لو لم يتقابلا كثيرا، اعتادا الحديث عن شكل الدكتور محمد الذي لا يتقدم به السن حتى أن من يراه ويرى الدكتور محسن سوف يعتقد على الفور أن الدكتور محسن هو الأكبر بأكثر من سنوات عشر على الأقل، في

الحقيقة يؤمن الدكتور محسن أن هناك سر غير بشري يحيط بسر شباب صديقه الدائم، لو كانت الأساطير صحيحة لاعتقد أنه وجد ينبوع الشباب وأنه يشرب منه كل صباح.
ران الصمت بينهما للحظات قبل أن يقول الدكتور محسن:
-لا أعتقد أنك جئت اليوم إلى هنا لمجرد أنك اشتقت لي يا محمد.
اتسعت ابتسامة الدكتور محمد شاهين وقال:
-هذا لا يمنع أنني كنت أفكر في لقائك يا صديقي، وأن زيارتي فرصة جيدة لرؤيتك.
مسح الدكتور محسن رأسه الصلعاء تماما، بمنديل ورقي التقطه من علبة أمامه، ثم قال:
-يمكنني أن أخمن أي جريمة قتل تبحث خلفها الآن، إنها تلك الزوجة المسكينة التي قُتلت، ثم اختفى زوجها. ألست مصيبا؟
هز الدكتور محمد رأسه موافقا، وغمغم:
-لنقل أن لدي مخاوف ما حول تلك القضية، وخاصة أنني أعرف زوجها المختفي، لكن أخبرني أولا، كيف ماتت، وهل ما تتحدث به الصحف صحيح؟
-أخبرني أنت أولا، هل طلبت الشرطة الحصول على مشورتك هذه المرة؟
-ليس بعد. أنا أبحث عن الأمر بصورة شخصية.
-إذا لن تتحدث أو تخبر أحدا بما سأخبرك به أو ستراه هنا.
تحذير قديم لا يمل الدكتور محسن من تكراره، في كل مرة يساعد فيها الدكتور محمد، بينما ابتسم الأخير قائلا:
-أعدك ألا أفعل يا محسن. والآن أخبرني، كيف ماتت المرأة؟
ابتلع الدكتور محسن ريقه في صعوبة، وقد بدا التوتر على وجهه، ثم نهض وهو يغمغم:
-أفضل أن ترى بنفسك، ولو أن منظر جثتها لن يروقك أبدا.

نهضا سويا، واتجها إلى قاعات التشريح حيث تحفظ الجثث في المبردات. حيا الدكتور محسن عامل شاب ثم قال له:

-لا تسمح لأي شخص بالدخول يا مرسي، حتى لو كان أحد الأطباء.

دلفا القاعة الباردة، بينما اتجه الدكتور محسن مباشرة نحو أحد رفوف المبرد، وجذبه نحوه بقوة. أصدر الرف المعدني رنينا مكتوما، ثم استجاب ليده وخرج حاملا جسدا ضئيلا مغطى بملاءة بيضاء لوثتها الدماء. وقف كلا الرجلين في ناحيتي الرف المعدني ثم رمق الدكتور محسن الدكتور محمد في بعض التوتر، وكأنما يستوثق منه أنه يريد رؤية الجثة حقا، فهز الدكتور محمد رأسه مؤكدا. وبهدوء جذب الملاءة عن الجثة.

كانت النظرة الأولى كافية ليتراجع الدكتور محمد للخلف على الفور، وقد تقلصت عضلات وجهه في جزع، فرغم أنه رأى الكثير من الجثث، إلا أن تلك الجثة كانت أكثرها بشاعة، كانت أجزاء كثيرة منها مفقودة. كلتا العينين وأعلى الأنف والخدين، وقد برزت الأسنان النخرة من خلف الشفتين المنزوعتين، بينما تدلت من الرقبة بعض الأوعية الدموية والأوتار المقطوعة، وقد نهش وحش ما أغلب صدر الجثة وبطنها. أما الأطراف فكانت منزوعة العضلات في أغلبها وقد اختفى نصف اليد اليمنى. تنهد الدكتور محمد في ألم وغمغم:

-رباه. من فعل بها هذا؟

-أخبرتك أن رؤيتها لن يروقك.

-تبدو وكأنما سقطت في قفص يعج بالأسود الجائعة.

صمت الدكتور محسن للحظة مفكرا، قبل أن يجيب:

-كانت لتكون محظوظة لو أن هذا ما حدث لها فعلا، لم تكن الأسود لتفتك بها هكذا.

-ما الذي تقصده؟

-لقد نهشتها حيوانات صغيرة, وإن كانت أكثر ضراوة وشراسة من الأسود.

تطلع الدكتور محمد إلى آثار التمزيق العنيف في الجثة، وهو يحاول التخمين وغمغم:
-وهل تقترح حيوانا ما؟
أخرج الدكتور محسن قلما من جيبه، ثم رفع به إحدى عضلات الصدر المنهوشة لأعلى وهو يقول:
-انظر هنا، هذه آثار أسنان الشيء الذي مزقها، من الواضح أنها أصغر بكثير من أنياب الحيوانات الضارية الكبيرة التي نعرفها. هذا يعني أننا هنا نتحدث عن حيوان مفترس أصغر بكثير. حيوان مثل الجرذان.
بدت الدهشة على وجه الدكتور محمد وقلص عينيه متتبعا الآثار الصغيرة للأسنان في الجسد الدامي، ذات يوم رأى جثة رضيع نهشتها الفئران لكن التمزقات لم تكن بمثل هذه الحدة.
-وهل تعتقد أن الفئران قد فعلتها؟
-حتى هذه اللحظة لست متأكدا من هذا، ربما سيصير الأمر أكثر وضوحا فور أن تصلنا نتائج تحليل العينات، فالأسنان هنا تقارب بالفعل أسنان الجرذان في الحجم، لكنها أكثر حدة وقوة. إن تلك الحيوانات الشرسة لم تعاني على الإطلاق في تمزيق كتل اللحم والعضلات ونزعها بعيدا عن العظام. في الواقع لم أسمع يوما عن فئران تمتلك مثل تلك القوة والعنف.
راقبه الدكتور محمد في تأمل، ثم شعر أنه لا يقوى على النظر إلى الجثة أكثر من هذا، فمد يده نحو ملاءتها وغطاها بها ثانية، وهو يستطرد:
-وماذا عن الدماء؟ لا أرى أي دماء متخثرة في الجثة أو حول الجروح.
تنهد الدكتور محسن في يأس، وقال:
-هذا هو الأمر المحير الثاني، فالجثة كانت خالية تماما من الدماء. يبدو الأمر وكأن مصاص دماء امتص دماءها بالكامل قبل أن تنهشها تلك الضواري، بالطبع لا أؤمن بوجود مثل تلك الكائنات الخرافية، لكنه مجرد تشبيه لأوضح لك ما حدث.
-وهل هذا كل شيء؟

-بقي أمر أخير أكثر بشاعة في الواقع.
هنا ارتفع من خلفهما صوت غليظ يقول في حدة:
-ألا تعلم يا دكتور محسن جريمة إفشاء أسرار قضية منع النائب العام نشر أي خبر عنها لغير المختصين.
التفتا على الفور، وقد امتقع وجه الدكتور محسن، وهو يرمق القادم من بعيد في قلق. كان شابا في منتصف العمر قوي البنية، يبدو على وجهه الأسمر الحزم والقوة. وقال له الدكتور محسن في توتر:
-من أنت وكيف سمح لك مرسي بالدخول إلى هنا؟
أجابه الشاب في برود:
-حارسك لا يملك السلطة ليمنعني من الدخول، أنا الرائد فؤاد، وأنا الضابط المسئول عن التحقيق في مقتل تلك السيدة واختفاء زوجها. ويبدو أنني وصلت في الوقت المناسب لأرى كبير الأطباء الشرعيين وهو يفشي أسرار قضية منظورة لأحد المدنيين.
رمقه الدكتور محمد شاهين في هدوء محاولا تحليل شخصيته دون أن يتكلم، بينما هتف الدكتور محسن في توتر:
-الأمر ليس كما تعتقد أيها الرائد، إنه الدكتور ..
-الدكتور محمد شاهين. طبيب نفسي وخبير جرائم ومتخصص في ملاحقة الخرافات والقضايا الغامضة. أليس كذلك؟
ابتسم الدكتور محمد في رضا، وقال:
-يسرني أن جهاز الداخلية بأكمله يعلم من أكون. لم يكن الأمر هكذا في الماضي. فحتى حين كان رجالكم يسألونني المشورة، كان الأمر يبقى دوما سريا.
التفت إليه فؤاد وقال:
-في الواقع الأمر مازال كما هو، وصدقني يا دكتور شاهين، لم أكن أعلم أي شيء عنك حتى هذا الصباح. لكن بعض القادة طلب مني الاستعانة بك في هذه القضية، وقد توقع منك المساعدة في الأمر. لهذا بحثت عن معلوماتنا عنك قبل المجيء إلى هنا، وكنت محظوظا حين عثرت

على صورة لك، ولهذا تعرفتك منذ البداية.
تنهد الدكتور محسن في ارتياح، فبعد ما قاله فؤاد لم يعد هناك ما يخشاه. لقد صار الدكتور محمد شاهين أحد المكلفين رسميا بتتبع القضية. بينما واصل الرائد فؤاد حديثه:
-والآن يا دكتور محسن هلا واصلت الحديث، لقد كنت تتحدث عن أمر أخير بشع بخصوص الجثة قبل أن أقاطع حديثكما، هلا أخبرتنا ما هو هذا الأمر البشع؟
نقل محسن نظره بينهما ثم قال بعد تردد:
-في الواقع هناك ما يدفعني للقول أن هذه المرأة قد تم نهشها هكذا وهي حية.
وقبل أن يبدي أي منهما ردة فعل على ما قاله الدكتور محسن، ارتفع بغتة صوت أنثوي غليظ من خلفهم يقول:
-هذا صحيح. لقد كنت حية حينها بالفعل.
انتفض الثلاثة في فزع، وصرخ الدكتور محسن في رعب. فالجثة التي أولوها ظهورهم كانت جالسة في تلك اللحظة وقد أدارت رأسها الممزق نحوهم، وهي ترمقهم بعيون استبدلت مقلتيها الفارغتين بجمرتين من نار.
جثة ممزقة تتكلم؟
جثة بلا فم أو لسان أو حنجرة تصدر صوتا؟
دقت قلوبهم في فزع، وراحت تتواثب داخل صدروهم في جنون. ثم شرع فؤاد مسدسه في وجه الجثة بيد مرتجفة وهو يصرخ:
-إنها جثة ميتة، وكل هذا وهم حتما.
ورغم خوفه المماثل أيقن الدكتور محمد شاهين أنه لا خدعة أو أوهام فيما يحدث، لذا جذبهما للخلف وهو يهتف:
-دعونا نغادر هذا المكان اللعين أولا.
لكن الغرفة أظلمت في تلك اللحظة تماما. فصرخ فؤاد هو الآخر مشاركا الدكتور محسن صرخته، وهو يطلق رصاصتين نحو الجثة المتكلمة

رغم الظلام. وعلى الفور انطلقت ضحكة ساخرة من قلب الظلام. ضحكة خشنة أصدرتها جثة!

تراجعوا للخلف والدكتور محسن يصرخ:

-ما هذا العبث الشيطاني .. رحماك يا الله .. رحماك يا الله.

التصق الثلاثة ببعضهم البعض وهم لا يعرفون إلى أين يذهبون في الظلام، وراح الدكتور محمد شاهين يفتش جيبه في جنون بحثا عن هاتفه المحمول ليشعل ضوئه. في نفس اللحظة التي راحت الرفوف المعدنية للمبرد الذي يحفظ الجثث في إصدار أصوات تشي بفتحها. اشتركت الضحكة الشيطانية للجثة، وأصوات الرفوف المعدنية التي تُفتح، والظلام الدامس المحيط بهم في بث المزيد من الرعب في نفوس الثلاثة. لم يتمالك فؤاد نفسه وأطلق المزيد من رصاصات مسدسه نحو المكان الذي اعتقد أن الجثة فيه، وعلى الضوء المتخلف من ضوء الرصاصات والذي دام لأقل من لحظة أدركوا أن جثة المرأة لم تعد هناك في مكانها، وأن كل رفوف مبرد المشرحة قد فتحت، وقد اتخذت داخلها الجثث وضع الجلوس. بدا وكأن كل جثث المشرحة قد عادت إليها الحياة.

فرغت رصاصات مسدس فؤاد، فعاد الظلام، لكن الدكتور محمد نجح في فتح شاشة تليفونه، والدكتور محسن يصرخ في الظلام بكل قواه:

-النجدة، أخرجونا من هنا. أنقذونا قبل أن نموت.

أضاءت شاشة الموبايل للحظة رأوا فيها الجثث وهي تغادر مكانها، قبل أن تطفأ شاشة الهاتف للأبد وقد احترقت شاشته. فهتف الدكتور محمد:

-لنتحرك للخلف وليتمسك كل منا في الآخر. لا أريد أن يضل أحدنا طريقه في هذا الظلام فيجد نفسه وسط الجثث. الباب كان إلى اليسار، فلنتحرك نحوه.

راح الدكتور محسن يردد في سره:

-يا رب .. أنقذنا يا رب.

تراجعوا في تحفز، بينما راحت أصوات أقدام عارية تدب على الأرض متجهة نحوهم. اصطدمت ظهورهم بحائط لا يعلم أحدهم من أين أتي، فصرخ الثلاثة في نفس اللحظة التي مست أكفا باردة متيبسة بهم. تواثب الثلاثة في رعب ورنت ضحكة مخيفة جديدة في الظلام، بينما راح كل واحد من الثلاثة يدفع الأيدي الباردة الجامدة بعيدا عن أجسادهم. وصرخ الدكتور محمد ثانية:

-لا تتوقفوا مهما حدث. تحركوا دوما نحو اليسار. الباب هناك حتما.

واصلوا التحرك، نحو اليسار بالفعل، ومازالت الجثث تلاحقهم. وحين استداروا وجدوا عيونا متوجهة في الظلام لجثة بانتظارهم في الخلف، وصاحبتها تقول:

-إلى أين تذهبون؟

كاد الدكتور محسن أن يفقد وعيه، وخاصة وقد أمسكت بقدمه إحدى الجثث، في نفس اللحظة التي اندفع فيها فؤاد نحو الجثة التي تعترض طريقهم قائلا:

-كلا. لن تقلتني جثة.

ثم ركلها في عنف لتطير وتختفي في الظلام. هنا فتح الباب بغتة ومن خلفه مرسي وهو يقول:

-ما الذي يحدث هاهنا.

اندفع الضوء من الخارج نحو الداخل. وبينما هرول فؤاد هاربا التفت الدكتور محمد للخلف، ليرى منظرا مفزعا. الجثث كلها تحيط بجسد الدكتور محسن الذي سقط على الأرض وما زال يصرخ في فزع مستنجدا. وسمع مرسي يصرخ من خلفه:

-يا للرحمن! الجثث عادت للحياة! لقد جاء يوم القيامة.

وبينما هرول مرسي هاربا، اندفع الدكتور محمد نحو صديقه ليساعده رغم رعبه. جذب جسده البدين بقوة وركل جثة متعلقة به، حتى نجح في النهاية في تخليصه من قبضتها، وجره للخارج، ثم أغلق الباب من خلفه بالمفتاح. ومن الداخل راحت صرخات تعلو من داخل قاعة

التشريح، ودقات باردة ميتة تضرب الباب في عنف. لكنه لم ينتظر ليسمع كل هذا. فلحق بالباقين هاربا.

(6)

فجأة ضربت الفوضى أرجاء المشرحة. صرخ فؤاد ومازال سلاحه مشهرا، في الجميع في صرامة:

-حالة طارئة .. هناك متفجرات في المكان .. ليغادر الكل المشرحة على الفور.

كررها أكثر من مرة فاستجاب له كل من يعمل بالمشرحة، فأخذ الجميع يفرون من المكان في عشوائية وتدافع رهيب. راح الدكتور محمد شاهين يعدو بكل قوته وهو يجر الدكتور محسن من يده، ليساعده على العدو مثله، هربا من المكان، ثم صاح في فؤاد الذي يجري إلى جواره:

-ماذا سنفعل الآن أيها الرائد؟

أجاب باقتضاب:

-سنخلي المكان من الموظفين أولا. ثم أعود مع قوة إلى حجرة التشريح .. لن أدع تلك الجثث اللعينة طليقة في المكان.

في النهاية كانوا مع الجميع خارج مبنى المشرحة. راح فؤاد يبعد الكل عن باب المشرحة وهو يقود قلة صغيرة من رجال الشرطة التي تحرس المكان، بينما ارتمى الدكتور محسن على الأرض، وراح يلهث وصدره يصدر صفيرا غليظا بوجه محتقن. كان يجاهد لالتقاط أنفاسه وإن كان جليا أن نوبة أخرى من نوبات الربو قد هاجمته. وضع يده في جيب بنطاله وأخرج بخاخ صغير. جاهد ليضع مقدمته في فمه ثم تنفس بعمق منه بضع دفقات من الرذاذ الموسع للشعب الهوائية، وبعد لحظات هدأت أنفاسه واختفى الصفير. وانحنى الدكتور محمد نحوه وهمس:

-هل أنت بخير؟

رمقه الدكتور محسن بعيون مازالت تحتفظ بذعرها، وأجاب:
-هل ما رأيناه صحيحا يا محمد؟ أخبرني أن كل هذا كان وهما؟ هل هاجمتنا الجثث حقا؟
-نحن بخير الآن يا صديقي فاسترح. لقد نجونا على الأقل.
-نجونا؟!
قالها في غير تصديق، ثم أردف في صوت كالبكاء:
-نجونا من ماذا؟ لقد عاد الموتى للحياة؟ إنه يوم القيامة بلا شك.
هز الدكتور محمد رأسه في إشفاق وهو يجيب:
-كلا. إنه ليس يوم القيامة يا صديقي، كما أن الجثث لا تعود أبدا للحياة ثانية.
-لكنك رأيتها مثلي. لقد غادرت رفوف الثلاجة وراحت تهاجمنا.
-ربما استحوذت الشياطين على أجسادها، وربما حركتها قوى ملعونة، في النهاية هي مجرد دمى تتحرك بلا روح أو إدراك.
-لكنها النهاية بالنسبة لي يا محمد. لقد سئمت هذا العمل اللعين. سئمت الجثث الممزقة المشوهة وسئمت رائحة الفورمالين الخانقة اللعينة وسئمت كل هذا التوتر الدائم، ولن أقبل أن تكون نهايتي أبدا بيد جثة قمت بتشريحها بمبضعي. سوف أقدم طلبا للوزارة لتسوية معاشي، ولن أضع قدمي في هذا المكان ثانية. وليرحمني الله من الكوابيس التي سوف تطاردني حتما ما حييت.
كان فؤاد في تلك اللحظة يقوم بتنظيم رجال الشرطة الذين استدعاهم بجهاز اللاسلكي. وهو يستعد لاقتحام المشرحة معهم، للقضاء على الجثث التي هاجمتهم. ومن مكانه البعيد فكر الدكتور محمد فيما سيقوله فؤاد لهم. وكيف يخبرهم أن هناك جثث صارت حية وتهاجمهم، وهل سيصدقه رجاله. لكن السؤال المهم هو كيف سيقضي على جثث ميتة بالفعل؟ لقد استعمل الرصاص مع جثة زوجة جمال الممزقة، لكن هذا لم يوقفها عن مهاجمتهم. ثم سطع الحل في رأسه فاتجه نحوه. اخترق حشد الناس المتجمهر بعيدا عن المكان قبل

أن يستوقفه شرطي محاولا منعه، لكنه صاح فيه:
-أنا أعمل مع الرائد فؤاد. هناك ما يجب أن يعلمه على الفور.
أراد الشرطي الشاب أن يمنعه لكن فؤاد انتبه إلى ما يدور، فصاح في رجله:
-دعه يمر.
أسرع الدكتور محمد إليه، وما أن بلغه حتى قال له على الفور:
-الرصاص لن يوقفها.
رمقه فؤاد في تفكير وقد أدرك ما يقصده ثم قال:
- وهل تقترح شيئا ما.
-النار، ربما تفلح.
كان حلا بسيطا لكنه حتما فعال. لذا تحرك فؤاد على الفور وأمر شرطيا أن يجلب شيئا ما من إحدى سيارات الشرطة. تحرك الشرطي بسرعة ثم عاد حاملا قاذفة لهب. التقطها منه فؤاد وشهر فوهتها أمامه وبجسارة حسده عليها الدكتور محمد اقتحم المكان، وهو يهتف:
-لنقتحم المكان يا رجال.
تقدم فؤاد ورجاله ببطء وحذر. كان المكان ساكنا الآن تماما، بعد أن غادره الجميع. اتجهوا مباشرة نحو باب قاعة التشريح. وحين بلغوه. توقف فؤاد بتردد وهتف في رجاله:
-مهما كان ما سنجده بالداخل فسنقضي عليه. صدقوني لا أدري ماذا نواجه بالضبط، وهل هي مجرد جثث لعينة عادت لها الحياة أم حتى شياطين سقر، لكن هذا لن يوقفنا عن أداء واجبنا ومهمتنا. ولهذا أسألكم للمرة الاخيرة، لو كان هناك من يخاف مما نحن مقبلون عليه فليذهب الآن.
بدا القلق على وجوه رجاله، لكن أحدا لم يتحرك ليغادر. فتنهد فؤاد في راحة، وأشار لأحد الجنود بفتح الباب وهو يغمغم:
-إذن على بركة الله.
تقدم الجندي بحذر وفتحه، ببطء. وفي اللحظات التالية فتح الجحيم

أبوابه. اندفعت الجثث من قلب الظلام الذي يغمر قاعة التشريح لمهاجمة رجال الشرطة، وكأنها كانت بانتظارهم. لكن فؤاد كان مستعدا، ففتح نيران قاذفة اللهب في وجوههم بلا تردد. اشتعلت النيران في كل الجثث لكنها واصلت التقدم. راح الجنود يطلقون رصاصاتهم نحوها في كثافة، لكن الرعب المسيطر عليهم منعهم من إحكام التصويب فطاشت أغلب الرصاصات. تفادى فؤاد يد جثة حاولت إمساكه، وأغرقها في بحر من الحمم حتى ذاب لحمها تماما فسقطت. وتعاون رجلا شرطة في إطلاق رصاصهم على جثة ضخمة تتقدم نحوهم، لكنها واصلت التقدم. وقد بدا وكأن النار لم تنجح تماما في القضاء عليهم، مثلما لم تنجح المسدسات. كانت الجثث تتقدم لذا كان على فؤاد ورجاله التراجع للخلف. فجأة تعثر شرطي ضخم، فسقط على ظهره، وفي اللحظة التالية كانت جثتان مشتعلتان تحيطان به ثم سقطوا فوقه. حاول البعض مساعدته بإطلاق الرصاص على الجثث لكن هذا لم يوقفها. اشتعلت النار في جسد الشرطي فراح يصرخ في جنون وألم رهيب. قبل أن تهمد حركته وصرخاته فجأة حين أصابته رصاصة طائشة من أحد زملائه. سقطت بعض الجثث المشتعلة بعد أن ذاب أغلب أجسادها بفعل النيران، لكن بعضها واصل التقدم. ظل فؤاد ورجاله يتراجعون حتى اقتربوا من باب الخروج. فكر فؤاد فيما سوف يحدث لو نجحت إحدى الجثث في الخروج إلى الشارع ورآها العامة. سيثير هذا موجة رهيبة من الذعر. لذا صرخ في رجاله وهو يعاود التقدم وغمر الجثث الباقية بما تبقى من نيران في قاذفة اللهب:

-اثبتوا يا رجال، لم نفر يوما أمام رجل حي ولن نفر اليوم أمام مجموعة من الموتى. لنقض عليهم.

نجح هتافه في بث بعض الشجاعة في نفوسهم فعادوا لإمطار الجثث الباقية برصاص أسلحتهم حتى سقطت آخر الجثث وهمدت حركتها تماما. راح رجال الشرطة ينظرون إلى بعضهم البعض في توتر وغير تصديق قبل أن يزفر فؤاد في إرهاق ويقول:

-اسمعوني يا رجال، أعلم انه يمكنني الثقة بكم، لهذا أطلب منكم أن يظل ما واجهناه هنا سرا لا يعلم به غير رجال التحقيق، هل تفهمون؟ لا ينبغي أن يتسرب الأمر إلى الصحف أو الناس.

لم يجبه أحد من رجاله، وإن كان يعلم أنهم سيطيعونه، في الواقع كانوا في ذهول، وقد غمر الجميع شعور من عدم التصديق ورغبة قوية في نسيان هذا الكابوس الذي واجهوه للتو، وليس الحديث بشأنه. غادر فؤاد باب المشرحة وبحث ببصره عن الدكتور محمد شاهين حتى وجده. أشار إليه فاتجه نحوه وتحركا سويا حتى بلغا مكانا معزولا، فبادره الدكتور محمد قائلا:

-هل نجحتم في القضاء عليها؟

-لم يكن الأمر سهلا، لقد كلفنا الأمر حياة أحد رجالنا. ولهذا أنا هنا لأفهم ما حدث، ما الذي نواجهه بالضبط؟

-ولماذا تعتقد أني أعلم حقيقة ما يدور.

أجابه فؤاد بعصبية:

-لأنك من أتيت تفتش عن الأمر، رغم أنه من المفترض أنك لا شأن لك بما حدث، ما الذي يعنيه هذا برأيك، برأيي أنت على الأقل تمتلك فكرة ما عما نواجهه.

هذا ضابط شرطة ذكي وصريح، وكان هذا الصنف يروق للدكتور محمد شاهين، فابتسم رغم التوتر الذي يشعر به، وقال:

-المشكلة أنني لا أملك غير التخمين، وبعض التكهنات التي أرجو ألا تكون صحيحة يا سيد فؤاد. إنني حتى أخشى البوح بمخاوفي تلك حتى لنفسي.

-شاركني في شكوكك على الأقل.

-أخشى ألا تصدقني وتتهمني بالجنون.

ضحك فؤاد بتهكم وهو يجيب:

-لم يعد هناك ما لا أصدقه يا دكتور. لقد واجهت للتو جثثا تهاجم الأحياء، فهل تعتقد أن هناك ما قد يثير دهشتي بعد ذلك. هل تريد

معرفة الأمر الأكثر غرابة من هذا؟
هز محمد شاهين رأسه بالإيجاب دون أن يعقب، فأكمل فؤاد قائلا:
-لم تكن هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها جثثا عاودتها الحياة.
كانت الدهشة من نصيب محمد شاهين هذه المرة، فغمغم في خفوت:
-حقا؟!
-أجل. لقد حدث هذا قبل عام من الآن، حيث كنت أقوم بالخدمة في ذلك الوقت في نجع صغير في قلب الصعيد يدعى نجع الذئاب.
-أنت تقصد نجع الموتى؟
-إذن فقد سمعت به أنت الآخر.
-إنها حكاية أو لنقل أسطورة قديمة عن قرية صغيرة بلغها بعض رحالة القرون الوسطى فوجدوا كل سكانها موتى، فأطلقوا عليها نجع الموتى ثم تغير الاسم في العصر الحديث لنجع الذئاب.
-يبدو أنك حقا تعلم الكثير عن تلك الأمور الغامضة كما أخبروني عنك في أروقة الداخلية.
-لا تصدق كل ما تسمعه، لكن أخبرني هل تكرر الأمر هناك، هل مات كل سكان النجع ثانية؟ في الواقع لقد أثرت فضولي.
-إنها قصة طويلة مخيفة ربما أقصها عليك يوما ما يا دكتور، لكني فقط أردت إخبارك أنه لم يعد هناك ما قد يثير دهشتي في هذا العالم، ربما لو أخبروني أن جاري اللزج قادم من المريخ فلن أتعجب.
ابتسم محمد شاهين لطرافة الدعابة ثم جذبه من يده، وهو يقول:
-اسمع، المكان هنا لا يصلح لمثل تلك الأحاديث. دعني أدعوك لفنجان من القهوة في مكان هادئ قريب من هنا، وهناك سأخبرك بكل ما أعلمه. ما رأيك لو اصطحبتك إلى هناك بسيارتي.
لم يمانع فؤاد وترك تعليماته لرجال الشرطة ألا يسمحوا لأحد بالدخول قبل مجيء رجال البحث الجنائي، ثم تحرك مع الدكتور محمد حيث وضع سيارته، كانت سيارة رياضية صغيرة من طراز "أودي آر 8" زرقاء. لم يتمالك فؤاد نفسه من فرط فخامتها، ووجد نفسه يصفر انبهارا

وهو يقول:
- أهذه سيارتك يا دكتور؟
قالها محمد شاهين في فخر طفولي، مستمتعا بانبهار فؤاد وهو يجيب:
- لنقل أنها الأكثر حداثة والأفضل بين السيارات التي أمتلكها.
فتح فؤاد باب السيارة من ناحيته وجلس على المقعد الجلدي المريح وعيناه تلتهمان الفخامة في مقصورة السيارة وغمغم:
- لم أكن أعلم أن الطب النفسي مربح لهذه الدرجة؟
ضحك الدكتور محمد وهو ينطلق بالسيارة وأجاب:
- ربما كان ما تقوله صحيحا في الخارج، لكن الطب النفسي في مصر من مسببات الفقر يا صديقي، يمكنك القول أنني من المحظوظين الذين جاءوا في نهاية عائلة إقطاعية ثرية للغاية، ومن حسن حظي أنني حظيت بمديري أعمال ومستشارين اقتصاديين يمتازون بالعبقرية في إدارة ثروتي، التي أحرص على الاستمتاع بكل قرش فيها قبل مماتي.
تنهد فؤاد للحظة وهو يقارن في ذهنه سيارته اللانسر شارك موديل 2012 دائمة الأعطال بتلك السيارة الفارهة كالطائرات وغمغم:
- لا تنس إذن أن تعرفني بمستشاريك هؤلاء، طالما العمل معهم مربح هكذا.
وتحركت السيارة والدكتور محمد يضحك في عصبية محاولا طرد توتره بتلك الضحكة العالية.

(7)

رغم اعتدال الطقس في هذا اليوم، بعد ارتفاع درجة الحرارة قليلا عن الأيام السابقة، إلا أن الكافيه ذا الاسم الإنجليزي والمطل على النيل كان شبه خال من الزبائن في تلك الساعة من النهار، تهلل وجه النادل الشاب حين رأى الدكتور محمد شاهين، وأسرع إليه ليساعده في اختيار طاولة مناسبة، وهو يمني نفسه ببقشيش سخي ككل مرة، وقال له مرحبا:

-مرحبا يا دكتور، أي مكان ترغب فيه اليوم، هل هو مكانك المفضل خلف الواجهة الزجاجية أم ترغب في مكان أكثر دفئا بالداخل؟
أشار محمد شاهين للداخل وهو يجيب:
-أفكر في طاولة منعزلة، ربما كان من الأفضل أن تجد لنا واحدة في الطابق الأعلى.
أومأ النادل برأسه في ثقة وهو يتقدمهم قائلا:
-أعتقد أن هناك طاولة قد تفي بالغرض، من هذا الطريق من فضلكما.
سارا خلفه وصعدا سلما خشبيا أنيقا قادهما للطابق العلوي. كانت الطاولات بالأعلى شبه فارغة ولم يكن هناك غير شاب وفتاة اختارا طاولة منعزلة، وجلسا إليها متجاورين يتبادلان حديثا هامسا ليس من الصعب تخمين كنهه. قادهما النادل لطاولة في الناحية الأخرى بجوار الحائط الزجاجي، تطل مباشرة على النيل في مشهد فاتن، جلس محمد شاهين وفؤاد في مواجهة بعضيهما البعض، بينما وقف النادل في انتظار معرفة طلباتهما. فقال محمد شاهين:
-من فضلك أريد قهوتي المعتادة، وسل فؤاد باشا عما يرغب في تناوله.
-قهوة سادة في كوب كبير.
تحرك النادل مبتعدا على الفور، فأخرج فؤاد علبة سجائره وهو يقول:
-هل تمانع لو أشعلت سيجارة؟
- تفضل يا فؤاد باشا، أنا نفسي أرغب في بعض الدخان.
قالها وأخرج غليونه من جيبه ودس به بعض التبغ وأشعله بقداحته، قبل أن يسحب نفسا عميقا، ويزفره ببطء. خيم الصمت عليهما في تلك اللحظة وهما يدخنان وكأنما لا يجدان ما يقولانه، أدرك محمد شاهين أنهما يداريان توترهما في هذا الصمت المتعمد والتدخين، لذا تشاغل بغليونه ومراقبة صفحة النيل الصافية رغم الجو المتلبد بالغيوم. جاء النادل بعد قليل ووضع أكواب القهوة أمامهما، ثم انصرف. بدت رائحة القهوة زكية منعشة للغاية في تلك اللحظة، واصلا الصمت وهما يرتشفان القهوة ببطء، ثم قال فؤاد وقد فرغ من كوب القهوة الكبير في

وقفات سريعة:
- عشاق!
احتاج محمد شاهين للحظات كي يدرك مقصده، إنه يتحدث عن الشاب والفتاة، جيرانهما في الكافيه، فابتسم وقال:
- يخططان لكل خطوة في حياتهما، كيف سينهيان الدراسة وأين قد يعملان، متى يتزوجان، وكم عدد الأطفال الذين يرغبان في إنجابهم، وأسمائهم. إنها القصة المعتادة.
- يبنيان قصورا من وهم لن تتحقق غالبا، لو كان الأمر بيدي لنهضت من مكاني وزجرتهما ليهتما بدروسهما بدلا من هذا العبث.
ضحك محمد شاهين وقال:
- من حسن الحظ أن الأمر ليس بيدك، فلا يوجد نص في القانون يمنع العشاق من الأحلام. إن الواقع أليم كما لا تتخيل، فلماذا نسد عليهما سبيل الأحلام؟ هل تعلم .. ما يقومان به أمر صحي تماما، إنهما يخوضان التجربة، وحتى لو فشلت ففي هذا درس سيزيد من صلابتهما رغم قسوة التجربة.
- وقد تحطمهما التجربة.
رمقه محمد شاهين بتمعن وهو يحاول سبر أغواره، ثم قال:
- أشم رائحة تجربة حب مريرة خضتها.
دفن فؤاد ما تبقى من سيجارته في مطفأة سجائر فخارية أنيقة وقال في حدة:
- لسنا هنا لتمارس ألاعيبك النفسية كطبيب نفسي يا دكتور، أنا هنا لتمنحني بعض الضوء عما نواجهه. أخبرتني قبل قليل أن لديك تفسير لما يحدث، أليس كذلك؟
تجاهل محمد شاهين حدته، وقال:
- وأنا مستعد لأقص عليك ما في جعبتي.
ثم نظر للنيل مفكرا للحظة قبل أن يبدأ حكايته:
- القصة تعود لبداية سبعينيات القرن الماضي، وقد حدثت بالتحديد

في مشرحة كلية الطب بجامعة عين شمس. وقتها استعان بي صديق يدعى دكتور مصطفي لحل لغز أحداث غامضة بدأت تدور في المشرحة. أحد عمالها الحمقى سرق جثة لفتاة من مقبرة قريته وجلبها للمشرحة مقابل بضعة جنيهات، المفاجأة أنها كانت جثة ملعونة تسببت في مقتل بعضهم.

قاطعه فؤاد في دهشة:

-هل كانت جثة حية؟

-لم تكن جثة على الإطلاق، لكن لا تتعجل الوقائع، المهم أنهم حاولوا وقتها التخلص منها وفشلوا، لهذا جاءوا إلي طلبا لمساعدتي. ذهبت معهم حينها، وفحصت الجثة، ثم أدركت ما نواجهه.

صمت بعدها، وكأنما يرغب في ترتيب أفكاره، بينما غمغم فؤاد في فضول:

-وماذا كانت حقيقة الجثة؟

-هل سمعت يوما عن الكيانات القديمة .. الآحاد الأولى .. القدماء؟!

بدت الأسماء عجيبة في عقل فؤاد فقال نافيا:

-لا . ما تلك الأشياء؟

-لا أحد يعلم تحديدا. إنها كائنات قديمة يقال أنها سكنت الأرض قبل البشر، وأنها كانت تتمتع بقوى مذهلة مهولة، كما لم ينقصها الوحشية والشر.

-تلك خرافات بلا شك، لقد خلق الله الأرض من أجل البشر، وهذا مثبت في القرآن.

ابتسم محمد شاهين في إشفاق، ثم أجاب:

-بل لقد خلق الله الإنسان ليكون خليفة الأرض في الأرض، لكنه لم يكن المخلوق الوحيد فيها، هناك الجان وهناك الشياطين وهناك باقي الكائنات الحية من حيوانات وطيور وأسماك وأشجار. كل هؤلاء عاشوا في الأرض وكلهم تقريبا سبق الإنسان للوجود في هذه الأرض، فماذا يمنع أن تكون هناك مخلوقات أخرى عاشت على الأرض قبل البشر.

حتى لو كانت تلك الكائنات حقيقية فأين ذهبت وأين ذهبت آثارها.
لو نظرت إليها من نظرة دينية فستجد أن التفاسير القرآنية جميعا تحدثت عن كائنات ملعونة عاشت في الأرض قبل البشر وسفكت الدماء قبل أن يرسل الله لها الملائكة ليهلكم ويطرد ما بقي منهم بعيدا عن الأرض، أليس محتملا أن تكون تلك الكائنات هي الآحاد القديمة، أو الكيانات القديمة أو أيا ما كان اسمها؟
-هل تعني أن تلك الجثة التي كانت في المشرحة كانت إحدى تلك الكيانات القديمة؟
-كل الدلائل كانت تؤكد هذا.
-وكيف علمت أنت أنها كذلك؟
-يا صديقي، لقد أفنيت عمري في البحث والتنقيب وتتبع الأساطير والخرافات والأحداث الغامضة، قرأت آلاف المخطوطات القديمة والكتب القديمة والحديثة، ولهذا ليس غريبا أن أعلم الكثير عن تلك الأشياء.
في الواقع لم يرغب الدكتور محمد شاهين في إخباره بشأن كتاب اللعنات الذي يملكه، فبعد هذا العمر الطويل تعلم أن هناك أمور كلما ظلت في الخفاء كلما كان هذا أكثر أمانا للجميع.
-وكيف تخلصتم من تلك الجثة إذن؟
-كان هناك طقس معين قمنا به، في الواقع لم أكن لوحدي، كان هناك الدكتور مصطفى والدكتور نعيم وعمال المشرحة، وضابط شاب وقتها برفقة وكيل نيابة شاب تولى التحقيق في القضية. للأسف مات أحد عمال المشرحة وقتها، ورغم أننا نجحنا في مسعانا حينها، إلا أن تلك الشيطانة توعدتنا بالعودة للانتقام منا.
-وهل قتلتم تلك التي تسميها بالكيان القديم؟
-كان أقصى ما أمكننا فعله حينها هو وضعها في وضع نوم عميق طويل، أمر أشبه بالبيات الشتوي للحيوانات القطبية، ثم دفنا الجثة في مكان غير معلوم في الصحراء.

-وأنت تعتقد أنها عادت الآن لتنتقم منكم؟
-أشك في أن هذا ما حدث، وإن كنت أجهل كيف حدث هذا. المفترض أن المكان الذي دفناها فيه مجهول ومن العسير أن يذهب إليه أي إنسان، أضف لهذا أنه حتى لو بلغه أحد ما، فلن يعلم أبدا ما الذي يبحث عنه هناك، ونحن لم نترك أي علامة أو شاهد يدل على قبرها الجديد.
-ربما كان في جعبتها المزيد من الحيل التي تجهلونها، وربما انتهى تأثير طقسكم السحري عليها. لكن دعنا من التفكير في هذا الأمر ولنفكر في الأمر الأخطر، لو عادت كما تعتقد فهذا يعني أنك أنت الآخر في خطر.
-لست أنا فقط، بل كل من اشترك وقتها في مواجهتها. الدكتور مصطفى والدكتور نعيم وضابط الشرطة الذي شارك في الأمر ووكيل النيابة كذلك.
-وماذا عن عمال المشرحة؟
ابتسم الدكتور محمد في حزن وهو يغمغم:
-لم يبق منهم أحد حيا، كانوا أربعة حينها، مات اثنان في مواجهتها الأولى، ثم مات عم منصور قبل عام في حادث طريق، وها هو الأخير مفقود وزوجته مقتولة بأبشع صورة ممكنة.
-هل تعتقد أن جمال مقتول وليس مجرد مفقود؟
-هذا السؤال لست أنا من يجيب عليه، بل هذا دوركم أنتم يا رجال الشرطة. لقد قمتم بالتحقيق في حادث اختفائه، وحتما هناك فكرة ما في أذهانكم عما حدث؟
رمقه فؤاد بتردد، ثم أشعل سيجارة جديدة، وهو يجيب:
-من قاموا بالتحقيق يفتقدون للمعلومات، ولهذا كانت الخيارات أمامهم محدودة، البعض متأكد أنه هو الآخر قد قتل مع زوجته، لكن المحير هو أين الجثة؟ كذلك هناك احتمال قائم أن يكون جمال هو من قتل زوجته ثم هرب.
وجد الدكتور محمد نفسه يضحك لطرافة الأمر، ثم هتف ساخراً:

-أعتقد أن هذا الاحتمال لا يفتقد للخيال الواسع، ألم ينظر أحدكم إلى جثة تلك المرأة المسكينة زوجة جمال؟ كيف يشك أحدكم بعدها أن جمال هو من فعلها، هل تعتقدون أنه قد التهم أغلب جسدها هكذا ثم هرب مثلا.

شعر فؤاد ببعض الضيق من سخرية الدكتور محمد، في النهاية هو رجل شرطة ويرفض السخرية من أي زميل، لهذا قال في حدة:

-يا دكتور هذا أحد الاحتمالات المطروحة، حتى نصل للحقيقة أو نجد جثة جمال هذا.

أدرك دكتور محمد ما يدور في رأسه من ضيق فلم يعقب ثم نظر ثانية للناحية الأخرى من المكان حيث كان يجلس الفتى والفتاة العاشقين.

كانت الفتاة بمفردها هذه المرة، لكن شيئا ما كان غريبا فيها، بدا وجهها من بعيد مألوفا لعقله بصورة ما، دقق النظر قبل أن تهز رأسها بإيماءة خفيفة وكأنها تحييه. ومرة واحدة دب الذعر في نفسه، ففي تلك اللحظة تذكر من تكون، بينما سمع فؤاد يقول له في نفس:

-هل تعرف تلك الفتاة يا دكتور؟ إنها تنظر إليك وتبتسم!

وفي صوت مخنوق أجاب دكتور محمد:

-إنها هي. رو .. رومية!

-رومية من؟

-الكائن الشيطاني الملعون، ألم تدرك هذا؟

فتح فؤاد فكه للحظة في بلاهة وغير فهم، قبل أن يسترد شجاعته ويندفع بلا تردد حيث جلست وهو يشهر مسدسه نحوها، وصرخ:

-إياك أن تتحركي، لن أتردد لحظة في إطلاق النار نحوك لو فعلت أي شيء.

لكنها لم تتحرك من مكانها، ولم تفارقها ابتسامتها الساحرة، وفي اللحظة التالية اختفت تماما من فوق مقعدها، وكأنما ابتلعها العدم. فدار فؤاد حول نفسه في ذهول ورعب ومازال يصرخ:

-أين ذهبت تلك اللعينة. لقد اختفت.

لم يجد عقله الجواب، فتراجع في بطء نحو طاولته التي كان يجلس عليها، هناك وجد وجه الدكتور محمد محتقن بشدة وهو ينظر لسطح الطاولة في رعب، حرك فؤاد رأسه نحو الطاولة في بطء، ثم علم سر رعب الدكتور محمد. فببطء وفوق سطح الطاولة راحت حروف مكتوبة بالدماء تتشكل ببطء أمام عيونهم، لتكتب جملة من كلمة واحدة:

"انتظراني".

(8)

تحركت السيارة الأودي آر 8 في انسيابية بمحاذاة كورنيش النيل في منطقة المنيل، داخلها جلس محمد شاهين وفؤاد في صمت ووجوم، قبل أن يهتف الأخير في سخط وهو يهز رأسه في غير تصديق:
-كلا، كل هذا وهم، أجل وهم، أليس كذلك يا دكتور؟ لا جثث عادت للحياة في المشرحة ولم نر تلك المرأة الملعونة التي اختفت فجأة، ولم تظهر تلك الكتابات الدامية أمامنا. أخبرني أنني تحت تأثير عقار ما، أو أن كل هذا حلم سخيف.
رد عليه الدكتور محمد شاهين في إشفاق:
-وددت لو أخبرتك أنه كابوس بالفعل أو حتى وهم، لكن الأمر حقيقي ومرعب وخطير.
نظر إليه فؤاد في قلق بعيون متسعة مذهولة، وتحركت شفتاه أكثر من مرة ليقول شيئا ما، قبل أن يبتلع كلامه الغامض، ثم تذكر بغتة أمرا آخر فهتف:
-وماذا عن الكلمات الشيطانية الدامية التي ظهرت على الطاولة، هل كانت انتظرني أم انتظراني، أعني هل كانت تقصدك أنت أم أنها أضافتني إلى قائمتها اللعينة.
انعطف الدكتور محمد إلى شارع جانبي وهو يجيب:
-هل تشعر بالخوف؟

أراد فؤاد الإنكار، أراد أن يصرخ أنه لا يعرف الخوف ولا يهاب أي شيء، لكنه وجد نفسه يجيب في اعتراف ضمني بالخوف:
- ألا تخافها أنت الآخر؟
- بل أشعر بالرعب منها، ولولا أنني أحاول التماسك لبللت سروالي من الفزع، صدقني لو أنك أخبرتني أنك لا تشعر بالخوف لاتهمتك بالخرف أو البلاهة، لكن من الحمق أن نستسلم للخوف، علينا أن نفكر في مواجهتها ومحاولة القضاء عليها لو أمكننا ذلك.
- وهل هذا ممكن؟ هل يمكنك حقا القضاء على كائن شيطاني ملعون كهذا؟
لم يجب الدكتور محمد على الفور. تذكر في تلك اللحظة أحداث المشرحة المخيفة التي شهدها قبل أكثر من ثلاثين عاما، تذكر الجثث المعلقة في فراغ المشرحة والتي كانت تلتف حول جسد رومية الذي كان يستعد للخروج من سباته السحري. كانت التجربة الأكثر شناعة في حياته كلها، رغم أنه واجه عشرات الشياطين والجان والكثير من الكائنات الملعونة الأخرى. ما ذكره كتاب اللعنات عن القدماء وعن قواهم غير المحدودة كان يرعبه في الواقع، كائنات شريرة قوية لم تنجح الملائكة في القضاء عليها تماما قبل ملايين السنين، فهل يمكن لبشري النجاح في مواجهتها، حتى وهو يملك كتاب اللعنات لم يشعر بأي أمل في تلك المواجهة المميتة في الواقع، بل لا يدري هل مازال أمامه وقت للاستعداد لمواجهتها، أم أن دوره في لائحة انتقامها قد أتى، وأنه قد يكون التالي. يعلم أنها لو وصلت إليه فسيلقى ميتة بشعة، وكان هذا أكثر ما يفزعه، لو كان أكثر شجاعة أو أقل إيمانا لقتل نفسه ليهرب من مصيره المحتوم هذا، لكنه لن يقبل بعد كل هذا العمر الطويل أن يموت منتحرا كافرا. خرج من شروده على صوت فؤاد المتوتر وهو يقول:
- لم تجب على سؤالي يا دكتور محمد. هل يمكن مواجهة هذا الشيء.
هز كتفيه في بساطة وأجاب:
- لا أدري أيها الرائد. ربما كانت هناك وسيلة، لكنني هذه اللحظة أجهلها.

-وماذا تقترح أن نفعل إذن؟ أخبرني بأي اقتراح، لقد طلبوا مني الاستفادة من خبراتك في هذه الأمور الغامضة ومن المفترض أنك خبير في هذا. إذن عليك أن تجيب على تساؤلاتي.
-صدقني يا صديقي، لا يوجد من يقول أنه خبير حقيقي في الأمور الشيطانية، فما نجهله عن هذا العالم الغامض أكثر بكثير مما نعلمه.
- إذن إلى أين نذهب الآن؟
-إلى شقة جمال، إنه يسكن في حي السيدة.
-ولماذا ترغب في الذهاب إلى هناك؟
-أريد رؤية المكان، من يعلم، ربما قادنا هذا لشيء.
لم يمانع فؤاد، واحتاج الأمر لنحو ثلث الساعة ليصلا إلى حارة ضيقة في حي السيدة، حيث راحت عشرات العيون تتابع السيارة الرياضية الفخمة في فضول وتساؤل، ثم توقفا أمام بيت قديم من أربعة طوابق، وقال محمد شاهين وهو يصف سياراته بجوار الجدار بين سيارتين:
-أعتقد أن هذا هو المكان.
هبطا من السيارة في الوقت الذي تجمع الكثير من الأطفال حول السيارة غريبة الشكل في فضول، أراد فؤاد أن يصرخ فيهم وأن يخبرهم بهويته ليخيفهم، ويبتعدوا عن السيارة، لكنه تراجع وقد أدرك أن الأمر سيبدو سخيفا لو فعل، تبع الدكتور محمد إلى الطابق الثاني، حيث وجدا شرطيا يجلس على مقعد أمام باب الشقة وهو يلتهم شطيرة فول في كسل، أخبره فؤاد بهويته فهب من مقعده في ذعر ورفع يده فوق رأسه مؤديا ألتحية العسكرية وهو يهتف:
-تمام يا فندم.
كان منظره طريفا، فابتسم الدكتور محمد، بينما قال له فؤاد:
-ما اسمك؟
-جابر يا فندم.
-حسنا يا جابر، هناك سيارة زرقاء بالأسفل، أريدك أن تهبط إليها، وتحافظ عليها من عبث الأطفال، صدقني لا تدري كم سأغضب لو

أصابها خدش بسيط.
هرع الشرطي المذعور للأسفل في عجالة، بينما دلف الاثنان للداخل.
كانت شقة متوسطة الحجم بسيطة الأثاث. كانت الصالة تحوي طقم أنتريه مهترئ غطى سطحه بعض البقع. تتوسطه طاولة خشبية قديمة، وفي أحد الأركان ثلاجة إيديال يبلغ حجمها 16 قدم، تهدر بصوت مرتفع بعض الشيء، وفي نهاية الصالة تليفزيون كبير يقبع فوق منضدة خشبية، وفوقه جهاز استقبال مشتبك في الكثير من الأسلاك. بينما غمرت جو الشقة رائحة غريبة هي مزيج من العطن ورائحة الأثاث القديم ورائحة غامضة يعلمها الدكتور محمد شاهين جيدا. رائحة الموت. تحركا في الصالة ببطء قبل أن يغمغم دكتور محمد:
-أين ذهب أبناء جمال، توقعت أن أجدهم هنا.
-لا أعلم، لكن المعتاد في جرائم القتل الغامضة إغلاق مكان الجريمة، واعتبار كل ما به دليلا محتملا تحت أنظار الشرطة وخبراء الأدلة الجنائية، لهذا لو كان مكان الجريمة شقة ما، يذهب القانطون فيها إلى مكان آخر، كفندق مثلا أو مسكن أحد الجيران أو الأقارب ريثما ينتهي التحقيق.
ثم أشار فؤاد إلى إحدى الحجرات حيث كان باباها مفتوحا تماما.
-هذه هي الحجرة التي قتلت فيها الزوجة.
كانت الغرفة غارقة في الظلام. تحسس فؤاد بكفه جانب الجدار حتى عثر على مفتاح الإضاءة. توهج الضوء الأبيض الفلورسنتي في الحجرة، فبدت الحجرة في أسوأ حال ممكن، الفراش مبعثر الأغطية وقد أفرغ رجال الشرطة خزانة الملابس من الملابس التي ألقوها بإهمال على الأرض. بدا الأمر كعمل غير احترافي من رجال الشرطة. فكر الدكتور محمد في سره، لكنه لم يبح بهذا لفؤاد، لكنه علق على أمر آخر:
-تلك الرائحة الغريبة، من أين تأتي يا ترى؟
كانت هناك رائحة قوية منفرة في المكان، لاحظها فؤاد فور دخوله، واعتقد أنها رائحة الدماء المتخلفة عن، جثة زوجة جمال، لكن الرائحة

لم تكن كذلك كانت رائحة تحلل عضوية. اتجه الدكتور محمد إلى بقعة خالية من الأثاث بجوار الفراش، كانت محاطة بدائرة من الطبشور الأحمر وداخلها بدت بقع رمادية غير منتظمة، لكنها لم تكن كبيرة. بلا شك كان هذا هو المكان الذي وجدوا جثة الزوجة فيه وتلك البقع الرمادية هي آثار الدماء المتخلفة عن الجثة. راح يحرك أنفه حولها متشمما، لكن الرائحة لم تكن تنبع من هناك. اقترب من الفراش ثم هبط إلى جواره ورفع الملاءة التي تغطيه ودفع برأسه أسفله. كانت الرائحة أقوى الآن وأكثر عفونة، لكن لم يكن هناك أي شيء أسفل الفراش. دار بعينه للحظة في الأرضية المغطاة بالبلاط قبل أن يدق بظهر أصابعه على البلاط. ثم هب فجأة من مكانه وأمسك بطرف الفراش وصاح في فؤاد.

-ساعدني في إزاحة هذا الفراش.

لكن فؤاد هتف به في استنكار:

-مهلا، قد تُتلف بعض الأدلة هكذا.

-ساعدني يا فؤاد من فضلك. هذا البلاط أسفل الفراش يخفي شيئا ما.

رمقه فؤاد للحظة في دهشة، ثم تحرك لمساعدته، كان الفراش من طراز قديم وثقيل للغاية، حتى أنهما أزاحوه من مكانه بصعوبة. تحرك بعدها محمد شاهين بخفة حيث كان الفراش ثم راح يدق على البلاط بباطن حذائه، وهو يقول في انتصار:

-هل ترى. هناك تجويف أسفل هذا البلاط ولو كنت قد لاحظت فالرائحة قد صارت أقوى الآن، أعتقد أن جثة جمال أسفل هذا البلاط.

رمقه فؤاد في تعجب ثم جرب أن يطرق البلاط هو الآخر بقدمه. كان بالفعل غير مصمت، فقال بدهشة.

-هناك تجويف بالفعل أسفل هذا البلاط، لكن هذا غريب. إننا في الطابق الثاني ومن المفترض أن يوجد أسفل هذا البلاط سقف من الخرسانة، فكيف تكون هذا التجويف؟

-لا أعلم، لكن عليك أن تأتي بمن يزيل هذا البلاط لنرى ما يوجد أسفله،

لا أعتقد أننا قد نجد هنا معاول أو فؤوس نزيل بها تلك الطبقة من البلاط.
أخرج فؤاد هاتفه المحمول من جيبه، وبحث عن رقم ما ثم طلبه، مضى بعض الوقت قبل أن يدخل المكان رجال ثلاثة ضخام الجثة كالدببة يرتدون معاطف طويلة من الصوف متشابهة في شكلها كثيرا. ثلاثة مخبرين كما خمن الدكتور محمد. كانوا يحملون أدوات تنقيب وحفر، وقال أحدهم:
أين نحفر يا فندم.
أشار فؤاد لمكان الفراش العاري وقال:
أزيلوا كل هذا البلاط.
دبت الضوضاء في المكان على الفور والمعاول تضرب الأرض بلا رحمة. تكسر البلاط، وبدت طبقة كثيفة من الرمال أسفله، راح الرجال يعملون في همة لرفع الرمال ثم بدأت فجوة عميقة في التشكل. نظر فؤاد إلى الدكتور محمد شاهين متعجبا، وكأنما يسأله "كيف توجد مثل تلك الفجوة العميقة في سقف خرساني لا يتعدى سمكه النصف متر" وبادله الدكتور محمد النظر وكأنما يجيب على سؤاله: "فجوة شيطانية أخرى يا صديقي، ليس هذا أعجب شيء نراه اليوم".
من حسن الحظ أن هؤلاء المخبرين يفتقرون للخيال، فلم يتوقف أحدهم للحظة ليتساءل كيف تكون تلك الفجوة بكل هذا العمق، استمرت إزاحة طبقة الرمال تلك بعض الوقت ثم توقفوا فجأة وصرخ أحدهم:
يا للشيطان، إنه تابوت.
رفعوا رؤوسهم نحو فؤاد الذي وقف على حافة الفجوة وجثا على ركبته وقال:
أزيحوا الرمال من حوله ثم افتحوه.
كانت رائحة التحلل أقوى الآن، لكن الجميع تجاهلها تماما، بينما راح المخبرون الأربعة يزيحون التراب بأكفهم العارية من حول التابوت حتى

ظهر غطاؤه كاملا، ورغم أبدانهم القوية إلا أن رفع الغطاء استغرق مجهودا كبيرا حتى نجحوا في النهاية في إزاحته جانبا، وبداخل التابوت كان هناك هيكلان فوق بعضهما، أحدهما ضخم للغاية والآخر أقل حجما. ولسبب ما أدرك الدكتور محمد شاهين أن صاحب الهيكل الضخم الذي يتجاوز المترين طولا هو عم منصور، وحتما كان الهيكل الآخر يخص جمال، في تلك اللحظة دخلت فتاة في نحو الثلاثين من عمرها، كانت بدينة للغاية، ترتدي جلبابا واسعا، وقد تناثر شعرها حول رأسها في إهمال. نظرت إلى الجميع بعيون كلها رعب، بينما تعرفها الدكتور محمد على الفور. كانت تشبه أباها كثيرا، إنها ابنة جمال بلا شك، كانت تهتف في ثورة.

-من أنتم وماذا تفعلون هنا؟

وقبل أن يجيبها أحدهم انتبهت للهيكلين العظميين القابعين في الفجوة فاتسعت عيناها في ذعر قبل أن تطلق صرخة مدوية وهي تهتف:

-كلا، ليس أبي.

ثم سقطت فاقدة الوعي. اندفع الدكتور محمد شاهين نحوها، وفحص علاماتها الحيوية في عجالة، كانت منتظمة، وهذا يعني أنه لا خطر هناك. استعد ليرفع قدميها ليزيد من تدفق الدم نحو رأسها لتفيق حين سمع شهقة من خلفه وصوت أحد المخبرين يهتف في فزع:

-"بسم الله الرحمن الرحيم".

التفت برأسه للخلف. كان المخبرين الثلاثة قد تراجعوا للخلف حتى التصقت ظهورهم بالحائط وقد فغروا أفواههم في ذهول ورعب، وفي الناحية الأخرى تراجع فؤاد هو الآخر في قلق حتى بلغ الحائط خلفه. نظر الدكتور محمد حيث جحظت عيونهم، إنها الهياكل العظمية. كانت بصورة شيطانية واقفة على أقدامها العظمية. وهي تحرك جماجمها العظمية بين الموجودين وترمقهم بفجوات مظلمة بلا عيون. دق قلبه هو الآخر، وترك قدمي ابنة جمال، وهو يتراجع هو الآخر للخلف، رأى فؤاد يشهر مسدسه نحو الهيكلين، كان فكرة غير

صائبة فالفراغات بين العظام كثيرة، وأي طلقة طائشة قد تصيب أحد الموجودين، فقال بسرعة دون أن يرفع نظره عن الهياكل، وخاصة هيكل عم منصور الضخم، والذي بدا في تلك اللحظة كشيطان عملاق هرب من سقر:
-حذار يا فؤاد. لن تعطلهم رصاصاتك، لكنها ستؤذينا.
بدا التردد في وجه فؤاد، ثم خفض مسدسه في عجز واستسلام، فكر الجميع في الخطوة التالية، هل تهاجمهم الهياكل؟
وفي اللحظة التالية كانت الإجابة حاضرة، التفتت الهياكل نحو المخبرين الثلاثة، في نفس الوقت الذي برزت فجوة ضخمة مظلمة احتلت كامل الحائط خلف المخبرين، هبت لفحة من الرياح الحارة قادمة من قلب الفجوة، فأطاحت بجسد فؤاد والدكتور محمد شاهين وابنة جمال فاقدة الوعي بعيدا عنها، في نفس اللحظة التي خرجت فيه من قلب الفجوة ثلاثة أذرع أخطبوطية أحاطت بأجساد المخبرين الثلاثة الذين لم يجدوا الوقت للهرب، وجذبتهم نحوها ليبتلع الظلام أجسادهم على الفور. الغريب أن واحد منهم لم يقاوم، أو يصرخ. واصلت الرياح الحارة الاندفاع من الفجوة بينما تحرك الهيكلان العظميان نحوها في سلاسة وكأن الريح القوية لا تعوقهما. كان فؤاد على وشك فقدان الوعي، بينما كانت عينا محمد شاهين معلقة بالهيكلين الذين خطت أقدامها داخل الفجوة، وفي اللحظة التالية، ومثلما ظهرت الفجوة فجأة اختفت فجأة، وقد حصدت محصولا وفيرا من الضحايا. ثلاثة مخبرين وهيكلين عظمين، وصرخ فؤاد في فزع:
-ما الذي يحدث هنا وأي شيطان رجيم نحاربه؟!
ثم هرع نحو الجدار حيث اختفت الفجوة وراح يضربه في جنون وهو يصرخ:
-أين ذهب الرجال. أين أنتم؟ أجيبوني أيها الملاعين. أجيبوني.

رأى رومية للمرة الأولى، ولماذا أفلت من يده وراح يعدو هاربا بعيدا عنهما، ليجده في اليوم التالي ميتا في بيته الصغير بلا سبب مقنع، لكن الكلب لم يكن الوحيد الذي مات، فقد ماتت بعدها بوقت قصير باقي الكلاب التي يقتنيها في القصر، والتي كانت تتوتر بشدة حين تشاهدها، لكن عقله ظل عاجزا عن تقديم تفسير مناسب حينها، فأوعز الأمر لقانون المصادفة.

لكن ماذا عن كاثي؟

تلك الخادمة الفلبينية التي وجدها مشنوقة في حجرتها، قبل أن يكشف الطب الشرعي عن مفاجأة مذهلة، صحيح أن سبب الوفاة كان انتحارها بالشنق، لكن ماذا عن أوعيتها الدموية الخالية تماما من الدماء وكأن مصاص دماء شرس أو وطواط ضخم قد امتص كل الدماء لآخر قطرة، لكن الغريب أن الطبيب الشرعي كما علم، لم يجد جرحا واحدا في جسدها، يفسر فقدان الدماء، كما خلت أحشاؤها الداخلية من أي أثر لثقوب قد تسبب نزيفا داخليا، بالطبع أقفلت القضية على أنها قضية انتحار، لكن ما لا يعلمه أحد غيره، أن الخادمة في الآونة الأخيرة بدأت ترتاب في زوجته.

بدأت تكتب في مذكراتها التي وجدها كمال، وأخفاها عن الشرطة كي لا تصير دليل إدانة على زوجته، أنها تخاف من تلك الزوجة الجديدة، وأنها واثقة من أن بها شيئا شيطانيا. كما ذكرت أنها كثيرا ما تشعر وهي نائمة أحيانا أنها ليست بمفردها، وأن سيدتها توجد معها في تلك اللحظة في الغرفة، وأن الظلام فقط هو ما يخفيها عن عينيها، لكن رائحتها المميزة، كانت تملأ جو غرفتها بشدة، وفي ورقة أخرى، كتبت كاثي أنها لا تدري هل هي في طريقها للجنون، أم أن ما يحدث لها شيء حقيقي، ففي أكثر من مرة تشعر بوهن شديد وأن هناك من يمتص الدماء من عروق رقبتها، وهي غير قادرة على منعه، أو حتى الصراخ طلبا للنجدة، ورغم الهزال الشديد الذي تشعر به في الأيام التالية لتلك الحوادث، إلا أنها ظلت تعتقد أن ما تشعر به مجرد كوابيس وخاصة

أنها تتفقد رقبتها فلا تجد بها أي خدوش أو ثقوب. لكن في المرة الأخيرة نجحت في فتح عينيها، كانت السماء تبرق بالخارج، وفي تلك اللحظة انعكس ضوء البرق عبر النافذة، فتلاقت عيناها مع عيني ذلك الشخص الذي يمتص دماءها.

كانت عيني رومية.

هذه المرة، انكمشت حول نفسها بشدة، وهي تنشج وتتوسل إليها ألا تقتلها من أجل ابنها في مانيلا. ثم سطع البرق ثانية لتدرك أنها أضحت وحدها في الغرفة، لكن الرائحة المميزة لسيدتها رومية ظلت عالقة لوقت طويل في هواء الغرفة، وكأنما تؤكد لها أنها لا تحلم أو تهذي. وفي نهاية مذكراتها التي كتبتها في نفس اليوم الذي ماتت فيه، ذكرت أنها ستهرب من البيت، لكنها قبلها، سوف تكتب خطابا لسيدها كمال تخبره فيه بكل شيء، في النهاية كان سيدها رجلا صالحا وطالما عاملها بلطف لأعوام كثيرة.

كان السؤال المنطقي الوحيد الذي لم يجرؤ أحد على طرحه عليه، هو لماذا يبقيها زوجة له طالما يعلم عنها كل تلك الأشياء المريبة؟ كانت الإجابة بسيطة، لأنه يحبها بجنون، ولا يقدر على الحياة لحظة واحدة وهي ليست زوجته.

أخرج كمال من جيبه صورة حديثة لزوجته وقربها من عيني يوسف وهو يقول:

-هذه هي زوجتي. إنها تدعى رومية.

التقط يوسف الصورة، وهو يتساءل، أي اسم هذا، ثم اتسعت عيناه انبهارا من فتنتها حتى كاد أن يطلق صفيرا، يا للجمال، هل توجد امرأة حقا بمثل تلك الفتنة. ثم نظر إلى كمال الذي يراقب انفعالاته وتمنى لو يقول، كيف يشك أحد ما في امرأة تملك كل هذا السحر والرقة والوداعة، لكنه قال بدلا من هذا:

-امرأة كهذه تشتعل من أجلها الحروب.

لكن كمال قال مبتسما:

-هل تتغزل في زوجتي أمامي.
أجاب يوسف في ارتباك.
-معذرة، لكنها أجمل امرأة يمكن أن يلقاها المرء.
-أعرف هذا، والآن ما هو قرارك؟
وافق يوسف على القيام بتلك المهمة الخطيرة. لم يفعلها في الحقيقة من أجل المال أو حتى حب المغامرة، لكن فعلها بدافع الفضول، هل تكون زوجة كمال حقا بكل تلك الخطورة والغموض؟ صارت مهمته منذ هذه اللحظة أن يعثر على إجابة هذا السؤال. تحرك بالسيارة القديمة وهو يفكر في الخطوة الأولى التي عليه القيام بها، عليه أن يستعين بكاميرا صغيرة لا تلفت الانتباه، ويجب أن تكون قادرة على التقاط الصور البعيدة في مختلف الظروف بجودة عالية، ثم عليه أن يفكر في وسيلة للتخفي كي لا تشعر المرأة به. سوف يصير مخبرا سريا للمرة الأولى في حياته. وجد بعض المتعة في تلك المغامرة، ففي مقتبل عمره كان مولعا بألغاز شارلوك هولمز، وكم تمنى لو يصير محققا مثله، ثم قرأ روايات جيمس بوند، فتمنى لو يصبح جاسوسا محترفا يسخر من أجهزة الأمن المعادية، ويلقى الجميلات في كل مكان. وحين قرأ روايات رجل المستحيل بعد ذلك، فكر في أن يصير رجل مخابرات من الطراز الأول، يجيد كل مهارات القتال، ويطيح بالعشرات بأطرافه الأربعة في آن واحد. لكنه في النهاية التحق بكلية الإعلام، وهو يفكر في أن يصير صحفيا يقيم الدنيا بأكملها بتحقيقات كبرى عن الفساد والجريمة، حلم بأن يصير يوما مشهورا كمحمد التابعي وأنيس منصور ومصطفى أمين، و"كارل برنستين" و"بوب وود ورد"، لكنه وجد نفسه وبعد سنوات طويلة من العمل في الصحف الصغيرة، مجرد مصور صحفي لا شأن له، وأن الصحفي كي يصير ناجحا عليه أن يتتبع الفضائح أو يعمل مع الأمن، أو يتملق رجال الأعمال، لم يعد هناك مجال لقول الحقيقة، وصار الصحفي هو المتضرر الأول من كشف جرائم الفساد.
والآن قد حانت الفرصة لتحقيق حلمه الأول، سيصير محققا سريا،

فهل ينجح؟
اتصلت به خطيبته رانيا، فأخبرها أنه في سبيل الحصول على شقة جديدة، لكنه لم يخبرها بشأن مهمته، وقد وعد كمال بالكتمان. كانت سعيدة وكان هذا يكفيه، وكي يرى سعادتها تلك، سيلقي نفسه في الجحيم لو تطلب الأمر.
كان يعيش في منطقة بولاق الدكرور، في زقاق ضيق متفرع من حارة ضيقة، وأمام بيت متهالك من طوابق ثلاثة ركن سيارته، بين سيارتين ملتصقتين، ثم دخله، كان السلم مظلما، وبحرص راح يصعد الدرجات كي لا ينزلق، وفي الطابق الثالث كانت شقته الصغيرة التي ورثها عن أبيه، شقة صغيرة متهالكة للغاية، وغير منظمة، الكتب في كل مكان، والملابس النظيفة والمتسخة تتقاسم نفس المقعد، ورائحة عفونة تنطلق من مكان ما غير محدد، شقة شاب أعزب لا يجيد الترتيب وبحاجة للمسة أنثوية من العسير العثور عليها في مكان كهذا، وإلا اتهمه الجيران بالاستهتار ورموه بالمجون.
يبحث عن كاميرته الرقمية الحديثة، كاميرا أنيقة قوية من طراز كانون، ثم بدل ملابسه بأخرى ثقيلة، لأن الطقس في تلك اللحظة صار ممطرا وأكثر برودة. ثم تذكر أنه جائع فالتقط ثمرة تفاح من الثلاجة التهمها على عجل، ثم استعد للخروج. كان هذا حين نظر لصورة كبيرة معلقة في صدر الصالة له ولخطيبته رانيا، لقد التقطها لهم أحد أصدقاءه يوم احتفالهم بالخطبة على شاطئ النيل. ومن بعيد بدا أن هناك شيء ما غير صحيح بالصورة، اقترب في توتر ليتأكد. ثم توقف في رعب وقلبه ينبض في رعب.
في الصورة الأصلية كانت خطيبته ترتدي فستانا طويلا بنفسجي عاري الكتفين وهي تقبض على كفه. بينما ترمق الكاميرا بسعادة. لكن من في الصورة الآن لم تكن خطيبته. كانت امرأة أخرى، أكثر جمالا وجاذبية. ترتدي فستانا ورديا أكثر عريا وجمالا، كما أنها كانت ترقد على كتفه في سعادة مطلقة، وهو يحتضن كتفيها بذراعه.

كانت فاتنة تشتعل من أجلها الحروب.
كانت زوجة كمال .. السيدة رومية!
وتواثب قلبه في رعب.

(10)

-والآن، إلى أين تقترح أن نذهب؟
تساءل الدكتور محمد شاهين وسيارته تغادر الحارة الضيقة التي يوجد بها منزل جمال. بينما كانت السماء قد بدأت في الإمطار. بدا وجه فؤاد في تلك اللحظة، وكأنما زاد عمره عشرة أعوام كاملة، رفع رأسه في بطء وأجاب دون أن ينظر إلى محمد شاهين:
- وهل يصنع هذا فرقا؟ كل مكان نذهب إليه نجد الشياطين في انتظارنا به. إننا ملعونون يا دكتور.
ثم صمت في وجوم لنحو الدقيقة، قبل أن يطلق ضحكة صاخبة غريبة، وهو ينظر نحو الدكتور محمد شاهين بعينين زائغتين، وهو يقول:
-دكتور محمد، برأيك، هل تنفذ تلك الشيطانة انتقامها ممن تصدوا لها من قبل، أم أنها حولت انتقامها لنا نحن الاثنين؟
سؤال صعب الإجابة، فكر محمد شاهين فيه لوهلة. ثم أجاب:
- أما بشأني فلا شك في أنها تطاردني، لكني لا أعتقد أنها تفعل هذا معك، أنت فقط تتواجد في المكان والزمان غير المناسبين ولهذا تعتقد أنها تلاحقك، وهناك احتمال ضعيف في أن تكون قد أدركت أنك تلاحقها، ولهذا وضعتك على لائحتها.
-ولماذا لا تقتلك مباشرة بدلا من تلك المطاردات السخيفة؟
ابتسم محمد شاهين في دهشة، ثم قال:
-لأنها يا رجل الشرطة، تهوى العبث، هل راقبت يوما قط يحتجز فأرا في أحد الأركان، إنه لا يفترسه على الفور، بل يتسلى بالعبث به قليلا قبل قتله، يوسع له الطريق ليُمكنه من الهرب، وعندما يبدأ الفأر في

محاولة الفرار، وقد ظن أنه وجد سبيل النجاة، يجد نفسه ثانية بعدها بين فكي القط، ثم يعود القط ويتركه ثانية، وهو يوهمه أن هناك طريق آخر للفرار، وعندما يحاول الفأر مرة ثانية يعود القط ليقبض عليه، وهكذا حتى يمل القط فيبدأ في التهامه. صديقتنا رومية كما يبدو تهوى وسائل العبث تلك وتمارسها معنا بنجاح.

- لكنها ستلتهمنا في النهاية مثل القط حين تمل.

- هذا مؤكد.

- لكن هذا غير عادل. أنا لم أصارعها، ولم أكن يوما خصما لها، فلماذا أضع نفسي في طريقها.

- ليس عليك أن تفعل، يمكنك ببساطة أن تتوقف عن متابعة التحقيق في تلك القضية.

بدا الضيق على وجه فؤاد وقد خشي أن يتهمه الدكتور محمد شاهين بالجبن، فقال في إحباط:

- انظر يا دكتور محمد، ربما أنت لا تعلم أي رجل شرطة أنا، وهل أتصف بالشجاعة، أم أني مجرد ضابط جبان يميل للجرائم المعتادة البسيطة ويتحاشى القضايا الخطرة. لقد واجهت الفساد هنا في القاهرة، وتم عقابي بإرسالي إلى أخطر بقعة في الصعيد.

- تقصد نجع الموتى.

- نعم، ولو كنت تعلم فخطورة ذلك المكان لم تكن فقط في الأساطير التي تقال عنه، أو تلك المقابر الفرعونية العملاقة الموجودة في جباله، الخطورة الحقيقية هناك، والتي يعلمها كل ضابط شرطة في مصر بأكملها، في جباله، في المطاريد الذين يسيطرون عليها، والتي لا يجسر أي مخلوق على الاقتراب منهم أو مواجهتهم، أعتقد أنهم أرسلوني إلى هناك لألقى حتفي مثل العديد من زملائي الذين خدموا هناك، كانوا يعلمون أنني لست الشخص الجبان الذي يهرب من المعركة، حتى لو كلفه الأمر حياته هو نفسه، وبالفعل لم أخذل من أرسلوني لحتفي وتحديت المطاريد.

-لكنك هاهنا أمامي حيا معافى.
- من حسن الحظ فقط. لقد واجهت لعنة فرعونية رهيبة، وواجهت المطاريد، ونجوت فقط لأن الله لم يشأ لي الهلاك.
-ما الذي ترغب في قوله أيها الرائد.
-أنني لست الجبان الذي يغادر المعركة ليظفر بحياته، لكن ليس هذه المرة، أنا لن أحارب شياطين لا حد لقواهم، دون أن أمتلك أي فرصة لمواجهتهم، أو حتى الدفاع عن نفسي أمامهم. تلك معركة خاسرة ومن الحماقة أن أقبل خوضها، فهذا يعني الانتحار.
أدرك محمد شاهين ما يرغب في قوله، فقال وهو يقف أمام إشارة مرور حمراء:
-إذن تنوي الاعتذار عن تكملة المهمة.
-وهل تلومني لو فعلت؟
-لا.
-سوف أذهب الآن إلى مدير الأمن، وأخبره بكل ما حدث. لا أدري هل سيصدقني أم لا، لكنني سأخبره بما رأيته، ثم أسأله إعفائي من تلك المهمة. وأرجو ألا تنظر إلي كرجل جبان.
-صدقني أنا لا أفعل.
-إذن هل تقلني إلى مديرية الأمن؟
هبط فؤاد أمام مبنى مديرية الأمن، ثم تحرك الدكتور محمد شاهين بالسيارة في حيرة، وهو يتساءل ماذا يفعل الآن؟! ثم تذكر كتاب اللعنات، وفي سره تمتم في أسى:
-آه لو كان موجودا الآن.
كان قد فقده فجأة قبل أكثر من عقدين من الزمان، فبعد مواجهته الأولى مع رومية حاول تعرف الكثير من أسرار الكتاب، لكن الكتاب تبدل حاله فجأة فاختفت الكلمات من صفحاته وصار مجرد كتاب من الجلد البشري المدبوغ، ذا صفحات بيضاء. كان يؤمن أن الكتاب مرصود بسحر كبير، وأنه قد أخفى ما به من أسرار ليحميها، حينها وضع

الكتاب في خزانة قوية يحتفظ فيها بأغراضه الثمينة، ومع مرور السنوات نسيه تماما، حتى حلم به يوما في كابوس مريـع، استيقظ من نومه ليفتش عنه فلم يجده في الخزانة، بحث عنه في كل مكان في الفيلّا فلم يجد له أي أثر، وحين يئس من العثور عليه قرر أن ينسى الأمر برمته، وخاصة أنه كان متأكدا أن أستاذه الروسي الذي منحه الكتاب قد هلك حتما في سجون سيبيريا قبل أعوام كثيرة، ولم يعد هناك من قد يطالبه به. كم كان أحمقا! فالآن ومع عودة رومية ثانية، كان الكتاب ليشكل فارقا كبيرا لو كان لديه.

لم يكن يرغب في العودة الآن لفيلته في تلك اللحظة، كانت نفسه تموج بالتوتر والقلق، ومن بعيد لاح له وهو يسير المتحف المصري. فقال وهو يتجه نحوه:

ولم لا؟!

كانت زيارة المتحف واحدة من هواياته الأثيرة التي لا يملها. فالتجول في أروقته ودراسة البرديات والأيقونات والتمائم والتماثيل والآثار التي تنتمي لمختلف الحقب منذ بدء التاريخ، ظلت متعة لا تُقاوم. وبينما راح المطر يضرب رأسه ووجهه دخل بوابة المتحف في خطوات أقرب للهرولة.

داخل إحدى قاعاته، وقف أما مجموعة من الأواني الحجرية التي تعود لعهد ما قبل الأسرات. لكن ما لفت انتباهه بشدة، كان تمثالا صغيرا لا يتجاوز طوله العشرين سنتيمتر، مصنوع من النحاس، على شكل رجل عاري الصدر منتصب في تحفز، وبيده صولجان رأسه على شكل أفعى طويلة الأنياب، ويخرج من ظهره جناحان مفرودان دقيقي الصنع. كان الأكثر إثارة في التمثال هو تفاصيل وجهه النحيل للغاية، عيون طوليه وأنف دقيق، وفم صغير بلا شفتين، كان دوما شديد الدهشة من دقة صنع التمثال، ووجهه غير البشري، وخاصة أن التاريخ المدون على لافتة زجاجية إلى جواره تشير إلى أن عمره يتجاوز العشرة آلاف عام. كيف صنعوه في ذلك العصر بمثل تلك الدقة، وإلام يرمز؟

-تمثال غير بشري، لو كنت تعلم.
سمع هذا الصوت الدافئ إلى جواره، فالتفت لتلتقي عيونه بأجمل وجه بشري يمكن أن تقع عيناه عليه، وجه امرأة فاتنة. لو كانت امرأة أخرى لتواثب قلبه طربا من فتنتها، لكن ليس تلك المرأة.
إنها رومية.
كانت ترتدي ملابس عصرية بسيطة وأنيقة للغاية. بنطلون ضيق من الجينز وبلوزة بيضاء فوقها معطف رمادي أنيق وفوق عينيها نظارة شمسية أنيقة، بينما انساب شعرها الناعم حول رأسها وظهرها كشلال من الحرير الأسود. تراجع للخلف في خوف حقيقي، واحتبست الكلمات في حلقه، لكنها تقدمت نحوه، في بساطة، وتأبطت ذراعه في بساطة، وهي تقول:
-هل يبتعد أي رجل بكامل عقله، عن فتاة مثلي تخطب وده.
-هذا إن لم تكن شيطانة تريد قتله.
ضحكت في خفوت، وخلعت نظارتها فبدت عيناها البندقيتان تلتمعان في نشوة عبث، وهمست:
-وهل رأيت يوما شيطانا بمثل هذه الفتنة؟
-أجل .. أنت!
-تظلمني كثيرا يا دكتور. لكن عليك أن ترفع فكك الأسفل المتدلي هكذا في بلاهة، وأن تتحكم ولو قليلا في نظرة الذعر السخيفة تلك في عينيك. ألا ترى أن الجميع هنا ينظرون إليك، ويحسدونك على الظفر بفاتنة مثلي.
انتبه إلى أن كل العيون في المتحف معلقة به في حسد حقيقي، من الرجال له ومن النساء عليها. كهل أنيق وشابة في قمة فتنتها. صورة تليق بنجوم السينما في الواقع، لكن لو عرفوا الحقيقة لـ "ولوا الأدبار من الرعب". تمالك نفسه والتفت إلى التمثال النحاسي كي لا يلفت المزيد من الانتباه، وهتف من بين أسنانه، وهو يقاوم تلك الرائحة المثيرة المخدرة لأعصابه، التي تفوح منها:

- ماذا تريدين؟
- ما أريده يا دكتور أحصل عليه ولا أطلبه، ظننت أنك تعلم جيدا من أكون.
- إذن لماذا أنت هنا؟
- لنقل أنني أرغب في التحدث إليك قليلا. فتاة جميلة مثلي لا بد أن تظفر بالأكثر وسامة وأناقة ممن حولها من الرجال.
- وماذا تفعلين بي؟ هل ستأكلينني؟ أم تمتصين دمائي؟ لا تنكري أنك تفعلين هذا بضحاياك؟
- أفعل بهم ما لا تتخيله. لكن ليس هذا المصير الذي أدخره لك أيها الوسيم.

ثم مالت نحو أذنه وهمست:
- لنقل أنك تروقني.

وثب قلبه من المفاجأة، وابتعد برأسه بسرعة عن فمها، ثم نظر إليها في غير فهم، وقال:
- هل تحاولين مغازلتي؟

ضحكت برقة، ففاح مع أنفاسها المزيد من عطرها المثير المبهم، عطر مميز لا تملكه أنثى أخرى في العالم كله، وسمعها تقول في حزن مزيف:
- كان علي المبادرة، طالما لديك قلب قاس كالحجارة لم تذيبه فتنتي.
- ومنذ متى تهوى الشياطين البشر؟ لم أسمع عن شيء كهذا من قبل.
- أولا أنا لست شيطانة، ربما لا أكون بشرية مثلك، لكني في النهاية أنثى، وأي أنثى في الكون يروقها صنف بعينه من الذكور، وحين تجده تتمسك به حتى الموت.

ثم مدت يدها بغتة إلى واجهة التمثال النحاسي الزجاجية، واخترقتها كأنها غير موجودة، وحملت التمثال الصغير من الداخل، ثم قدمته له قائلة:
- إنه هدية بسيطة لأثبت لك مودتي.

نقل بصره بسرعة بين مكان التمثال الفارغ في الصندوق، ومكانه الجديد

في كفها، ثم نظر حوله في رعب وقال بصوت مختنق:
-أعيدي التمثال بسرعة لمكانه، قبل أن يكتشفوا الأمر. سوف يقبضون علينا لو لم تفعلي.
لكنها أغلقت كفها للحظة على التمثال، ثم فتحتها فعادت كفها فارغة كالسحر، وقالت وهي تجره من يده نحو باب الخروج:
- ثق بي، لو لاحظت لم تنطلق صافرات الإنذار، كما أن أحدا لم ينتبه لما تم.
-وكاميرات المراقبة، سوف يصلون إلينا عن طريقها.
-كاميرات المراقبة داخل المتحف وخارجه لم تصور صورة واحدة لنا اليوم ولن تفعل، لا أحد يصور رومية دون رغبتها.
كانا يخرجان من باب المتحف الخارجي في تلك اللحظة، بدا للجميع رجل أنيق وسيم في منتصف العقد الرابع من عمره، وفتاة فاتنة تعلقت بذراعه وهي ترمقه بسعادة وهيام، بديا كعاشقين في منتصف العمر، بدا وكأنهما لا يباليان بالمطر الشديد الذي ينهمر فوق رأسيهما في تلك اللحظة، وقالت له دون أن تنظر له:
-والآن ابتسم يا عزيزي، هناك من يصورنا خلسة وأرغب في أن تبدو في قمة وسامتك وجاذبيتك في الصورة، أنا أعتمد عليك في هذا.
أراد أن يجذب ذراعه من ذراعها فلم يقدر، بدا وكأن قوى خفية تسيطر على جسده، ولهذا لا يستجيب له، شعر بعضلات وجهه ترسم ابتسامة جذابة رغما عنه، ولم تستجب له عضلات رقبته حين حاول الالتفات حوله ليرى من يصورهما، فقط لسانه طاوعه وهو يقول:
-ماذا فعلت بجسدي، إنه لا يستجيب لي، ومن يصورنا؟
-لا تقلق يا صغيري، جسدك مازال ملكك، فقط استعرته للحظات، أما عن الصور فلا تقلق بشأنها، ثق بي.
كانت آخر من قد يثق به في الكون بأجمعه، شيطانة من جنس قديم عمرها آلاف الأعوام، تهوى القتل وتعشق العبث، مهما بدا عليها من رقة وجمال، فما هذا إلا قناع تتستر به، وحتما تملك وجهها بشعا آخر

يليق بالشياطين، راح عقله يفكر في جنون، محاولا التغلب على خفقات قلبه التي تهمس داخله في تلك اللحظة وقد شغفها هذا الجمال النادر، "لكنها كالحور!".

كانا قد بلغا مكان سياراته في تلك اللحظة، فتركت ذراعه، ومعها عاد جسده ملكه وسمعها تقول:

- يا لها من سيارة فخمة مثيرة، ألم أقل لك أنك تروقني يا رجل؟

ثم ابتعدت عنه، لكنه سمعها تقول دون أن تنظر:

- بالمناسبة هديتي إليك صارت في جيبك الآن.

ومن تحسس جيبه في ذعر عثر على الهدية المرعبة التي قد تدخله السجن لأعوام كثيرة لو قبضوا عليه.

كانت الهدية هي التمثال النحاسي.

(11)

كان الوقت مبكرا، الصباح شتوي بارد للغاية يليق بشهر ديسمبر، والمطر خفيف. الرياح باردة، والشوارع المبتلة خاوية من المارة، ومن حين لآخر تظهر سيارة تنفث البخار وهي تمضي إلى وجهتها المجهولة.

في سيارته جلس يوسف على مقربة من فيلّا كمال البهتيمي ينتظر. كان البرد أسوأ مما توقع، وحتى مع البالطو الصوفي السميك والملابس الثقيلة التي يرتديها ظلت أسنانه تصطك، وقشعريرة ثلجية تكتنف جسده من حين لآخر. نفخ في كفيه ملتمسا بعض الهواء الدافئ من راحتيه، وهو يهمس:

- اللعنة، وكأننا انتقلنا للقطب الشمالي.

هل كان عليه أن يرتدي المزيد من الملابس؟ لكنها كانت لتعيق من حركته وتجعله أقرب للدببة حينها، أم كان عليه أن يؤجل القيام بمهمته ليوم أو يومين ريثما يتحسن الجو ولو قليلا، المشكلة أن الأرصاد الجوية ظلت تؤكد أن هذا الطقس السيئ غير المستقر سيستمر لنحو الأسبوع الكامل. وهذا يعني أنه لا جدوى من الانتظار، وقد يسوء الجو أكثر من

هذا، وتتحول تلك الرياح الممطرة لعاصفة، بينما أكد له كمال أنه ينتظر نتائج موثقة بعد أسبوع واحد.
ورغم كل هذا ظلت لديه الفرصة لتأجيل مهمته ليوم أو اثنين لو شاء، لكنه بدأها كي يقتل كل تردده، لو انتظر في بيته لوقت أطول، لربما أعاد الشيك لصاحبه واعتذر عن القيام بالمهمة مؤثرا السلامة. تجربة الليلة الماضية كانت مخيفة، لقد كانت صورة خطوبته وظهور رومية فيها بدلا من مخطوبته أمرا مزعجا مخيفا، رغم أن هذا الأمر الخارق لم يدم طويلا. بعد أن رأى الصورة شعر بإعياء شديد ودوار قوي يعتصر عقله، فاتجه نحو حوض المطبخ القريب ليغسل وجهه بالماء البارد علّه يفيق، وحين عاد كانت الصورة قد عادت كما كانت، هو ومخطوبته في نفس الوضع السعيد السابق. جلس أمام الصورة في ترقب وهو يتساءل، هل كان يهذي، وهل ما رآه خدعة توهمها عقله؟
ربما!
ولنحو الساعة ظل يراقب الصورة في مكانه وهو ينتظر أن تتغير مرة أخرى، ثم اتصلت رانيا به، رد عليها، فقالت له:
-ماذا أصابك، هل أنت بخير؟
حاول الفرار من مصيدة أسئلتها، فقال بهدوء:
-لا شيء يا أميرتي، فقط بعض الإرهاق.
-كلا، أعرف كيف تكون حين تكون مرهقا، هناك أمر مقلق يشغل بالك، هيا أيها الصبي المطيع، أخبر ماما بما يقلقك ولا تخف عنها أي شيء.
ولأنها اعتادت أن تحصل منه على الإجابات حين تسأل، ولأنه اعتاد على الخضوع لها، فقد أخبرها بكل شيء. وحين انتهى من حديثه، تنهدت رانيا ثم قالت له:
-اسمع يا يوسف، ربما لو كنا في زمن آخر أقل قسوة وأكثر رومانسية، لرجوتك أن ترفض تلك المهمة ولو أتتك بمال قارون، لكننا نحيا في هذا الزمن الرديء، وأعرف أن المال القادم من تلك المهمة هو زورق النجاة لعلاقتنا، وطوق النجاة الذي قد يزفني إليك، مخاوفك تستحق الانتباه

بالطبع، لكنها قد تكون مجرد هواجس لا أصل لها. وطالما لم يعثر أحد على جثث من سبقوك، فلا جريمة هناك. من يدري، ربما هرب من قاموا بالمهمة بالأموال التي قبضوها، وربما لم يكن هناك أصلا أحد بذلك، وكمال هذا يخبرك بذلك لغرض يخفيه في نفسه. لكن النهاية واحدة، عليك القيام بالأمر لأننا بحاجة لهذا المال. بالطبع يمكنك أن ترفض، لكن دعني أؤكد لك أن علاقتنا بغير مال حقيقي قريب لن تطول مهما تمسكنا ببعضنا البعض. يمكنني أن أشاركك المهمة لو شئت، فأنا لا أصدق أن امرأة كهذه قد تتورط في قتل أحد لمجرد أنه يراقبها، لكن لا تنتظر مني أن أقبل رفضك هذه الفرصة التي لن تتكرر.

وماذا عن صورة خطوبتنا، أقسم لك أنها كانت بداخلها بدلا منك.

لكنني انا الموجودة بالصورة التي أمامك الآن وليست هي، أليس كذلك؟ وطالما أنك لا تملك دليلا على ما رأيته، فلا مجال للاكتراث بأمر كهذا، إنها أوهام بلا شك.

هل تتهمينني بالجنون يا رانيا؟

يا حبيبي، أنا لا أتهمك بشيء، أنا فقط أحاول إعادة الأمور لنصابها. يا يوسف، من بالصور يظل بها ولا يتبدل، والمخاوف والضلالات يصنعها العقل، والأفعال الشيطانية مكانها الجحيم وليس هذه الأرض. أليس هذا ما علمونا إياه في الكتب؟

وفي مكمنه في السيارة منتظرا أن تخرج رومية ابتسم، لقد كانت رانيا دوما أقوى منه حجة وأكثر تعقلا، إنه عاطفي وهي عملية، لهذا كان يعلم أنها تكمل الجانب المفقود في شخصيته، كانا كقطبين متحابين بصدق، متنافران في الشخصية والطباع، ولهذا يتجاذبان.

مضى الوقت البارد ثقيلا، وقرب التاسعة خرجت سيارتا دفع رباعي، تعرف على راكب السيارة الثانية، إنه كمال البهتيمي، وحتما هو في طريقه لعمله برفقة رجال حراسته، وكما أخبره كمال فإن زوجته عادة ما تتبعه في الخروج، حيث تتجه للنادي لممارسة الرياضة كعادة ثابتة. استعد لهذا فشغل المحرك الذي منح السيارة بعض الحرارة والدفء،

ثم خرج من باب القصر الخارجي سيارة "مرسيدس اس كوبية" رياضية
كانت السيارة الفخمة باللون الأحمر الدموي، وبداخلها جلست إحدى
الحوريات في زي رياضي أحمر، وقد التف حول وجهها شعر أسود
كعتمة الليل. ورغم الطرق الزلقة المبللة، فقد انطلقت السيارة في
سرعة كالصاروخ وقد ساعدها الشارع الفارغ على تلك الانطلاقة
العنيفة. انطلق يوسف خلفها بسرعة، وهو يتساءل هل تستمر في
سرعتها الرهيبة تلك حتى النادي، حينها لن يلحق بها بلا شك خاصة
مع موتور سيارته القديم الصغير، وإطاراتها المتهالكة التي كان عليه
استبدالها قبل عام كامل. لكنه وجد السيارة الحمراء أمامه خلف أول
إشارة مرور كانت حمراء. بالكاد اقترب منها لنحو عشرين مترا حين
توهجت لمبات الإشارة باللون الأخضر فعادت السيارة القوية لتنطلق
كالبرق، عبثا حاول اللحاق بها لكن المسافة بين السيارتين كانت تتسع
باضطراد، فغمغم وهو يضغط دواسة البنزين أكثر رغم مخاطر السرعة
في المطر:

-رباه، إنها امرأة عابثة أو مجنونة. كيف يمكن اللحاق بواحدة كهذه.

كان يعرف وجهتها كما أخبره كمال، نادي الجزيرة. لكن ماذا لو سلكت
وجهة أخرى، وذهبت لمكان آخر لا يعلمه، سيضيع مجهوده هذا اليوم
هباء، اختفت السيارة الحمراء من أمام عينيه تماما، لكنه ظل في طريقه
المتجه لنادي الجزيرة. وقد زاد من سرعة سيارته، لكن عجلة القيادة
اختلت قليلا في يده، وكادت السيارة أن تنزلق في ماء المطر مرتين، فهدأ
من سرعته رغما عنه، وهو يضرب عجلة القيادة في حنق قائلا:

-تبا لهذا المطر.

لكنه وما أن بلغ نادي الجزيرة حتى وجد السيارة أمامه، وأمامها ثلاث
سيارات حديثة، وجميعها تنتظر دورها لدخول النادي، كان أمرا عجيبا،
فالمفترض أنها قد سبقته كثيرا فكيف يجدها لم تدخل بعد، هل ذهبت
لمكان ما قبل ان تأتي للنادي؟ احتمال قائم. ظهرت سيارة سودا
يستقلها شاب في مقتبل العمر، بدا واضحا أن رومية قد استرعت

اتجاهه فسار بجوار صف السيارات ثم توقف بجوار سيارتها تماما وأطلق بوق السيارة، وهو ينظر إليها راسما ابتسامة لزجة على وجهه، ابتهجت له رومية فالتفتت نحوه وابتسمت، فرأي يوسف كيف خفض الشاب نوافذ سيارته وهو يرمقها في غير تصديق، وبينما تحركت سيارتها خلف صف السيارات التي دخلت اثنين منها إلى النادي، تحرك الشاب هو الآخر بسيارته، ومازال وجهه مثبت على وجهه رومية كالواقع في السحر، ثم انطلق صوت زاعق في ذعر:

انتبه أيها الأحمق.

كان الأحمق هو الشاب الذي واصلت سيارته الاندفاع نحو الباب الحديدي للنادي، والمغلق في تلك الناحية، أفاق الشاب مع اصطدام سيارته العنيف بباب النادي الحديدي المغلق في تلك الناحية، وقد انطلقت من عجلة القيادة الأكياس الهوائية واصطدمت بصدره في عنف، هنا أطلقت رومية ضحكة ساخرة وهي تدخل تعبر بوابة النادي.

تقدمت سيارة يوسف نحو الباب وهو يفكر فيما حدث أمامه، الشاب المتحرش يستحق ما حدث له بالطبع، لكن كيف غاب عقله هكذا فلم ينتبه للباب المغلق أمامه، ولماذا زادت سيارته من سرعتها بغتة حين اقترب من الاصطدام؟ هل هي حماقة من الشاب، أم أن رومية من دفعه لفعل هذا؟

بلغ الباب فخفض زجاج نافذته وهو يدفع ببطاقة منحه إياها كمال، تتيح له دخول النادي وهو يقول:

- صباح الفل، هذه بطاقة دخول استثنائية.

نظر الحارس الشاب للبطاقة بدقة ثم أعادها إليه وأجاب في آلية وهو يفسح له للدخول:

- صباح الخير، تفضل.

يمتاز نادي الجزيرة في مصر بأنه نادي الصفوة والأثرياء، كان هو النادي الأقدم في مصر، والذي تم إنشاؤه عام 1886 تحت اسم "نادي الخديوي"، قبل أن يتغير الاسم لنادي "الجزيرة" عام 1914 ثم تغير

اسمه مرة أخرى ليصير "أمير الصعيد" نسبة للملك فاروق، لكن التغير الأخير سرعان ما انتهى بعد عام واحد وعاد الاسم القديم "الجزيرة" مرة أخرى وأخيرة. لا يفتقد النادي للعراقة وقد ضم مجلس إداراته الكثير من الأمراء وكبار الأعيان في مصر والكثير من أثرياء الأجانب في مقدمتهم اللورد كرومر نفسه، المندوب السامي البريطاني.

ورغم مرور أكثر من قرن على نشأته، فقد ظل النادي محتفظا بأرستقراطيته، ومازال مجلس إدارته يختار أعضاءه بعناية، ومازالت عضويته هي الأغلى في مصر كلها.

وسط السيارات الفخمة الحديثة التي حوله، بدت سيارة يوسف رثة وملفتة، شعر يوسف بالحماقة، من السهل أن تنتبه رومية له ولسيارته التي جذبت أنظار الكثيرين من رواد النادي، رغم قلتهم في هذا الصباح البارد الممطر. لم يدر إلى أين يذهب وأين يركن سيارته، كما لاحظ أن سيارة رومية الحمراء قد اختفت من أمامه وهو ينتظر الدخول. تجاوزته سيارة BMW من الفئة الخامسة تقودها سيدة في منتصف العمر بمفردها، فلم يجد أمامه غير اتباعها، بالفعل كانت السيدة تتجه إلى مواقف السيارات فصف سيارته إلى جوار إحدى السيارات وهو يتنهد بارتياح حين رأي سيارة رومية واقفة غير بعيد.

خرج من السيارة فضربت الأمطار رأسه ووجهه، بدا وكأن لا أحد ممن حوله من الأثرياء مهتم بالمطر، وقد ارتدى أغلبهم ملابس رياضية خفيفة وهم يستعدون لممارسة رياضة الصباح، بدا شكله بالمعطف الصوفي الثقيل وكأنه لا ينتمي لهذا المكان، حاول تجاهل مثل هذا الشعور المقيت، وتبع السيدة التي هبطت من السيارة "BMW" والتي توقع من ملابسها الرياضية أنها قد تمارس رياضة الجري. كان محظوظا مرة أخرى، فقد قادته السيدة إلى المكان المخصص للجري، حيث كان هناك بعض الفتيات والسيدات والقليل من الشباب، وفي وسطهم كانت رومية التي بدت بينهم كفاتنة من عالم آخر، بجسدها المرسوم بدقة وملابسها الضيقة الأنيقة وشعرها الأسود الثائر خلف رأسها

وسماعتي الأذن اللاسلكية التي ترتديها في أذنيها. توارى يوسف خلف إحدى الأشجار وهو يتهم نفسه ثانية بالغباء. كان عليه أن يحضر الملابس الرياضية طالما سيذهب لنادٍ كهذا في الصباح المبكر، كي لا يلفت الانتباه.

مضت نحو النصف ساعة قبل أن تبطيء رومية من جريها وتستعد لمغادرة المكان، ورغم كل المجهود الذي بذلته لاحظ يوسف أن وجهها لا يحمل ذرة واحدة من العرق وأن أنفاسها غير سريعة أو متلاحقة، وكأنما لم تقم للتو بمجهود يعجز يوسف عن أداء حتى نصفه دون أن يسقط على الأرض لاهثا يتسول الراحة والهواء.

امرأة رياضية منذ نعومة أظفارها أو امرأة مريبة.

احتمالان قائمان.

الآن ستتجه حتما نحو ملعب التنس لتتدرب هناك لنحو ساعة كاملة مع مدربها أو أحد أصدقائها، كما أخبره زوجها، اتجه من طريق آخر نحو ملاعب التنس، ثم اختار مدرجا مظللا بعيدا بعض الشيء وجلس به ينتظر، شمل البلل أغلب ملابسه وبات الهواء في هذا المكان المفتوح أكثر عنفا وبرودة، وبحدس لن يخطئ هذه المرة، علم أنه سيصاب نهاية اليوم بالأنفلونزا. مضت نحو عشر دقائق وهو يرتجف ويلعن غباءه لأنه لم يرتد معطف مطر من الألياف ليمنع المطر من الوصول لباقي ملابسه. ظهرت رومية في أرض الملعب، كانت ترتدي هذه المرة تي شيرت أحمر ماركة نيك وجيب أبيض قصير للغاية من ذلك الذي تلبسه لاعبات التنس المحترفات، وفي يدها مضرب كبير من مضارب التنس. تدفق الدم الحار في عروقه وهو يرى إلهة الجمال نفسها تخطو بحيوية نحو الملعب المخصص لها، بالطبع لم يكن عجيبا أن تشرئب كل العيون إليها في إعجاب، الرجال والنساء على السواء، ورغم أن أغلب السيدات والفتيات في ناد كهذا يتميزن بالجمال والفتنة، إلا أن جمالهن بدا إلى جوارها باهتا غير ملفت.

كان هناك لاعب شاب في انتظارها، سلمت عليه بابتسامة رائعة، ثم

بدأ اللعب تحت المطر الذي ازداد معدل انهماره. وبهدوء راح يوسف من بعيد يراقبهما وقد التقط بكاميرته بعض الصور للشاب، وهو يتساءل، كيف يتمالك هذا الشاب أعصابه أمام فتنتها ويلاعبها بمثل هذه القوة؟ ربما اعتاد جمالها، لكن هل يعتاد أي امرؤ مثل تلك الفتنة؟
مضت نصف الساعة ثم سمع يوسف رومية تهتف بصوت مرح وهي تضع مضربها على منضدة:
-سأعود بعد دقيقتين يا مودي، انتظرني.
ثم شاهدها يوسف وهي تدخل غرفة تبديل الملابس، خمن يوسف أنها ستغير ملابسها التي التصقت بجسدها وقد أغرقتها الأمطار، مضت نحو الخمس دقائق ولم تظهر، ثم سمع يوسف صوتا قادما من خلفه يقول:
-هل أعجبتك مهارتي في اللعب.
التفت في ذهول، ليراها تجلس خلفه تماما، كانت ترتدي هذه المرة تي شيرت أبيض جاف فوق نفس الجيب البيضاء التي كانت ترتديها قبل لحظات، ظلت ترمقه بابتسامة عابثة وعقله يفكر بجنون، كيف اكتشفت أنه يراقبها بمثل هذه السرعة، بل وكيف غادرت حجرة تبديل ملابسها دون أن يراها، وكيف تسللت هكذا لتجلس على المدرج الخشبي من خلفه؟
-لم تجب على سؤالي أيها الصحفي التابه، أم هل أكلت الهرة لسانك؟
شعر بالرعب هذه المرة، تلك الفتنة بها مس شيطاني حتما، تراجع جسده مبتعدا عنها، وقد عقد لسانه فلم ينطق، فنهضت رومية وهي تقول:
-من حسن حظك أنه لا وقت لدي للحديث، لدي عمل مهم يجب القيام به، ستجدني في المتحف المصري، انتظرني هناك.
ثم بدأت تهبط الدرج في هدوء، قبل أن تتوقف وقد بلغت نهايته، وهي تلتفت إلى يوسف الذي كان جسده يرتجف من الخوف هذه المرة:
-بالمناسبة، واصل مهمتك التي طالبك بها كمال، تتبع خطواتي وراقبني

وصورني طوال الوقت، لكن لا حاجة بك للتخفي، لأني أعلم بما تقوم به منذ البداية. لكن، إياك أن تتوقف، سأغضب بشدة لو لم تكمل مهمتك، أيها الفتى المطيع، وصدقني لن يروقك غضبي حينها.

ثم أطلقت ضحكة ساخرة عابثة وهي تبتعد جذبت إليها الأنظار، قبل أن تغادر المكان كله. شعر يوسف بالرعب الشديد، وهاتف غريب يهتف بداخله، أن تلك المرأة ليست بشرية. وفي مكانه عاد ليفكر ثانية، هل عليه أن يتخلى عن تلك المهمة المخيفة ويعيد لكمال نقوده أم يتقبل المخاطرة ويواصل العمل فيها.

لكنها رانيا مرة أخرى، لو ترك المهمة لنعتته بالجبن، وبالطبع لن يكون غريبا أن تخلع دبلة الخطوبة وتضعها في يده. إذن ليس أمامه طريق للعودة وعليه المواصلة.

تحرك هذه المرة في غير عجلة، إنه لا يدري أين ذهبت وهو لن يلحقها بالطبع لو أراد، لكنها أخبرته أن ينتظر بالمتحف المصري، إذن فليذهب إلى هناك ولينتظر.

توجه إلى المتحف المصري بميدان التحرير، وخارج بوابته انتظر لبعض الوقت ثم قرر البحث عنها داخل المتحف، ابتاع تذكرة ودلف إلى المكان الواسع وهو ينقل بصره بسرعة في كل مكان، لم تكن هناك. هنا غادر المتحف، وخلف قائم بعيد بجوار السور عاد لينتظر لأكثر من ثلاث ساعات. خرجت رومية من باب المتحف وهي تتأبط ذراع كهل وسيم مضطرب، ورغم الذهول الذي غمره وهو يتساءل كيف دخلت المكان دون أن يراها، إلا أنه أسرع بإخراج الكاميرا الصغيرة وراح يلتقط المزيد من الصور، إنها تتأبط ذراع رجل غريب لا يعرفه، هل يكون قد وصل بسرعة هكذا للحل، وهل يكون هذا الكهل الجذاب كنجوم السينما هو الرجل الذي تخون زوجها معه؟ ثم انتبه بغتة لأمر مهم، إنها تنظر للكاميرا بثبات وكأنها تدرك أنه يقوم بتصويرها، بل وتدفع الرجل للنظر للكاميرا والابتسام أيضا. أتراها لا تكترث هكذا بما يفعله؟

هذه المرة شعر بالرعب الحقيقي حتى أنه لم ينتظر ليرى إلى أين

ستذهب مع الرجل، لقد راح يعدو مبتعدا. هذه المرأة إما أن تكون مجنونة أو شيطانة.
وفي كلا الأمرين هي امرأة خطرة للغاية.

(12)

راح مدير الأمن يطالع التقارير التي بين يديه، في بطء شديد دون أن يرفع عينه عنها، ودون أن ينظر إلى فؤاد، متجاهلا إياه وكأنه غير موجود. أدرك فؤاد بحدسه ما يدور في نفس قائده.
إنه لا يصدقه!
لا يلومه في الواقع، فمن رأى ليس كمن سمع، ولو جاءه أحد الضباط الصغار وأخبره بمثل ما قاله لمدير أمن القاهرة، فلن يصدقه. لكنها الحقيقة في النهاية مهما بدت غير منطقية أو حتى مستحيلة. الحقيقة التي يشعر أنه غير مستعد لخوض معركتها. طال الصمت بينه وبين مدير الأمن وعينه معلقة به في انتظار أن يعاود حديثه ثانية. ثم أغلق مدير الأمن الملف الذي بيده ونظر إليه بحزم وصمت لبرهة قبل أن يتكلم ببطء:
-جثث تعود للحياة وهياكل عظمية تقاتلك، وفجوة شيطانية ابتلعت ثلاثة من رجالنا، وشيطانة قادمة من الماضي لتنتقم، هي من تسبب بكل تلك الفوضى، أليس هذا ملخص ما تقوله؟
حاول فؤاد التماسك أمام قائده، وأجاب في هدوء:
-أجل يا سيدي.
-وتنتظر مني أن أصدقك أيها الرائد؟
-لأنني أخبرك بالحقيقة يا سيدي، بل ولدي الشهود على كل حرف قلته. هناك رجال الشرطة الذين قاتلوا تلك الأشياء في المشرحة، وهناك كبير الأطباء الشرعيين بمشرحة زينهم، والدكتور محمد شاهين، كلهم رأوا بأعينهم ما حدث.
هز مدير الأمن رأسه في بطء ومط شفتيه، ثم غمغم:

- وما هو المطلوب مني الآن؟
- أريد إعفائي من مواصلة العمل في هذه القضية.
- ولمن أسندها في رأيك؟

كان مدير الأمن ينظر إلى عينيه بعيون قاسية لا ترجف.

- لا أدري يا سيدي، لكن حتما هناك من هو أكثر كفاءة مني بين الزملاء.

ابتسم مدير الأمن ابتسامة باردة كالجليد، وهو يتراجع بظهره للخلف، ثم قال:

- إذن فأنت هنا تعتذر عن استكمال هذه القضية، لأنك ترى نفسك غير كفء للتحقيق فيها أيها الرائد، هل أنا مصيب؟

حرك فؤاد رأسه في توتر وهو يجيب:

- ليس هذا ما أعنيه، الأمر لا يتعلق بكفاءتي، المسألة هي أنني لا ... لست ..

بدا أنه غير قادر على تقديم تفسير لما يدور في عقله، فصمت دون أن يكمل كلامه، فاختفت ابتسامة مدير الأمن الباردة وهو يقول:

- هل أنت خائف يا فؤاد؟

أطرق فؤاد برأسه دون أن يجيب، تمنى لو أخبره أن المسألة أكبر من الخوف. لكنه لم يفعل.

- اسمع يا فؤاد. لن ألومك لو أخبرتني أنك ترغب في ترك هذه القضية اللعينة، لأنك تجهل ما تواجهه أو تخافه. هذا أمر طبيعي، كلنا نشعر بالخوف في وقت ما، والأحمق وحده هو من لا يعرف الخوف وقت الخطر. لكن عملنا في الشرطة قائم على مواجهة خوفنا، وتحويل تلك المشاعر السلبية لحافز قوي لنواصل حربنا ضد من تسول له نفسه بانتهاك القانون. حين يواجه ضابط الشرطة مجرم يصوب نحوه سلاحه، فإنه لا يهرب، بل يثبت في مكانه ويقاومه. وهو يفعل هذا لأن إحساسه بالواجب قد تغلب على خوفه، الذي قد يدفعه للفرار حينها، للنجاة بحياته. حين تطارد عصابة حقيرة تتاجر في المخدرات رغم أنها قد تقدم على قتلك، فأنت تفعل هذا لأن هذا هو واجبك، واجبك الذي

يجبرك على المضي قدما في عملك، حتى لو كان الثمن حياتك. واجبك الذي لو تجاهلته أنت وغيرك، لانتهى دور الشرطة في هذا العالم، وصار العالم ملكا للأفاقين والمجرمين والسفاحين. ألا تتفق معي في هذا أيها الرائد؟

-أنا لست جبانا يا سيادة اللواء.

-وأنا أعلم هذا، وأعلم أنك من أكثر الضباط هنا كفاءة وتفانيا في أداء واجبك. لا تنس أنني من أعادك للقاهرة ثانية من قلب الصعيد، ولم أفعل هذا إلا لأنني أؤمن بقدراتك. ولهذا سأتظاهر بأنني لم أرك في مكتبي اليوم، هناك مهمة مخيفة أيها الرائد عليك التحقيق فيها، وهناك قتلى من المدنيين ومن رجالنا، ولم نصل للقاتل بعد. أو حتى نقضي عليه، هل تتفق معي في هذا؟

هب فؤاد من مقعده وألقى بالتحية العسكرية وهو يقول في خجل:

-لن يوقفني عن أداء مهمتي غير الموت يا سيدي.

وبابتسامة مشجعة قال قائده:

-هذا ما انتظرت سماعه منك.

غادر فؤاد المكتب وهو يشعر بالخجل من نفسه، ما الذي حدث له؟ هل أنهكته قضية نجع الموتى هكذا وزرعت الخوف في قلبه من أي قضية غامضة؟ لو كان هذا صحيحا فعليه أن يتوقف وألا يدمر سمعته السابقة في أروقة الداخلية. عليه أن يستقيل قبل أن يقول أحدهم يوما، أن فؤاد صار جبانا أو يتهرب من مواجهة قضية ما. هل صار يخشى الموت، ومنذ متى لا يفعل؟ لقد واجهه مرارا، وكم من صديق ورفيق عمل قُتل أمام عينيه وهو يؤدي واجبه، دون أن يفر أمام الموت أو أن يتخاذل. هو نفسه لا يغادر منزله صباحا إلا بعد أن يرتل الشهادتين، وهو يعلم أنه قد لا يعود لبيته ثانية، هذا هو عمله الذي اختاره وأحبه، ولهذا عليه أن يخوضه للنهاية.

عاد إلى مكتبه واتصل بأحد ضباطه، الملازم أول "شريف عبد السلام"، مضت بضع دقائق ثم ظهر الضابط الشاب الذي بادره قائلا:

-حمدا لله على سلامتك يا فؤاد باشا. يقولون أنك كنت في مشرحة بينهم، وأن أمورا غريبة حدثت هناك.
تناول فؤاد لفافة تبغ وأشعلها وهو يجيب:
-اجلس يا شريف، لقد طلبتك من أجل هذا بالفعل.
في إيجاز شرح له ما حدث، ثم قال:
-وكما ترى فنحن نواجه خصما نجهل كل شيء عنه. أين يوجد، كيف نواجهه، وهل سيقتل آخرين أم يكتفي بما حدث.
-وماذا تقترح أن نفعل؟
-القضية القديمة، سوف نبدأ من هناك. أريدك أن تفتش في سجلاتنا القديمة عنها، إنها جرائم قتل حدثت في مشرحة كلية طب الدمرداش في عام 1971 تقريبا، ابحث عن ملف تلك القضية لنعلم نتيجة التحقيق الرسمية فيها، ومن قام بالتحقيق فيها من رجالنا، أريد هذا الملف بشدة.
-لن يكون هذا سهلا، أكثر من أربعين عاما مضت ومحتمل أن يكون ملفها قد ضاع أو تلف.
-وهناك احتمال أن تجده، أعلم أن الأمر صعب، لكنني أعتمد على كفاءتك يا شريف، وأعلم أنك لن تخذلني.
نهض شريف وقال وهو يغادر:
-سأرى ما يمكنني فعله يا فندم.
أشعل فؤاد لفافة تبغ جديدة وراح يدخنها في شرود. رن هاتفه المحمول فنظر إلى شاشته، كان اسم المتصل يدعى المقدم محمود الشربيني. كان مجرد اسم وهمي أطلقه على رقم صافي، حبيبته وزوجته الأخرى. كان يسميها على هاتفه هكذا كي لا تكتشف زوجته الأمر، لو وقع هاتفه بين يديها مصادفة.
ابتسم وهو يرفع الهاتف نحو أذنه ويجيب:
-مرحبا يا صافي. كيف حالك؟
-لم تفكر في الاتصال بي طوال اليوم فقررت أن أفعلها كالعادة.

زفر بقوة وكأنه يطرد هما ثقيلا عن صدره، وقال:
-إنه يوم سخيف طويل، لن تصدقي ما واجهته لو أخبرتك.
-لم أعتد على تكذيبك، لكن هل تعلم، صوتك لا يروقني.
بالطبع لم يكن ليخبرها بما واجهه، فغير الحديث لنقطة أخرى، استمرت المكالمة نحو الدقائق العشر، وحين أنهاها شعر أنه أفضل حالا، بالفعل ما زالت صافي تمتلك القدرة على بث السعادة في نفسه، لماذا لا يعلن زواجهما إذن؟ إنه السؤال الذي يطرحه على نفسه كل مرة يحدثها أو يقابلها فيها، هل هي زوجته حقا التي يمنعه خوفه من غضبها من الإقدام على أمر كهذا، لكن إلى متى؟
مد يده إلى علبة سجائره ليخرج لفافة تبغ جديدة، كانت العلبة فارغة، ألقاها بتكاسل بعد أن بعجها في سلة المهملات ثم فتح درج مكتبه ليخرج علبة جديدة. وفوق العلبة كانت هناك صورة غريبة،
رفعها في بطء نحو وجهه، وهو غير مصدق لما يراه. كانت الصورة تحمل وجه ابنته وبجوارها صافي وهي تحتضنها وتضحك الاثنتان في سعادة.
"مستحيل!".
رددها في خوف ممتزج بغضب حقيقي. فصافي لم تقابل ابنته ريم يوما، وبالطبع لا توجد صور مشتركة لهما، فمتى ألتقطت هذه الصورة التي لا يعلم عنها شيئا، ومن وضعها في درج مكتبه؟
هل هي تلك الشيطانة التي تطاردهم؟ وهل تعبث به أم أنها تهدده بمن يحب؟
كانت الإجابة مخيفة.

(13)

كان هذا اليوم طويلا للغاية، فرغم كل تلك الأحداث التي جرت به مازالت الشمس في الأفق والمساء لم يأت بعد. شعر الدكتور محمد شاهين بالجوع، تذكر أنه لم يتناول شيئا منذ إفطاره المميز، الذي لم يكمله في الصباح. فكر للحظة في تناول الغداء في مطعم ما، قبل أن يقرر

العودة لفيلته في المقطم، لابد أن طعامه قد أعدته وداد منذ ساعات كما اعتادت منذ عقود، في الماضي كان يحنقها أن تطبخ له، ثم تفاجأ به وقد تناول الطعام بالخارج. لكن السنون علمتها التعود، فصارت تقوم بواجبها كل يوم في إعداد طعامه، دون أن تكترث إن كان هو من سيتناوله، أم يتقاسمه عم إسماعيل البواب وحيدر الجنايني. اتجه بسيارته نحو المقطم على الفور وبعد ربع الساعة وصل إلى الفيلّا التي غرقت في ظلال دموية لشمس الغروب التي نجح بعضها في النفاذ من السحب المتراكمة منذ الأمس، بينما ظلت السماء تمطر بلا انقطاع.
أسرع عم إسماعيل البواب نحو البوابة الحديدية، ففتحها برشاقة لا تتناسب مع عمره المديد الذي يقترب من الثمانين عاما، ثم وقف على جانب الطريق خلف البوابة اليمنى في انتظار دخول السيارة ليغلق الباب ثانية، وقف الدكتور محمد شاهين بالسيارة بجواره وأنزل زجاج نافذته وقال ضاحكا:
-صرت واهنا أيها العجوز، وصار سمعك ثقيلا ولم تعد تفتح الباب بسرعة كالسابق، وربما كان على الاستماع إلى نصيحة الأصدقاء، فأقوم بتبديل تلك البوابة بأخرى إليكترونية حديثة تعمل بالريموت كنترول، وأوفر راتبك.
ضحك عم إسماعيل فبانت فجوات فمه الأهتم الخالي من الأسنان، وأجاب:
-وماذا لو تعطلت البوابة يا دكتور؟ ستبيت في الشارع حينها أو تضطر للقفز من فوق السور كاللصوص. لو كنت تفضل أي من هذا، فركب تلك البوابة السخيفة واطردني لأعود لبلدتي أموت فيها بين أبنائي وأهلي.
-لكن هل تعلم أيها العجوز، لو تعطلت البوابة كما تتمنى فسترحمني على الأقل من رؤية وداد ليوم كامل حينها.
انفجرت ضحكة إسماعيل وهتف هامسا:
-حذار أن تسمعك "الله لا يسيئك يا دكتور" قد تعتقد أنني من دفعتك

للسخرية منها، ولسانها طويل لا يرحم.
-لن تكون بمفردك وقتها، سيطولني لسانها أنا الآخر يا صديقي العجوز، وقد أشاركك النوم في حجرتك، والآن دعني أدخل وعد لحجرتك، ألا تشعر بالبرد في هذا الزمهرير؟
حين دلف إلى الفيلّا، كانت إضاءتها مشتعلة بالكامل، كما يحدث دوما حين تكون وداد بمفردها في الفيلّا، وكان يعرف سر هذا. إنها تخاف الوحدة والظلام وما قد تصنعه الظلال والخيالات. لذا تحرص على جعل الفيلّا غارقة في الضوء، طالما هو بالخارج. خرجت وداد من رواق جانبي فور دخوله فبادرها قائلا:
-مساء الخير يا وداد.
-مساء الخير يا دكتور. هل أعد لك الطعام أم أنك تناولته بالخارج؟
-وهل أقدر على تناول أي طعام لا تصنعه يدك؟!
-تفعل هذا طول الوقت يا دكتور، والآن أمهلني خمس دقائق فقط وسيكون الطعام جاهزا.
اختفت داخل الرواق الجانبي ثانية، فقام بإطفاء بعض المصابيح لخفض تلك الإضاءة الساطعة المثيرة للأعصاب، ثم اتجه إلى حجرة الطعام. وضعت وداد صحاف الأكل أمامه ثم جلست في المقعد المقابل له. راح يرشف الحساء وهو يقول:
-وماذا عنك. ألن تشاركيني الطعام؟
ابتسمت في تهكم وهي تجيب:
-لو نظرت في ساعتك يا دكتور لأدركت أنها تقترب من السادسة مساء، إننا نقترب من وقت العشاء وليس الغداء، وكما تعلم يجب أن أتناول وجباتي في أوقات محددة كي أتناول عقاقيري بعدها.
التقط قطعة من اللحم المشوي ووضعها في طبقه وراح يقطعها وهو يغمغم في تعب حقيقي.
-كان يوما مرهقا طويلا بحق يا وداد. يوم شنيع.
لم تعقب وداد وأدركت أنه حتما لم يكن في عيادته، فهو لا يتأخر فيها

مثل هذا الوقت. إنها قضية جديدة من قضاياه المرعبة التي تخيفها، فهناك إما لعنة أو شيطان ثائر أو سفاح لعين يطارده. هذا نوع القضايا التي يفتش عنها بحماس. القضايا التي تثير رعبها وقلقها كل مرة، وهي تنتظر أن تقتله إحدى تلك الأمور اللعينة يوما ما. لطالما راودتها الكوابيس التي تراهم فيها يحملون جثمانه وأشلاءه ليعودوا به للفيلّا ويضعونه أمامها ويسألونها أن تقوم بدفنه. كوابيس لم ينجح الزمن في الانتصار عليها حتى بعد كل تلك الأعوام الطويلة التي قامت بخدمته فيها.

كانت العلاقة بينهما معقدة، فوداد دخلت البيت قبل أكثر من أربعين عاما كمديرة للفيلا، تدير شئونها وتنظم عمل الخدم فيها، لكنها مع الوقت باتت تكتسب مكانا مميزا في المكان. أحبته وانتظرت طويلا أن يتزوج بها دون أن يفعل، عزاؤها الوحيد أنه لم يتزوج بغيرها فارتضت بهذا الوضع وإن كان يحنقها كثرة النساء اللاتي ظللن يلاحقنه كالذباب. الآن وبعد أن شارفت على منتصف العقد السادس من عمرها صارت علاقتهما كصديقين قديمين. صار من المعتاد أن يتناولا الطعام سويا وأن يتحدثا معا وإن كان أغلب حديثهما يكون شجارا.

صب محمد شاهين لنفسه كوبا من الماء حين سمعها تقول:

بالمناسبة، لا أدرى أين ذهب قطك منذ الصباح. بحثت عنه في كل مكان في الفيلّا والحديقة ولم أجده. ربما فعل الأمر الصائب الوحيد في النهاية وهرب، أو اختفى في مكان ما ليموت.

كانت تتحدث عن قطة (دو). قطه الذي مازالت وداد تؤمن أنه شيطان متخف في صورة قط. وزاد اعتقادها يقينا بعد أن امتد عمر القط كل تلك الأعوام دون أن يبدو عليه الهرم أو يموت كما تفعل باقي القطط. قط ملعون كما ظلت تعتقد. كانت تخشاه وتكره أن تجلس معه في مكان واحد رغم أن القط ظل طوال الوقت يحاول كسب ودها والتلطف إليها بالتمسح في أقدامها أو مداعبتها حين يراها. كان اختفاؤه هذا غريبا، هو يعلم أنه لن يهرب من الفيلّا، كما أن احتمال موته كان بعيدا.

شعر أن شهيته للطعام قد ذهبت تماما في تلك اللحظة، هل علم القط أو شعر برومية وشرها المحتمل. نهض دون أن يكمل غداءه واتجه إلى المكان الوحيد الذي قد يلجأ إليه القط ولن تدخله وداد. ببساطة لأنها لا تعلم عنه شيئا.

ذهب إلى حجرة مكتبه وأغلق بابه خلفه بالمفتاح، ثم اتجه إلى مكتبه الخشبي، ضغط زرا أسفله فتحرك الجدار خلفه وصنع مدخلا لممر ضيق لا يتجاوز عرضه المتر ونصف وينتهي بباب من النحاس يقود إلى حجرة أصغر. حجرة سرية لا يعلم أحد غيره بها، دلف من المدخل ثم ضغط زرا في الجدار على يمينه فعاد الجدار إلى مكانه. أضاء المكان ضوء أحمر مثير للرعب فور أن أغلق المدخل. وعلى الجدران ظهرت نقوش وتعاويذ ودوائر وأرقام وطلاسم وعزائم. بلغ الباب النحاسي المظلم ودفعه ثم دخل الغرفة المظلمة بعد أن أغلق الباب خلفه.

وقف للحظة في الظلام ثم هتف:

"السلام على أهل الأرض والسماء، من عمار المكان".

بدأت أضواء حمراء خافتة تنبعث من الجدران وهي ترسم حروف وأرقام ودوائر وخطوط متعرجة متوهجة، تشبه تلك الموجودة على الجدران الخارجية، وإن زادت عليها صور لرجال طوال ونساء بعيون بيضاوية ووجوه بلا أنوف. انتظر الدكتور محمد في مكانه حتى بلغ الضوء النجمة الخماسية الكبرى المرسومة على الأرضية والتي راحت حوافها والرموز والتعاويذ المرسومة حولها وداخلها في التوهج. لقد تقبلته حجرة الأسرار، ولن يقوم خدمها بإيذائه، كانت تلك الحجرة فريدة للغاية، ولا يوجد نظير لها في مصر إلا أسفل الهرم الأكبر في حجرة سرية لم يرها أحد قط، حجرة تحمي من يدخلها، من أي شر كان مهما كان جنسه، شيطانا كان أو جانا أو حتى بشريا. نظر محمد شاهين بتوتر إلى قلب النجمة الخماسية وهناك كان دو قابعا على قائمتيه الخلفيتين وهو يرمقه بعينين دمويتين في هدوء وكأنما كان ينتظره.

ارتجف جسده في خوف حقيقي، ثم راحت الرسوم البشرية في الجدار

والأرض في التحرك بسرعه وكأنما تغير مكانها ورنين حاد ينبعث من كل مكان حوله، غطى محمد شاهين أذنيه بكفيه، وأغمض عينيه في قوة وهو يهوي بقدميه على الأرض من شدة الألم في أذنه. ظلت الأصوات الحادة في التردد لبعض الوقت قبل أن تذهب بغتة، وحين فتح الدكتور محمد شاهين عينيه كانت الغرفة غارقة في الصمت. فقط كانت عينا القط مشتعلتان بضوء أحمر مخيف، ومن فم القط خرج صوت غليظ:

"ابحث عن صاحب الكتاب!".

وبين قدمي القط كان كتاب اللعنات موجودا. التقطه بكفه ثم نهض في إعياء وغادر الغرفة في وهن. وحين عاد لحجرة مكتبه ثانية ألقى بنفسه على كرسيه خلف المكتب وراح يلهث في إعياء لبضع دقائق، قبل أن يفتح أول درج في المكتب ويخرج منه مرآة دائرية صغيرة محاطة بإطار من الفضة، نظر إلى صورته فيها ثم زفر في ضيق. كانت التجاعيد تملأ وجهه في تلك اللحظة وقد غزا الشعر الأبيض رأسه. لقد زاد عمره عشرة أعوام مرة واحدة، وكان هذا هو الثمن. ثمن المساعدة التي منحته إياها حجرة الأسرار. لقد أعادت له كتاب اللعنات ثانية. جلس خلف مكتبه ورمق الكتاب الموضوع أمامه في رهبة. شعر بالنفور من ملمسه وأوراقه المهترئة المصنوعة من الجلد البشري المدبوغ، لكنه قاوم مثل هذا النفور، وببطء فتح الكتاب ليقرأ فيه مرة أخرى.

(14)

مضت ساعة كاملة قبل أن يدرك محمد شاهين أنه لا أمل، ظل الكتاب لغزاً يرفض البوح بأسراره وخفاياه كما حدث في الماضي، قبل أن يختفي الكتاب، راح يقلب الأوراق ويتأمل النصوص ويترجم الكلمات لكن النص النهائي دوما ظل غامضا. مجرد كلمات غير مترابطة تكون جملا غير مفهومة. لماذا لا يساعده كالمرة الأولى الذي قرأ فيها فصول كاملة في الكتاب تتحدث عن تاريخ الكيانات القديمة قبل أن يرشده الكتاب لكيفية القيام بطقس الثبات، الذي أنقذهم من شر رومية في المرة

الأولى.
عاد يتساءل هل كتب الكتاب باللاتينية حقا؟ أم أنها لغة أخرى منقرضة استخدمت نفس الحروف لكن معانيها مختلفة. أمر محتمل، فكم من لغة طواها الزمن في غياهب النسيان، وربما لم تكن اللاتينية لغة السحر الوحيدة في القرون الوسطى، لكنه عاد فهز رأسه مستبعدا ذلك الاحتمال. لقد قرأ فيه من قبل وكانت اللاتينية هي لغته.
رمق وجهه في المرآة الصغيرة ذات الإطار الفضي، وتذكر ثمن المعرفة في غرفة الأسرار. عشرة أعوام من عمره ذهبت مرة واحدة، وكانت المعلومة الوحيدة التي نطق بها "دو" قطه:
"ابحث عن صاحب الكتاب!".
لم تكن النصيحة أن يبحث في الكتاب، بل أن يبحث عن صاحبه. غمغم محمد شاهين في حيرة:
-ما الذي يعنيه هذا؟ ومن صاحب الكتاب المقصود. هل هو مؤلفه أم تراه البروفيسور ديمتري؟ حتى النصيحة غالية القيمة كانت غامضة.
شعر بثقل في رأسه ورغبة ملحة في النوم، أراد أن ينهض وأن يذهب إلى فراشه، لكن جسده لم يطاوعه، ومرة واحدة سقط رأسه على سطح مكتبه وقد غاب في نوم عميق. راحت صفحات الكتاب تقلب نفسها في سرعة غريبة قبل أن تستقر على صفحة معينة، ثم راحت الحروف فيها تعيد ترتيبها لتكتب كلمات مفهومة، لكن لسوء حظه كان نائما فلم ير أيا من هذا. مضت لحظات من الصمت ثم انبثق من قلب الكتاب خيط من دخان أزرق. راح الدخان يتشكل في بطء أمام الكتاب حتى صار في صورة راهب قديم ينتمي للقرون الوسطى، نظر الراهب حوله ببطء في المكان، وكأنما يدرسه ثم انتقل بصره إلى محمد شاهين النائم، فارتسمت على وجهه ابتسامة خفيفة قبل أن يتحرك نحوه، وقف بجواره ثم أحاط رأسه بكلتا كفيه فانتفض جسد محمد شاهين على الفور.
أدرك محمد شاهين أنه في حلم منذ اللحظة الأولى، كان يقف وسط

دخان أزرق غريب، حجب عن عينيه الرؤية قبل أن ينقشع جزء منه ليبرز راهب شاب، يتجه نحوه بخطوات وئيدة. ارتدى الراهب ثوبا من قطعة واحدة من الصوف الخشن المهترئ، وظهرت قدماه الحافيتان وقد غلفتهما طبقة كثيفة من الجلد الخشن الميت. بينما تناثر شعره الطويل حول رأسه فهبط حتى أعلى ظهره. شعر محمد شاهين أنه يعرفه، بينما مد الراهب يده نحوه وأمسك بذراعه وهو يقول:

- تقدم نحوي أيها البشري ولا تخف.

شعر محمد شاهين بالرهبة، من ملمس كف الراهب الباردة، والتي ذكرته بأيدي الجثث، حتى كاد أن يسحب ذراعه بعيدا، لكنه لم يقدر فاكتفى بالسؤال:

- من أنت؟

اتسعت ابتسامة الراهب وهو يجيب:

- هل نسيت بتلك السرعة؟ صديق قديم أنقذك يوما من شر عظيم. أنا صاحب الكتاب.

ثم أشار بذراعه الآخر نحو الأفق البعيد وهو يكمل:

- انظر لأعلى أيها البشري.

نظر محمد شاهين حيث يشير، كان الدخان ينقشع ليرى من بعيد ديرا قديما، يعلو برجه صليب طويل شاهق الارتفاع، وفي نهاية أطرافه كان هناك نفس الراهب اليوناني الذي يقف خلفه الآن، مصلوبا تأكل الطير من رأسه وتتغذى بعينيه. العجيب أنه رغم ما به التفت ناحية محمد شاهين وتحدث بصوت خافت، لكنه سمعه وهو يقول:

- مائة عام من هذا العذاب أيها الفاني. تأكل الطير من رأسي وجسدي حتى أصير هيكلا عظميا، وفي الصباح ينبت لي جسد آخر لتجد الطير ما تأكله ثانية. وكل هذا العذاب لأني عصيتها ورفضت منحها الكتاب.

كان الكهنة بالأسفل يمارسون طقوسهم اليومية دون أن يرفع أحدهم رأسه نحو الجسد المصلوب في السماء. ربما لأنهم تعودوا هذا المشهد فلم يعد يثير دهشتهم، وربما كانوا لا يرونه أصلا. وفي ركن بعيد قبع

قط أسود يعرفه محمد شاهين جيداً. إنه قطه "دو". كان القط يراقب الجسد المصلوب بلا ملل، وحين أحس بنظرات محمد شاهين التفت نحوه ثم أصدر مواء خافتا.

نظر محمد شاهين إلى جواره في رعب نحو الراهب الذي ما زال يقبض على كفيه، فهز الأخير رأسه بألم وقال:

- تعلم من يكون القط أيها البشري، وتعلم أين مكانه.

بالفعل كان محمد شاهين يعلم، ففي اليوم الذي أعطاه البروفسير" يوري بلاكوفيتش " هذا الكتاب في موسكو، فوجئ الدكتور محمد شاهين، بوجود قطه "دو" داخل حجرته التي استأجرها هناك. كانت المرة الأولى التي يراه فيها في حياته، وقتها كان الأمر غريبا وهو لا يعلم كيف دخل القط شقته الصغيرة ومن أين أتى، في الوقت نفسه كان من المستحيل أن يعيده ثانية للشارع، في طقس ثلجي انخفضت فيه حرارة الجو في موسكو لنحو 15 درجة تحت الصفر، أطلق عليه اسم دو، واعتنى به لبعض الوقت، وحين قرر العودة لمصر سلمه لدار لرعاية الحيوانات المنزلية. لكن الغريب أنه حين عاد إلى فيلته في مصر، كان القط هناك داخل الفيلّا بانتظاره، كان من المستحيل أن يخطئ معرفة القط وخاصة مع الطوق المعدني الأنيق الذي وضعه بيده في عنق القط قبل أيام. يومها أدرك أن القط لن يفارقه وأنه بلا شك قط غير أرضي، قبل أن يدرك بعدها أن القط مرتبط بكتاب اللعنات، وأنه يعيش حيث يوجد الكتاب.

ثم جذب الراهب ذراعه وأشار إلى ناحية أخرى من الدخان وقال:

-والآن لنرحل إلى مكان آخر.

التفت محمد شاهين حيث يشير، وكما المرة الأولى ذهب الدخان وظهرت صحراء مظلمة شاسعة الأرجاء، ومن بعيد رأي رجلا مسافرا يرتدي ثوبا عربي الطراز، وقد أناخ ناقته وجلس حول نار مشتعلة يستدفئ بها وجواره قبع القط في سكون، دقق محمد شاهين النظر فوجد أنه هو نفسه الراهب اليوناني، الذي يمسك بذراعه، لكنه يلبس

ثوبا عربي الطراز هذه المرة. راح الراهب حول النار يردد شعرا مقفى لكن الدكتور محمد شاهين لم يفهم حرفا واحدا رغم غرامه بالشعر العربي القديم. بدا وكأن الراهب يتحدث بلغة غامضة غير العربية. لحظات ثم ظهر من الظلام ثلاث خيالات ضخمة، اقتربت ببطء ثم بهدوء جلست حول النار، ناول الراهب كل واحد منهم إناء صغيرا صب به سائل ما من دورق يموج ما به في قلب النار. على ضوء النار لمح محمد شاهين وجوهم، لم يكن أيهم من البشر، واحد منهم بعين واحدة وواحد بوجه ضخم وفم يتسع حين يفتحه، يتسع من الأذن للأذن والثالث حين رفع يده انحسر الرداء عن ذراعه فبان أنه هيكل عظمي.

همس محمد شاهين:

- من هذا، ومن هؤلاء.

- في هذا الزمن كنت أدعى بـ"عبد الله الحظرد". أما هؤلاء فهم من هوام الصحراء والليل.

وبدهشة رمقه محمد شاهين قبل أن يهتف:

- أنت عبد الله الحظرد.

لكن الراهب أشار نحو القوم وقال:

- اصمت أيها البشري وراقب.

في تلك اللحظة وفي صوت غليظ راح الأربعة حول النار يترنمون بأنشودة غريبة الوقع في صوت واحد متجانس. اقشعر بدن محمد شاهين من وقع الترنيمة في نفسه، ومن قلب الرمال هبت عاصفة صغيرة للحظة فتقوس ظهر القط خوفا وانتصب شعره، بينما هب الراهب وهو يلتقط شيئا غامضا من جرابه ويلقيه في قلب النار فتوهجت. ظهر من قلب الصحراء المعتمة كيان ضخم أشد ظلمة من الظلام نفسه، راحت الأرض تهتز أسفل قدميه وهو يتحرك صوب الكاهن وضيوفه، وعلى ضوء اللهب شاهد الجسد الضخم الذي يشبه جبارا ضخما له عشرات الأذرع الضخمة التي تمتلئ بممصات مميتة، اندفع نحوه الكاهن بسيفه وبتر ذراعا منه، لكن ذراعا آخر ضرب جسد

الكاهن فأطاح به بعيدا، تراجع الضيوف الثلاثة في خوف حتى ابتلعهم الظلام، بينما عاد الكاهن للقتال مرة أخرى، بتر ذراعا آخر من جسد الكيان المظلم فزأر في غضب، ثم حاول النيل منه ثانية، طالت المعركة قبل أن ينجح الكيان في القبض على الكاهن بخمسة من أذرعه ويقيده إلى الأرض قبل أن يمزق جسده إلى نصفين، ويلقي بكل نصف في ناحية وهو يزأر انتصاراً، اختفى القط واختفى الكيان بينما ظهر من الظلام جسد أنثوي سرعان ما بانت ملامحه الفاتنة، كانت رومية. ومن خلفها برز قطيع من الذئاب الضخمة بعيون مشتعلة باللهب. أشارت إلى الجسد المقطوع فاندفعت الذئاب على الفور نحو جثمان عبد الله الحظرد، وراحت تمزق اللحم عنه في وحشية جمة، الغريب أن الجثمان كان حيا وراح يصدر صرخات مريعة، ثم التفتت رومية نحو المكان الذي به الكاهن ومحمد شاهين واتسعت ابتسامتها ورفعت أحد حاجبيها في ظفر، فهتف الكاهن وهو يدفع جسد محمد شاهين نحو الدخان ثانية من خلفه:

- لقد رأتك، لنرحل الآن.

ومرة واحدة وجد محمد شاهين أنه قد عاد لحجرة مكتبه ثانية بينما القط يقبع فوق المكتب في مواجهة وجهه وهو يرمقه بعيون دموية مخيفة. نظر حوله في رعب ثم اطمأن إلى أن رومية أو ذئابها أو الكاهن ليسوا هنا، فزفر في ارتياح ثم تحرك ليغادر الغرفة، لم يلحظ الدخان الذي عاد للكتاب ثانية قبل أن يغلق الكتاب صفحاته، وخارج المكتب وجد وداد في مواجهته، تأملته للحظة في حيرة قبل أن تضرب صدرها بكفها وتصرخ:

-يا إلهي! ما الذي أصابك. هل أصابتك الشيخوخة فجأة.

(15)

لم يكن مبنى أرشيف الداخلية من المعالم المشهورة للعامة، كان مجرد مبنى مكون من خمسة طوابق، مخصص بأكمله لحفظ ملفات القضايا

التي واجهت رجال الشرطة طوال عقود كثيرة. المبني سري إلى حد ما، وببساطة يمكنك أن تمر من أمامه دون أن تدرك حقيقته. استوقف الملازم شريف عبد السلام، عسكري شاب طويل، هزيل الجسد يميل لونه للسمار، وقال بحزم هو يسد بجسده مدخل المبنى:

- ممنوع الدخول يا أستاذ.

- الملازم أول شريف عبد السلام. مباحث.

لم يتزحزح العسكري من مكانه، وقال في لهجة من اعتاد رؤية الرتب المختلفة والمهمة في الوزارة:

- هل يمكنني رؤية هويتك يا فندم.

أخرج شريف محفظته من جيب بنطلونه الخلفي وفتحها حيث ظهرت بطاقة التعريف الخاصة به، ورفعها أمام العسكري من بعيد، قرأ العسكري البيانات بسرعة فتحرك من مكانه، وأشار إلى ملف ورقي موضوع على منضدة خشبية بجوار الباب، قائلا:

- من فضلك دون اسمك في الدفتر يا فندم، وسبب الزيارة.

فعل شريف ما طلبه جندي الحراسة، ثم التفت إليه ثانية وقال:

- من المسئول عن المكان؟

- النقيب ثروت، ستجده في مكتبه آخر هذا الرواق، إلى اليمين.

دلف فؤاد إلى المكان البارد الكئيب الذي لا يختلف في أي شيء عن أي مصلحة حكومية أخرى. طرقات من بلاط متكسر وجدران مطلية بطلاء باهت مقشر في أكثره، وسقف منخفض تنبعث منه أضواء شاحبة، ورائحة عطنة تنبعث منه في إسراف. انتهى الرواق فاتخذ الطريق الأيمن ليجد في نهايته حجرة مفتوحة، طرق بابها المفتوح ثم دخل. كان هناك مكتب من الألمونيوم غارق أسفل الكثير من الملفات الورقية وخلفه جلس ضابط عجوز تجاوز الخمسين من عمره منذ سنوات، بدين ذو كرش ضخم للغاية، ورأس أصلع لامع لا يعكر نعومته غير خصلات قليلة من الشعر الأبيض الخشن المنكوش على جانبيه. بدا جسده الضخم والمكتب الصغير أمامه متنافرين بشدة. عرفه

شريف بنفسه فأشار له بالجلوس وقال:
-كيف يمكنني أن أخدمك؟
-أبحث عن ملف لأحد الجرائم لكنه قديم بعض الشيء.
لم يبد على وجه ثروت أي انفعال وسأله في بساطة:
-هل تعلم رقم الملف أو حتى في أي عام حدثت القضية.
-في الواقع لا أعلم رقم الملف، لكن القضية هي قضية قتل حدثت في أوائل السبعينيات.
ابتسم ثروت فضاقت عيناه الصغيرتان أكثر وأكثر وهو يقول:
-لن يكون الأمر سهلا، لكنه ليس مستحيلا بالطبع، وسيحتاج لبعض الوقت والجهد، الجرائم المحفوظة هنا في كل عام عددها غير قليل كما تعلم.
ثم نهض من مكتبه فتدحرج كرشه الضخم أمامه وقال وهو يتحرك:
-من فضلك اتبعني.
تبعه شريف للخارج، وسمع ثروت يقول:
-المشكلة أنه لا توجد نسخ رقمية حتى الآن لأغلب القضايا في هذا المكان، إنني أعمل هنا منذ أكثر من ثلاثين عاما، مذ كنت مجرد أمين شرطة. وفي كل يوم تتراكم ملفات القضايا أكثر وأكثر، وحين نكلم المسئولين من أجل أرشفة كل تلك القضايا في نسخ رقمية حديثة يخبروننا أن هناك مشروع بالفعل يتم إعداده من أجل هذا الأمر، لكن السنوات تمضي والمشروع لا يبدو أنه سيتحقق.
لم يعقب شريف على ثرثرته، كانا قد بلغا درج ضيقا يقود للطوابق العليا. وقال ثروت ثانية.
-معذرة أيها الملازم، لكن لا يوجد مصعد هنا، ووجهتنا هي الطابق الثالث.
-لا بأس، لا مشكلة في استخدام الدرج.
قالها شريف وهو يتبع خطواته البطيئة وهو يصعد الدرج ومع بداية الدور الثاني بدأ ثروت في اللهاث، وحين بلغا الطابق الثالث لاحظ شريف

كيف شحب وجه ثروت، وكيف صار صدره يصدر صفيرا غليظا. شعر شريف بالإشفاق عليه، تهاوى ثروت فوق طاولة خشبية مغبرة موضوعة أعلى الدرج. وراح يتنفس بسرعة للحظات، قبل أن يخرج منديلا قماشيا ويمسح به العرق من فوق جبهته وصلعته ويقول:

- هنا كل القضايا التي حدثت في سبعينيات القرن الماضي، للأسف لم يتم ترتيب القضايا بترتيب الأعوام التي حدثت فيها، لقد تم تخزينها بصورة عشوائية تمام.

ثم تنهد للحظة وهو يلتقط بعض أنفاسه وأكمل:

- أخبرتك أن الأمر ليس سهلا.

- لا تشغل بالك بالأمر يا حضرة النقيب. أعتذر لو كنت قد أرهقتك.

نهض ثروت ثانية وقال وهو يستعد لهبوط السلالم مرة أخرى:

- لو احتجت شيئا تعرف أين تجدني، وسوف أرسل لك فرج العسكري بكوب من الشاي وزجاجة مياه، فقط أرجو أن تعيد كل شيء كما كان بعد أن تنتهي من بحثك، حظا طيبا.

تابعه شريف للحظات وهو يهبط ببطء ثم التفت إلى الكم الهائل من الملفات المصفوفة في رفوف خشبية تمتد في صفوف كثيرة بطول الطابق كله. أكثر من عشرة آلاف ملف عليه أن يبحث بينها عن قضية لا يعلم عنها أي شيء، سوى أنها حدثت في بداية السبعينيات وأن مكانها هو كلية طب جامعة عين شمس أو الدمرداش. تحرك إلى أقرب رف خشبي وسحب الملف الأول، كانت القضية في مجلد مغمور بالغبار، لونه رمادي وغلافه من الورق المقوى متآكل الأطراف. وبالخارج كان مكتوبا عليه "سرقات". فتحه وابتسم ساخرا وهو يفكر في كم الوقت الذي سيقضيه في بحث سقيم، قبل أن يجد الملف المطلوب، ثم راح في إصرار يبحث في الملفات.

مضت الساعات بسرعة دون أن يشعر بها، وانهمك بشدة في البحث في كل الملفات، من حين لآخر كان يتعثر في قضايا مثيرة بين أوراق الملفات فيطالع تفاصيلها في نهم، قرأ عن قضية النادل الذي وجدوه وزوجته

مذبوحين على فراشهما بينما طفلهما الرضيع بجوارهما يصرخ جوعا. قضية غامضة وخاصة أنه لا يوجد أي آثار عنف في المكان. قبل أن يتضح في النهاية أن مرتكبيها تجار مخدرات كان النادل يعمل معهم لم سرق منهم بعض المخدرات، وباعها لنفسه فانتقموا منه.

وفي ملف آخر كانت هناك قضية سفاح بني مزار، الذي كان واحدا من أعتى المجرمين والسفاحين في تاريخ مصر. كان قد أتهم في قتل نحو 52 من الرجال والنساء، وكان من ضحاياه بعض رجال الداخلية، كما اتهم باغتصاب عشرات الفتيات. كان يدعى عيد بكر عبد الرحيم دياب، بدأ حياته كمجرم صغير متخصص في سرقة البهائم والماشية، قبل أن ينضم إلى المطاريد، لتتفجر مواهبه الإجرامية. في البداية قتل شقيقين وألقى بجثتيهما في الترعة، بعدها حاول أحد أصدقائه التودد إلى زوجته فما كان منه إلا أن قام بقتله بمساعدة الزوجة ومزق جسده لأجزاء وألقاها أمام بيته، فكرت عائلة القتيل حينها في البحث عن ثأر ابنهم، فعرض عيد عليهم الصلح واتفق معهم على أن تكون جلسة الصلح في بيوتهم بعد صلاة الجمعة التالية. تقول التقارير الأمنية أنهم كانوا ينتظرونه ليقتلوه، ولهذا جهزوا الكثير من أسلحتهم في بيوتهم، ويبدو أنه كان يعلم هذا، فحضر في الموعد المحدد مع رجاله وانتظرهم أمام المسجد الذي كانوا يؤدون فيه صلاة الجمعة، ثم أمطرهم بنيران أسلحته فقتل منهم 25 رجلا في مذبحة لم يسمع عنها القطر المصري من قبل.

واصل بعدها أعماله الإجرامية دون أن تنجح الشرطة في الوصول إليه، وقتل أكثر من رجل شرطة بعدها، وكانت آخر جرائمه حين رفض رجال إحدى العائلات دفع الإتاوة التي يفرضها عليهم، وأعلنوا العصيان عليه، فما كان منه إلا أن توجه إليهم مع رجاله حيث يجتمعون، ومن فوق كوبري راح يطلق عليهم النيران. فقتل منهم سبعة وأصاب نحو تسعة آخرين. بعدها بأسبوع عاد لنفس المكان بعد أن علم أن أهالي القتلى يعدون العدة للهجوم عليه في قلب الجبل فعاد إلى نفس الكوبري ليقتل

من بقي منهم، ليجد أن الشرطة هذه المرة هي من في انتظاره. كانت خدعة جيدة نجح رجال الشرطة في تنفيذها لدفعه للظهور علنا، ورغم أنه حاول الهرب إلا أن طلقات الشرطة لم ترحمه ليموت بنحو ثلاث وثلاثين طلقة رصاص أصابت جسده، وتنتهي أسطورته للأبد. تحدث الملف كذلك عن قسوته وكيف قتل أحد ضحاياه واستخرج كبده بيده، ثم قدمه لابنه الصغير ليتناوله نيئا، لينزع الخوف من نفسه وتنمو شراسته أكثر. نظر إلى الصور المرفقة بالملف التي تظهر السفاح بعد قتله فوق الكوبري وصوره مع بعض رجاله وبعد صور المذابح التي قام بها، فزفر في ارتياح أن مثل هؤلاء المجرمين لم يعودوا موجودين كثيرا كالسابق.

انتهى من الملف فأعاده لمكانه، وخلع سترته بعد أن شعر ببعض الحر في المكان وواصل البحث في رف خشبي جديد. مضت ساعة أخرى قبل أن يظفر في النهاية بجائزته. وجد الملف في النهاية. كان مثل غيره داخل غلاف سميك من الورق المقوى الرمادي، وقد كتب في الخارج "جرائم قتل الدمرداش" وبالداخل راح يطالع التفاصيل. كان اسم الضابط الذي قام بالتحقيق مميزا ويعرفه جيدا. ببساطة لأنه أحد أقوى رجال الداخلية السابقين. كما كان اسم وكيل النيابة الذي قام بالتحقيق معروفا هو الآخر وقد كان نائبا للنائب العام. طالع الأحداث الغامضة التي تمت حينها في مشرحة كلية الطب، ورأى بعض صور الضحايا، مثل صورة طالبة تدعى أسماء ومعيد شاب، وعامل يدعى عبد الدايم. ثم نظر إلى صورة أخيرة، مكتوب أسفلها. صورة الجثة الغامضة. نظر إلى الصورة في دهشة، كانت تصور منضدة تشريح في المشرحة ولا يوجد أي جثث فوقها، من التقط هذه الصورة الخالية من أي تفاصيل، وأين هي الجثة التي يتحدثون عنها؟

"إنها خلفك الآن!".

أتاه الجواب من خلف ظهره وقد كان منهمكا في مطالعة الصورة حين سمع هذا الصوت الأنثوي الرقيق. انتفض في فزع وأفلت الملف من

يده فسقط على الأرض وقد تبعثرت أوراقه، التفت بسرعة ليطالعه أجمل وجه يمكن أن يراه لفتاة في حياته كلها، كانت الفتاة تبتسم له في عذوبة وهي ترمقه في بعض السخرية، تراجع للخلف وقال في صوت مرتجف:

-من أنتِ وكيف دخلتِ إلى هنا؟

أشارت للصورة الملقاة أسفل قدمه فارتفعت الصورة نحو يديها وكأن يدا خفية رفعتها وأجابت:

-أنا صاحبة الصورة. رومية كما تدعونني الآن.

ومن بين يديها رمق في رعب حقيقي الصورة التي رفعتها نحو عينيه ليرى أن هناك جثة مغطاة بملاءة فوق منضدة التشريح. هذا كالسحر، لقد كانت الصورة بين أصابعه منذ لحظات ولم تكن هناك أي جثث بها، فمتى عادت الجثة للصورة ثانية. وسمعها تقول وكأنما تقرأ أفكاره:

-يبدو أننا في نفس المكان بحثا عن نفس الصورة، في الواقع أنا لا أحب التصوير ولا أتسامح أبدا مع من قد يلتقط صورة لي رغما عني ولهذا أنا هنا لأستردها.

كان يشعر بالرعب، ولأنه لا يعلم ما عليه أن يفعله، فقد أخرج مسدسه وصوبه نحوها وقال وهو يحاول أن يبدو حازما وأن يتمالك نفسه:

-ضعي الصورة أرضا ولا تتحركي.

-وماذا لو لم أفعل، هل ستطلق رصاصتك نحوي، ولم لا. هيا افعلها.

لم يكن يرغب في الواقع في إطلاق الرصاص، لكنه وجد أصابعه رغما عنه تجذب الزناد لتنطلق الرصاصات خلف بعضها نحو رومية حتى أصدر المسدس فرقعة تعلن فراغ خزينته من الرصاص، الغريب أن الرصاصات كانت تتجه نحوها وقبل أن تصل لجسدها كانت تنحرف بغتة لتدور من حول جسدها. رمقها في رعب حقيقي وقد راحت ساقاه ترتعشان في رعب، ثم أولته ظهرها لتغادر المكان وهي تقول:

-تمنيت لو أنهيت محادثتنا الصغيرة بكلمة "إلى اللقاء"، لكنك لسوء طالعك لن تلقى أحدا بعد الآن.

ومن آخر الطابق ظهرت من العدم كرة ضخمة من اللهب. التهمت الأرفف الخشبية واندفعت في سرعة نحو رومية وشريف، ابتلعت رومية في البداية وبعد لحظة بلغت جسد شريف الذي تجمد في مكانه في رعب، وكان آخر ما قاله هو:

"مستحيل".

ثم ابتلعه اللهب.

(16)

كانت لفافة التبغ في يده هي الثلاثين أو الأربعين في هذه الليلة، مذ دخل حجرة مكتبه في المساء، كان قد أغلق بابها خلفه بإحكام، في الواقع لم يحص عدد السجائر التي دخنها، ولم يفكر في هذا. فما يهمه أن هناك خرطوشة كاملة متوافرة داخل درج مكتبه وليس بحاجة لجلب المزيد من أكشاك السجائر أسفل منزله. هشم فؤاد ما تبقى من سيجارته المشتعلة في مطفأة السجائر، ومد يده ليشعل أخرى جديدة. تذكر في تلك اللحظة أمه الراحلة، وكيف كانت تكره التدخين الذي قتل والده، ومن تسبب في إصابته بجلطة في شرايين القلب لم ينج منها، كانت دوما تثور عليه حين تراه وهو يدخن، تختطف السيجارة من فمه، وتلقيها أسفل حذائها وهي تدهسها في غل، ثم تخرج علب السجائر من جيوبه وتمزقها تماما قبل أن تلقيها في سلة القمامة، وهي تدعو أن يشفيه الله من هذا الداء القاتل. كم من مرة جاءته بالمصحف ليقسم به أنه لن يقربها ثانية فلم يستطع إجابة رجاءها، كم من مرة تظاهرت بالغضب عليه وقاطعته ليكف عن التدخين، لكنه كان دوما يسترضيها، دون أن يمنحها وعدا لن يقدر على تنفيذه، بالكف عن التدخين. إنه مدخن شره للغاية، مدخنة بشرية لها قدمان ورأس وأنف وأذن وفم. لو كانت هناك مسابقة في التدخين لربحها بلا شك، لو أن هناك مرشح للموت بسبب أمراض التدخين كالربو والسرطان والجلطات أو حتى السكتات الدماغية فلا شك أنه سيكون في مقدمة الصفوف.

يراه الجميع ينتحر بالتدخين وهو الوحيد الذي يرى أن الموت ليس
بحاجة لأمراض التدخين ليظفر به، طلقة طائشة من مسدس
لعين قد تأتي بالموت في لحظة، سيارة مندفعة بتهور في الشارع
تجلب ملائكة الموت جميعا في الحال. كان من الممكن أن يكون
الآن في قلب نجع مخيف في الصعيد بيد المطاريد المجرمين هناك
بفعل تلك اللعنة المخيفة التي أهلكت الكثير في النجع، لكنه حي
هذا. إذن لماذا عليه أن يخشى موتا بعيد، والموت القريب يواجهه
حين. الموت بالتدخين بحاجة لأعوام طويلة ليأتي، لكنه لا يضمن
للحظة واحدة أنه سيكون حيا حتى تلك الأعوام، فلماذا يعبأ بأضرار
السجائر اللعينة أو يحمل هما لها.
نفض عن عقله التفكير في أضرار التدخين وعاد للموضوع الذي
هذه الليلة، تلك الشيطانة الملعونة التي وجد نفسه مكلفا بمطاردتها
فإذا هي من يطارده ويسبب الرعب له. لقد تحدته حين ظهرت له
وللدكتور محمد شاهين في الكافيه قبل أن تتبخر في الهواء كالسحر
رأى قوتها في المشرحة وفي منزل القتيل. كما أن هناك أربعة من رجال
الشرطة قتلى بسببها وليس لديه ما يقوله لذويهم حين يذهب لعزائهم
قبل اليوم اعتاد حين يقدم العزاء لأهالي أي أحد من رجاله، قتل
بسبب أحد المجرمين، أن يعدهم بالانتقام من قاتليهم، وكان يحرص
دوما على أن يفي بوعده هذا فيلاحق هذا المجرم القاتل حتى يقبض
عليه أو يقتله لو كان الإمساك به مستحيلا. لكنه غير واثق هذه المرة
من قدرته على إخراج مثل هذا الوعد، لأنه ببساطة غير متأكد من قدرته
على ملاحقة تلك الشيطانة، إنها معركة خاسرة. حرب لا نتيجة لها إلا
هزيمته المؤكدة. هو نفسه قد يكون الضحية التالية لتلك الملعونة،
ألم ترسل له رسالة تهديد خفيفة، ألم يجد صور عجيبة على مكتبه في
العمل لابنته بين أحضان صافي، وليس بين أحضان أمها "هايا"، إنها
تخبره بأنها تعلم أسراره، حين أظهرت له ذلك جاءت بصورة صافي،
وحين وضعت معها صورة ابنته ريم، فهي حتما ترسل إليه رسالة خفية

إني أعلم من تحبهم، ويمكنني الوصول إليهم. هب من مقعده في غضب وعجز وهمس من بين أسنانه:

-اللعنة. لماذا لا تقتلني أنا بدلا من تهديدي بهؤلاء الأبرياء.

غمر الدخان الغرفة كطبقات كثيفة من الضباب، لم يلحظ هذا لأنه اعتاد هذا الأمر. ثم سمع الطرقات الرقيقة على باب المكتب، فعرف على الفور صاحبتها، كانت ريم ابنته. ثم فتحت ريم الباب ودخلت عليه وهي ترتدي ملابس نومها. نظرت إلى المكان الغارق في سحب الدخان الكثيفة، في حيرة ثم سعلت.

هتف في دهشة:

-ريم. لماذا غادرت الفراش؟ اعتقدت أنك نائمة.

كان غريبا أن تدخل عليه في هذه الحجرة، وهو الذي اعتاد على إغلاقها بالمفتاح في كل مرة يدخلها ليدخن، كان هذا شرط زوجته "هايا" لتسمح له بالتدخين في البيت. في وقت آخر لم يكن ليسمح لها بأن تملي عليه مثل هذا الشرط، لكنه لم يعترض على هذا القرار، لأن هذا كان من أجل ريم. بالفعل ليس من الصواب أن تعلم الطفلة أن أباها مدخن شره. لهذا كان من النادر أن تذهب إليه ابنته وهو في حجرة مكتبه، وحين فتحت بابها ببساطة كان هذا أكثر غرابة، هل نسي إغلاق بابها بالمفتاح؟ لم يعد متأكدا من شيء.

التقطها في أحضانه، وقد أطفأ سيجارته التي أشعلها للتو في المدفأة، وسمعها تقول:

-هل تدخن يا "بابي"؟

أخرج من جيبه قطعة من حلوى النعناع ليداري بها رائحة التبغ في فمه، وقال مبتسما في توتر وهو يمتصها في سرعة:

-إنها عادة سيئة يمارسها "بابي"، وسيقلع عنها قريبا من أجلك يا حلوتي.

جلست ريم على قدمه وهي ترمقه بابتسامة عذبة وقالت:

-ولماذا تقلع عنها طالما أنك تحبها. أنا لا تضايقني السجائر.

-لكنها تسبب المرض، يا حلوتي.

تسللت إلى أنفه رائحة عطرية مثيرة وغامضة، تشممها فؤاد في دهشة وقال لها:
-هل وضعت لك ماما العطر على ملابسك قبل نومك.
-لا. إنها رائحتي أنا.
قالتها ثم هبطت من فوق قدمه وتحركت نحو المكتب وفتحت درجه العلوي وأخرجت منه علبة السجائر والقداحة وكأنما تعلم مكانهما بالفعل وقالت:
-هل تسمح لي بسيجارة؟
صدمته كلمتها فاتسعت عيناه في ذهول ثم أراد أن يهب من مكانه ويأخذ علبة التبغ من يدها بالقوة، لكنه لم يفعل. بدا وكأنه أصابه شلل كامل غير مفهوم. وضعت ريم السيجارة بين شفتيها في مهارة ثم أشعلتها بنار القداحة في براعة، وجذبت منها نفسا عميقا، ثم زفرته لأعلى مطلقة سحابة صغيرة من الدخان الرمادي وهي تقول:
-إنها رائعة يا "بابي".
وقبل أن يفيق من صدمة كلماتها سمع طرقا رقيقا مرة أخرى على الباب المفتوح ثم ظهرت من خلفه، ابنته ريم وهي في ملابس نومها وقد وقفت أمام الباب ترمق الدخان المنبعث منها في دهشة وحيرة قبل أن تقول:
-هل تدخن يا بابي؟
نقل بصره في حيرة بين ريم التي تقف أمام الباب والأخرى التي تقف بجوار المكتب تدخن. في الواقع شعر بالرعب ثم قال للصغيرة التي تدخن:
-من أنت؟
لكن ريم التي تقف أمام الباب هي من أجابته وهي تقول في خوف:
-بابي، إلى من تتحدث. أنا أشعر بالخوف.

أيقن في تلك اللحظة الحقيقة فهب من مكانه في فزع وقد ذهب عنه الخدر العجيب الذي كان يشعر به منذ لحظات. واندفع نحو الباب وهو يقول لابنته الحقيقية:

لا أحد يا حبيبتي. دعينا نذهب سويا إلى الفراش.

قالها وهو يدفعها في شيء من الخشونة ويده الأخرى تغلق باب مكتبه على ريم الأخرى التي تدخن في استمتاع. اندفع نحو حجرة ابنته وقلبه يقرع صدره في تخبط. وسمع ريم تقول باكية:

بابي، ذراعي يؤلمني، لماذا تجذبني هكذا.

تنبه إلى أنه يمسك ذراعها في غلظة فرفعها لتسكن أحضانه ودخل غرفتها وهو يقول:

آسف يا ريم، بابي متوتر قليلا.

ثم أرقدها الفراش، ووضع فوقها الغطاء ثم رقد إلى جوارها. فقالت وهي تحتضنه بكفها الصغيرة:

لماذا تلهث هكذا يا بابي، أنا خائفة.

حاول أن ينظم أنفاسه وهو يحتضنها، وهمس في أذنها:

لا تخافي وأنا بجانبك يا حبيبتي، لا أحد يقدر على المساس بك وأنا موجود.

وبينما أسبلت الصغيرة عينيها كان يفكر برعب في ريم الأخرى التي تركها في المكتب تدخن، إنها تلك الملعونة بلا شك. وها هي تخبره بصورة عملية أنها وصلت إليه، بل وتجسدت في صورة ابنته. كانت تؤكد له بصورة عملية أنه صار مع أسرته في خطر الآن، وكان هذا يستدعي تصرفا سريعا. هب من فوق الفراش بسرعة وهو يقول لابنته:

انهضي يا حبيبتي.

رفعها من فوق الفراش واتجه إلى حجرته حيث تنام زوجته، دخلها وهتف فيها:

هايا .. استيقظي من فضلك.

فتحت زوجته عينيها في خمول ودهشة وقالت:

-فؤاد. ماذا هناك ولماذا تحمل ريم؟
-هيا استعدي، سنذهب إلى بيت أبيك الآن، ستمكثين هناك مع ريم
لبعض الوقت:
-ماذا؟
قالتها في غير فهم، فصاح فيها في حزم وهو يخرج ثوبا لها من قلب
الخزانة:
-هيا يا "هايا" من فضلك. لا وقت للحديث. هيا ارتدي هذا الثوب ولا
تضيعي الوقت.
لكنها قالت في عناد:
-لن أرتدي شيئا قبل أن أفهم.
لم يكن هذا هو الوقت المناسب للشجار لذا قال لها:
-أرجوك يا "هايا" ارتدي ملابسك، وسأشرح لك كل شيء في السيارة،
فقط افعلي هذا بسرعة.
كانت ريم ترمقهما في خوف وحيرة قبل أن تنفجر في البكاء وتندفع نحو
أمها وهي تصرخ:
-مامي، أنا خائفة.
احتضنتها أمها للحظة ثم جذب فؤاد الفتاة واحتضنها وهو يهمس:
-كلا .. لا تخافي يا حلوتي، أنا هنا.
نهضت هايا في استسلام، وبدأت في ارتداء ملابسها وقد آثرت ألا تجادل
أكثر من هذا، كي لا تثير فزع ابنتها، فوضع فؤاد ريم على الفراش وهو
يقول لها:
-لحظة واحدة يا حلوتي، فقط سأحضر مفتاح السيارة من حجرة مكتبي
وسأعود حالا.
خرج من الحجرة في توتر واتجه وقلبه يرتجف نحو حجرة المكتب. هل
ما تزال تلك الشيطانة هناك، وماذا ستفعل معه لو واجهها، هل
ستقتله، في تلك اللحظة كان مستعدا للموت بشرط أن تبتعد عن ابنته
ولا تؤذيها، وجد نفسه يردد في سره ما تذكره من آيات القران الكريم،

بلغ الباب وببطء فتحه ثم دفعه مرة واحدة، كان الدخان ما يزال كثيفا، لكن الحجرة لم يكن بها أحد، تحرك في حذر نحو المكتب، وعينيه تدور في المكان بلا توقف في ترقب. رأى السيجارة التي كانت رومية تمسكها فوق مطفأة السجائر ومازال الدخان ينبعث منها، بينما ظلت رائحة العطر الذي كان ينبعث منها عالقة في المكان. إذا كانت موجودة بالفعل هنا ولم يكن يهذي أو يحلم.

التقط سلسلة المفاتيح خاصته واندفع إلى الخارج. كانت زوجته تحتضن الفتاة التي تبكي في انتظاره وقد فرغت من ملابسها فاندفع نحو باب الشقة وهو يقول:

- هيا بنا

(17)

كانت ليلة سخيفة طويلة، قضاها فؤاد بأكملها مستيقظا، بجوار فراش ابنته ريم في فيلّا حماه، بالطبع كان المستحيل أن يخبر زوجته بالحقيقة، ببساطة لأنها لن تصدقه بل وربما سخرت منه. لذا أخبرها أنه يطارد سفاحا خطيرا وأنه قد شاهد هذا السفاح بالأمس يحوم حول المنزل في الظلام، وهو يريد أن يقوم بواجبه في مطاردته دون أن يشعر بالقلق عليها أو على ابنته ريم، ولهذا يفضل أن ينتقلا بعض الوقت لفيلّا أبيها اللواء رشدي عبد القادر مساعد وزير الداخلية. لكن الشيء الذي لم ينجح في تفسيره هو طلبه الغريب أن تمكث إحدى خادمات الفيلّا مع ريم طوال الوقت حتى في وقت النوم وأن تبيت معها في نفس الغرفة.

لم يتسلل النوم لحظة إلى عينيه، ومع خيوط الفجر الأولى شعر ببعض الاطمئنان فغادر فيلا حماه في سيارته واتجه إلى مكتبه. بدا في أسوأ حال ممكن وهو يدخل قسم الشرطة، كان الوقت مبكرا للغاية والساعة لم تتخط السادسة صباحا بعد لكنه لاحظ أن هناك وجوم غريب على الوجوه وحركة غير عادية بالمكان، وقبل أن يسأل أحد الرجال عما هناك

وجد نفسه أمام هشام محمود، أحد أمناء الشرطة العاملين في القسم، والذي بادره فور أن رآه وهو يرفع يده بالتحية:
-صباح الفل يا فؤاد باشا، تخيلت أن تتجه مباشرة إلى مبنى محفوظات الوزارة. أم أنك قادم من هناك؟
واصل فؤاد تحركه نحو مكتبه وهو يغمغم:
-ولماذا أفعل؟
رمقه هشام في وجوم للحظة قبل أن يقول:
-إذن فأنت لا تعرف.
شعر فؤاد أن عقله عاجز عن التفكير أو التركيز بفعل التوتر وعدم النوم فقال في حدة وهو يتوقف ويستدير نحوه:
-أعرف ماذا؟ تحدث مباشرة يا هشام وأخبرني ماذا حدث.
-شريف بيه. تعيش انت يا باشا.
طار الإرهاق كله من عقله في لحظة وهو يهتف في غير تصديق:
-شريف ماذا .. مات .. ماذا تقول يا رجل؟
-حدث انفجار في مبنى محفوظات الوزارة ويبدو أنه كان بالداخل وقتها.
-ومتى حدث هذا؟
-في وقت متأخر ليلة أمس.
-ولماذا لم يخبرني أحد.
-ألم يتصل بك أحد الضباط؟
انتبه شريف إلى هاتفه الصامت منذ الأمس. لابد أن بطاريته قد فرغ شحنها وهو كالعادة نسي أن يعيد شحنها. أخرجه من جيبه ونظر إلى شاشته المظلمة وحاول فتحه فلم يستجب. ثم نظر إلى هشام للحظة في خواء قبل أن يستدير ويتجه للخارج ثانية دون أن يقول أي كلمة.
ركب السيارة واتجه مباشرة إلى مبنى محفوظات الداخلية. بعد أن وضع هاتفه في شاحن السيارة. كان يشعر بقبضة باردة تعتصر قلبه في تلك اللحظة، لا يدري بعد ملابسات الحادث وكيف تم، لكنه شعر أن له يد في مصرع مساعده الشاب، هل تكون رومية قتلته هو الآخر؟ لو

كان هذا صحيحا فهو إذن من أورده التهلكة حين طالبه بالبحث عن ملف القضية القديم. وجد الدموع تحتشد في عينيه رغما عنه قبل أن تسيل على خديه، من حسن الحظ أنه بمفرده في السيارة ولا أحد هناك يرى دموعه. كان دوما يرى أن في البكاء ضعف، وهو يكره الضعف والعجز طوال عمره، لذا كانت مرات بكائه نادرة للغاية، المرات القليلة التي فعلها كانت يوم مات أبوه، ثم يوم ماتت أمه. مسح دموعه بظهر يده ثم وجد نفسه يضرب عجلة القيادة براحة يده في غيظ وغضب وهو يصرخ:

-لماذا؟ .. لماذا يموت وهو في ريعان شبابه؟

أحاطت الشرطة مكان الحريق بأقماع وشرائط لتمنع المارة من المرور أو الاقتراب بدافع الفضول. أوقف فؤاد سيارته وارتدى نظارته الشمسية لتخفي عينيه الدامعتين، ثم خرج. حاول أحد العساكر إيقافه لكنه أشاح بكفه في ضجر ولم يهتم به. نظر بحزن إلى المكان المتهدم بشدة فلاحظ برك المياه حوله التي أطلقتها سيارات الإطفاء بلا شك. وإن ظلت هناك بعض خيوط الدخان التي لازالت تتصاعد من المكان، وعلى مقربة منه وقف حشد من كبار ضباط الداخلية، اتجه نحوهم فوجد مأمور القسم ونائبه وضابط أعلى رتبة كلهم في لباس مدني، حياهم فؤاد فقال له المأمور:

-أين أنت يا فؤاد؟ اتصلت بك كثيرا وكان هاتفك غير متاح. ثم أرسلت أحد الرجال إلى منزلك فلم يجد أحدا في المنزل.

-تقبل اعتذاري يا فندم. إنها بطارية الهاتف وليلة أمس كنت في فيلّا حماي اللواء رشدي.

-إنه شريف يا فؤاد. ذلك الضابط الشاب النشط المخلص. لقد مات، هل تصدق هذا.

حاول فؤاد التماسك وهو يقول:

-رحمه الله، لقد أخبروني في القسم فأتيت على الفور.

انتبه إلى بكاء مكتوم بالجوار فالتفت إلى صاحبه، كان يصدر من كهل

بدين يرتدي ملابس الشرطة ويضع ثلاثة أنجم على كتفيه. التفت فؤاد
نحو المأمور متسائلا فقال الأخير:
-إنه النقيب ثروت، وهو المسئول عن المكان.
ثم ناداه قائلا:
-تعال يا ثروت أخبر الرائد فؤاد بما حدث.
تقدم النقيب العجوز منهم وقال وهو يمسح أنفه بمنديل من القماش:
-لقد كان معي بالأمس يتحدث بكل حياة وقوة، يا للخسارة. لا أصدق
أنه قد مات. يا للخسارة .. يا للخسارة.
أراد فؤاد أن يشعل سيجارة لكنه أحجم وهو يرى الجميع من حوله في
وجوم ولا يدخنون فقال للمأمور ثانية:
-هل علمتم كيف حدث الحريق يا فندم؟
- هذا هو اللغز يا فؤاد. إنه لم يكن مجرد حريق عادي كما يؤكد الفحص
المبدئي ورجال المعمل الجنائي. إنهم يؤكدون أن انفجارا ما قد حدث
أولا ثم اشتعلت النار في أطلال المكان. البعض يرى أنها أنبوبة غاز لكن
النقيب ثروت يقسم أنه لا توجد أنبوبة غاز واحدة في المكان كله. يتبقى
احتمال ضئيل أن يكون الانفجار سببه عملية إرهابية، لكن المكان غير
مؤثر ولا أحد يعرف حقيقته ولا جدوى من ضربه.
-وماذا عن الضحايا.
-أمين شرطة يدعى أحمد هلال والملازم أول شريف.
-وهل هناك شهود.
-الأقوال واحدة متشابهة لقد انهار المكان بغتة واندفعت منه كرة من
اللهب نحو السماء، لكن صوت انفجار واحد لم ينطلق، وهذا هو
المحير للكل، فأي انفجار عنيف يهدم المكان هكذا ولا يصدر أي
صوت. انظر حولك، لا توجد نافذة واحدة في المباني المجاورة تكسر
زجاجها مثلا بفعل صوت الانفجار.
غمغم فؤاد في سره:
-انفجار شيطاني!

رمق فؤاد رجال المعمل الجنائي المنهمكين في فحص الأطلال ثم فكر في الاحتمال الثالث.

رومية؟!

كان متأكدا في تلك اللحظة، لكن المحير والمرعب لماذا تفعل كل هذا؟ لما تقتل بمثل تلك البساطة، وما ذنب كل هؤلاء الأبرياء؟ شعر أنه يتخبط في الظلام، وقد أيقن الآن أنه لا أحد بمأمن من شرها، واجبه أن يدمر تلك الملعونة لإيقاف بحر الدماء المنهمر بلا جريرة. ثم عاد ليفكر في الرجل الوحيد الذي يعلم حقيقتها وحقيقة ما حدث قبل ذلك. الدكتور محمد شاهين. حان الوقت ليقوما سويا بالبحث عن وسيلة لمواجهتها لو كان هذا ممكنا.

وجد أنه لا معنى لبقائه في المكان فاستأذن المأمور ثم انطلق بسيارته إلى فيلا محمد شاهين بالمقطم. استغرقت رحلته أكثر من ساعة مع حركة المرور المزدحمة قليلا رغم المطر الكثيف والبرد، وقبل أن تظهر أسوارها المرتفعة وسط الصحراء انحرف بسيارته في طريق جانبي ينتهي بها. بدا مكانها المعزول في قلب الصحراء غريبا، وتساءل كيف أمكنه بناء فيلّا في ذلك المكان البعيد عن العمران قبل عقود كما يزعم وما الغرض من هذا؟ هل يبغي العزلة فعلا أم أن هناك أمور مريبة يقوم بها ولا يرغب أن يشعر بها أحد؟ لكن هذا ليس بالتأكيد وقت تلك التساؤلات عن مثل تلك الأمور، لذا لن يشغل باله بمثل هذا الأمر مؤقتا، وليركز تفكيره وجهوده في كيفية مواجهة رومية، فهذا هو سبب قدومه إلى هنا هذا الصباح.

وأمام باب الفيلّا توقف وأطلق نفير سيارته وانتظر حتى ظهر عم إسماعيل بواب الفيلّا.

(18)

للمرة الأولى في حياته، لا يحتمل جسده الماء البارد، وللمرة الأولى، يضطر الدكتور محمد شاهين لفتح صنبور الماء الساخن ليكمل به

حمامه الصباحي، يبدو أن جسده الذي ارتقى بالعمر عشرة أعوام كاملة لن يساعده كثيرا في الاحتفاظ بعاداته التي ظل يحافظ على ممارستها طوال عمره، وها هو الدليل الأول، لم يحتمل الماء البارد. جفف جسده ثم أحاط خصره بالمنشفة العريضة وعاد لحجرته ليكمل ارتداء ملابسه فيها. كالعادة كانت وداد قد أعدت له ملابسه ووضعتها في نظام على منضدة صغيرة في منتصف الحجرة، خلع المنشفة ثم اقترب ببطء من المرآة الكبيرة التي تحتل ركنا كاملا في الحجرة، قرب رأسه منها لينظر إلى انعكاس جسده المسن، تدلت الترهلات من بطنه التي كانت عضلية مشدودة تماما قبل يوم واحد، وتكاثفت التجاعيد الكثيفة في وجهه وحول عينيه فجعلتها أضيق. بينما أصابت النحافة أطرافه الأربعة. نظر إلى صدره فلاحظ الأنفاس السريعة المتلاحقة. يا لرحمة الله! رجل مسن هو الآن، عاد لملابسه وراح يرتديها في بطء غير معهود. لاحظ أن مفاصل أصابعه تصدر طقطقة مع كل حركة فابتسم في توتر وغمغم:

-يبدو أنك ستدفع قريبا ثمن ما سرقته من شباب من الزمن يا محمد شاهين. ويا له من ثمن!

انتهى من ارتداء ملابسه فانطلق للخارج ليهبط إلى الطابق السفلي، كانت وداد قد أخبرته وهي توقظه، أن الرائد فؤاد بالأسفل، طلب منها أن تقدم له الشاي أو حتى الفطور إن رغب وأن ينتظره حتى يستعد لملاقاته، فرغم كل شيء كان يحرص على الحفاظ على مظهره والقيام بطقوسه بانتظام. لن يسمح لنفسه أبدا بأن يلقى زائرا في الصباح قبل أن يحلق ذقنه ويستحم، ولن يهبط إليه أبدا وهو ليس في كامل أناقته.

هبط الدرج الخشبي في بطء فرفع فؤاد رأسه نحوه قبل أن تتسع عيناه في ذهول وهو يراه مسنا هكذا، ليس هذا هو الرجل الذي ظل معه طوال اليوم بالأمس، كيف أصابته الشيخوخة هكذا في أقل من ليلة، وهل لرومية دخل في هذا، أم أن ما يراه هو أخ له أكبر سنا؟

قال محمد شاهين وهو يمد يده مسلما:

-مرحبا يا فؤاد بك، وأعتذر لو كنت قد تأخرت عليك.

- لا عليك يا دكتور، أنا الذي عليه الاعتذار، لقد جئت في غير موعد لكنني كنت مضطرا.
أشار له محمد شاهين بالجلوس في نفس اللحظة ظهرت وداد وهي تحمل فنجان القهوة الصباحي له، فوضعته أمامه، فقال لها وهو يمد كفه المرتعشة ليحمله:
- أشكرك يا وداد.
رمقته في حزن حقيقي وهي ترى ارتجاف أطرافه بعيون تلمع بالدمع ثم انصرفت بسرعة وهي تغالب دموعها، بينما قال فؤاد:
- معذرة يا دكتور لتطفلي، لكن هل أنت بخير؟
ارتشف محمد شاهين بعض القهوة، قبل أن يجيب:
- لو شئت الحقيقة فأنا أبعد ما يكون عن الخير في هذا الصباح. انظر إلى وجهي وجسدي وأخبرني، ماذا ترى؟
نظر إليه فؤاد للحظة ثم قال:
- أرى وكأن عمرك زاد عدة أعوام مرة واحدة.
- أنت مصيب يا فؤاد، لقد ازداد عمري عشرة أعوام كاملة بالفعل.
راقبه فؤاد للحظة وهو يواصل شرب القهوة ثم غمغم في شك:
- لو شئت الحقيقة فكل شيء فيك غريب يا دكتور، من المفترض أن عمرك الحقيقي كما هو مدون في شهادة ميلادك يقترب من الثمانين الآن، ومع ذلك وحتى الأمس من يراك كان ليعتقد بأنك في الخامسة والأربعين أو الخمسين من عمرك على الأكثر، واليوم من يراك يعتقد أنك في الستين من عمرك. ألا تعتقد أن هذا مريب يا دكتور؟
ابتسم محمد شاهين ووضع ساقا فوق ساق وهو يجيب:
- رغم كل هذا لا يوجد قانون يعاقب المرء لأنه يبدو أصغر سنا أو حتى أكبر، أليس كذلك؟
- هذا صحيح، لكن هذا لا يمنع من التساؤل والبحث عن الوسيلة التي تجعله يبدو هكذا، من يدري، ربما كان في الأمر حيل شيطانية، وربما نكتشف أن الخرافات التي كنا نسمع عنها عن السحرة في الزمن القديم

حقيقة بالفعل، أتذكر أنني قرأت يوما أنهم يستحمون بدماء الرضع لاسترداد الشباب، ألم تسمع عن أمر كهذا.

-سمعت ما هو أغرب وأبشع في الواقع، البعض يتحدث عن ينبوع الشباب ومائه الذي يمنحك الخلود، وهناك من يصر أن صفقة صغيرة مع الشيطان بأن تبيع فيها روحك مثلا، أو تقدم له قربان ما قد تمنحك بضع سنوات إضافية من الشباب، أما لو شئت عن التحدث عن السحر فهناك طرق لا تنتهي للحصول على شباب دائم، ففي القرون الوسطى كانت الساحرات يقمن بقتل عذراء شابة مع بعض الطقوس للحصول على نضارتها وشبابها، أما أبشع وسائل الشعوذة فتلك التي كان يقوم بها النكرومانسر أو مستنطقوا الموتى، هؤلاء كانوا يحصلون على علوم الموتى والتي كان استعادة الشباب والحيوية من فنونها المشهورة. وفي مصر القديمة كانوا يتحدثون عن قتل الأجنة في بطون الأمهات للحصول على أعمارهم المحتملة الطويلة. صدقني لو أخبرتك أن كل الثقافات القديمة كانت تتحدث عن طرق شتى للحصول على الشباب والخلود، والآن أخبرني، برأيك أي حيلة من تلك الحيل حصلت بها على الشباب؟

-من يدري ما تخبئه في جعبتك يا دكتور، ربما ببعض الحظ أصل للحقيقة التي تداريها.

-كلي شغف لأرى كيف يمكنك إثبات مثل تلك الأوهام أيها الضابط، والآن ألا ترى أنه من الأفضل أن نتحدث فيما هو أهم. هل بدلت رأيك وقررت الاستمرار في القضية؟

انتبه فؤاد لأنه قد انحرف بعيدا عن الغاية من قدومه إليه، إنه لم يأت هنا ليشك في الرجل، إنه هنا طلبا لمساعدته، زفر في ضيق قبل أن يقول:

-أعتذر لو كنت قد تحدثت بأسلوب حاد أو غير لائق. يبدو أن تلك الليلة اللعينة الماضية قد ألهبت أعصابي بشدة.

رأي محمد شاهين الهالات السوداء الكثيفة حول عينيه وخلجاته

المشدودة فأدرك أنه حتما لم يظفر بأي نوم منذ الأمس، قال بهدوء:
-لا عليك يا فؤاد، لو سمحت لي بالتخمين فأنا أعتقد أن صديقتنا المشتركة قد مارست معك بعض ألاعيبها.
أطرق فؤاد برأسه نحو الأرض
-هل تسمح لي بالتدخين؟
-البيت بيتك.
أخرج فؤاد علبة سجائره من جيبه وانتقى إحدى السجائر منها، وضعها في فمه قبل أن يشعلها بقداحته، جذب منها نفسا عميقا طويلا ثم أطلقه ببطء دون أن ينظر ناحية محمد شاهين الذي انتظره في صبر تام، كان يعلم أنه يفرغ الكثير من توتره في إطلاق الدخان من فمه، كأنما يطرد أعباءه مع ذلك الدخان خارج جسده. انتهى فؤاد من نصف السيجارة تقريبا قبل أن يعود للحديث.
-لقد زارتني بالأمس في البيت، كما أنها قد تسببت في مقتل أحد الضباط العاملين معي حرقا.
كان يقصد رومية بالطبع، أولاه محمد شاهين كل اهتمامه وهو يقول:
-أتمنى لو تخبرني عما حدث بالتفصيل.
جذب فؤاد المزيد من الأنفاس من سيجارته المحتضرة، قبل أن يسحق ما تبقى منها في المطفأة التي أمامه، ثم بدأ يتحدث، أخبر محمد شاهين عن زيارتها بالأمس في صورة ابنته، وأخبره عن الصورة التي وجدها في مكتبه لزوجته السرية مع ابنته، قبل أن يخبره عن مقتل شريف في مبنى محفوظات الداخلية. قص عليه كل شيء وحين انتهى رمق محمد شاهين في خواء وهو يدمدم:
-والآن ما رأيك؟
-إنها تثير فزعك وتعبث معك، لكني متأكد أنها لم تقرر قتلك بعد، لسبب أجهله تماما، أما عن مساعدك فلا فكرة لدي عن سبب مقتله بتلك الطريقة البشعة، هل عاقبته مثلا لمجرد أنه يبحث في قضيتها القديمة، أم أنه اكتشف شيئا ما في ملف القضية ولم تشأ أن يعلمه أحد

فأحرقته مع المكان كله. لا أدرى في الواقع، وطالما نفتقد للمعلومات فليس أمامنا غير التخمين.
-وماذا عنك؟ هل مارست معك ألاعيبها اللعينة؟
-لم تحرمني هذا الشرف للأسف، بالفعل قابلتني في المتحف المصري، لكنها لم تقدم على إيذائي حتى هذه اللحظة، كما أنها ليست السبب في فقداني عشرة أعوام من عمري لو كنت تعتقد هذا. وأرجو ألا تسألني عن سر ما حدث. فقط أؤكد لك أنها ليست السبب.
أشعل فؤاد سيجارته الثانية، وهو يقول:
- هل تعتقد أن هناك خطر ما يهدد ابنتي أو حتى صافي؟
تمنى محمد شاهين لو يطمئنه.
-صدقني لو أخبرتك أنني رغم كل خبراتي كطبيب نفسي لا أعلم. هي تهوى العبث ولا تفتقد للوحشية ولا تعرف الرحمة والشفقة، إنها ببساطة شيطانة خبيثة، ومع كائن لعين كهذا عليك أن تتوقع أي شيء.
بدا اليأس على وجه فؤاد جليا وهو يتخيل أن تقتل ابنته أو صافي بوسائلها الرهيبة، فانتفض جسده في عنف وصرخ وهو يضرب مسند مقعده الخشبي بكف يده:
-اللعنة، يجب أن يكون هناك حل ما. أخبرني أرجوك أن هناك وسيلة ما لحمايتهما. ألست خبيرا في تلك الأمور اللعينة كما تزعم؟
ظهر الإشفاق على وجه محمد شاهين لكنه لم يعقب. في الواقع لم يدر ما هي الكلمات المناسبة التي عليه أن يقولها له. بدا العجز والانهيار على وجه فؤاد حينها وواصل حديثه في يأس وهو يغالب دموعه:
-يمكنها قتلي لو شاءت لكن ليس هؤلاء. ليس لهم أي ذنب فلماذا تطاردهم. لماذا؟
راح جسده ينتفض قليلا وهو يغطي وجهه بكفيه، كان يبكي، وكان هذا ما يحتاجه ليفرغ الكثير من توتره ومخاوفه ومشاعره المضطربة، تركه محمد شاهين يبكي لبعض دقائق دون أن يتفوه بأي كلمة، واكتفى بإشعال غليونه وتدخينه في بطء. بدأ جسد فؤاد في الهدوء فقال له

محمد شاهين:
- اسمع يا فؤاد. أقترح عليك أن تحرص على تشغيل القرآن في بيتك وبيت زوجتك الأخرى طوال الوقت، أحط أماكن جلوسهم بعشرات المصاحف، لا تدعهم للبقاء بمفردهم مهما حدث. من يدري، ربما أفلح هذا.
برقت عينا فؤاد في أمل وقال وهو يفتح شاشة هاتفه:
- لحظة من فضلك.
قالها واتصل بزوجته وطالبها بأن تفعل ما طلبه منه محمد شاهين، ثم أنهى مكالمته معها واتصل بـ صافي وكرر الأمر معها وحين انتهى أغلق هاتفه وقال:
- وماذا عن رومية. ماذا سنفعل معها؟
- لا شيء، لكننا سنعود لنقطة البداية التي كان ينبغي أن نمضي فيها. علينا الوصول إلى الدكتور مصطفي والدكتور نعيم لو كانا على قيد الحياة، وعلينا الوصول إلى ضابط المباحث الذي حقق في القضية القديمة وكذلك وكيل النيابة الذي شاركه التحقيق. إنهم جميعا هدفها المعلن وأخشى أن تكون قد ظفرت ببعضهم بالفعل في تلك اللحظة أو على جميعهم.
- لكنك لا تذكر اسم ضابط الشرطة أو حتى وكيل النيابة وها هو ملف القضية قد احترق، فكيف نعرف من يكونان؟
- ربما كان هناك من يتذكرهما، مازال أمامنا الدكتور مصطفى أو الدكتور نعيم.
- وأنت متأكد أنهما على قيد الحياة.
- آخر مرة تحدثت فيها إلى الدكتور مصطفى كانت منذ نحو عشرين عاما تقريبا. أما الدكتور نعيم فلم نكن أصدقاء في الواقع يوما ما.
- هذا يعني أن أحدهما أو كليهما قد يكونا قد فارقا الحياة.
- هذا أمر محتمل، لكن علينا التأكد من هذا أولا.
- وهل تعرف عناوين إقامتهما؟

-لا. لكن أعرف كيف أصل إليها. وهذا ما سوف نفعله على الفور. سوف نذهب إلى قسم التشريح في كلية طب عين شمس ونسأل عنهما هناك.
نهض فؤاد على الفور وهو يقول في حماس:
-إذن لماذا نضيع الوقت، لنتحرك إلى هناك على الفور.

(19)

صار الطقس أكثر قسوة الآن، وبدا المطر الغزير والهواء العاصف أقرب للعاصفة. فضل الدكتور محمد شاهين أن يذهبا إلى كلية الطب بسيارته، ولأنه يدرك كيف تصير شوارع القاهرة كالبرك والبحيرات مع أقل موجة من المطر، فقد اختار سيارته المرتفعة "الرانج روفر"، بالطبع لم يكن ليسمح لفؤاد بالقيادة، وخاصة وقد بدا فؤاد في أسوأ حال ممكن. ازدادت سرعة هطول المطر وبدأت برك من الماء في التكون في الطرقات التي بدت أقل ازدحاما من المعتاد في تلك الساعة المبكرة من اليوم، غمغم محمد شاهين في نشوة:
-عظيم هو المطر والشتاء، لكن المشكلة أن طرقات القاهرة تغرق في شبر ماء.
-وستظل تغرق، هكذا القاهرة التي نعرفها منذ ولدنا وحتى نموت، أحيانا أشعر أن القاهرة رغم كل مبانيها الشاهقة وطرقها المرصوفة ولوحاتها الإعلانية البراقة، مدينة لا تنتمي لهذا العصر أبدا، إنها كامرأة قادمة من العصور القديمة وقد ألبسوها زيا حديثا، فلا هي تطيق لباسها ولا الزي يلائمها ويغير من تفكيرها. ولذا تجدها تتعثر مع كل خطوة تمشيها. هذه طبيعة القاهرة، مهما أصابتها روح الحداثة تجدها تتعثر أكثر في حبال الماضي.
-تتحدث وكأنك شاعر رغم أنك ضابط.
-ربما يدهشك أن تعلم أنني كنت أقرض الشعر حتى نهاية المدرسة الثانوية.
-ولماذا توقفت؟

لا أدري، هل مللت الشعر وقتها، أم ربما غيرت كلية الشرطة من تفكيري، وربما فارقتني ربة الشعر، لكنني لازلت أتذوقه وأقرأه من حين لآخر.

هبط الصمت بينهما بعدها حتى بلغا كلية الطب، كانت الكلية رغم الطقس الشتوي البارد والمطر تعج كعادتها بالطلاب، تحرك محمد شاهين بسيارته ببطء وهو يرمق بإشفاق الطلاب حديثي العمر وهم يتحركون طوال الوقت في سرعة وكأنما يسابقون خصما غير منظور، بعضهم تنطق عيونه بالجدية وآخرون يملأ العبث وجوهم، بعضهم ذبلت عيونه من الإرهاق والتعب وبعضهم ارتسمت على محياه سيماء اليأس. يعلم أن الجميع اختار الطريق الصعب في الحياة، يحدو أغلبهم الأمل في غد مشرق ومركز اجتماعي مرموق وأموال كثيرة لا تنقطع، بينما لن يجدوا إلا العناء والدراسة التي لا تنتهي والعمل في وحدات صحية متطرفة ومستشفيات بائسة. يتطلع أكثرهم للعيون الخمسة كما يسمون، العربة والعروسة والعمارة والعيادة والعزبة، بينما سيصير جل حلمهم حينها مجرد فرصة للسفر إلى بلاد النفط، للحاق بحلم الثراء الموهوم بعد أن أدار لهم الوطن وناسه ظهر المجن.

انتبه محمد شاهين إلى صوت فؤاد وهو يقول:

- أين تتوقف؟

نظر محمد شاهين حوله وهو يجيب:

- المكان هنا غير مخصص لوقوف السيارات، ألم تر اللافتة.

- صف السيارة هناك على جانب الطريق من فضلك ودعني أتصرف.

قالها فؤاد وهو يشير إلى مكان فارغ وراء أقماع بلاستيكية، وقف محمد شاهين حيث أشار وبينما شرعا في الهبوط كان أحد رجال الأمن في المكان يهرع نحوهما، ثم يقول:

- الوقوف هنا ممنوع أيها السادة، هناك ساحة انتظار في نهاية الطريق.

قال له فؤاد في برود:

- الرائد فؤاد، وهذه سيارتي، لا تدع أحد يقربها حتى نعود.

بدا التوتر على وجه الرجل، وهو ينقل بصره بين السيارة ووجه فؤاد في حيرة وكأنما لا يعلم ما عليه أن يفعله. بينما جذب فؤاد محمد شاهين من يده نحو مبنى الكلية وهو يقول:
-اطمئن على السيارة يا دكتور، إنها في حماية هذا الرجل الطيب.
ابتسم محمد شاهين وهو يقول:
-تسيء استخدام سلطاتك.
-السلطة وُجدت ليساء استخدامها يا دكتور، أم كنت تفضل أن تصفها في مواقف السيارات وتسير كل تلك المسافة عائدا إلى الكلية.
-وهل تحتمل ركبتاي كل هذا المشي!
في الكلية اتجها إلى المشرحة حيث استقبلتهما من بعيد الرائحة النفاذة القوية للفورمالين، كان بابها مغلقا، سأل محمد شاهين إحدى الطالبات عن مكان قسم التشريح فأخبرته أنه تم نقله للمبنى الجديد. اتجها للمبنى الجديد بعد أن سألا أكثر من طالب حتى وصلا لحجرة صغيرة مكتوب على لافتة على جدارها "سكرتيرة القسم" طرقا الباب المغلق ثم دلفا إلى الحجرة، بالداخل كانت موظفة بدينة تجلس خلف مكتبها وأمامها كمية هائلة من شطائر الفول والطعمية والمخلل تلتهما في نهم، بينما وقف الموظف الآخر بجوار مكتبه منحنيا على غلاية ماء كهربائية، وهو يملأ كوبين زجاجيين بالشاي والسكر. انتبها للقادمين فقال الموظف في سماجة:
-ماذا تريدون؟
قال الدكتور محمد شاهين:
أسأل عن الدكتور نعيم والدكتور مصطفي لقد كانا رئيسين للقسم منذ أكثر من ثلاثين عاما ولا أعرف إن كانا مازالا على قيد الحياة أم لا.
رمقته المرأة في دهشة وتساقطت بعض محتويات الشطيرة التي تلتهما على ملابسها بينما قال الرجل في برود:
-وماذا تريدان منهما؟
تقدم فؤاد في تلك اللحظة وقد ضاق ذرعا بلزوجة الموظف وشاربه

الرفيع فوق أنفه:
-وما شأنك أنت، الدكتور يسألك وينتظر إجابة محددة.
بدا وجه الرجل كفأر مذعور وهو يغمغم:
-الباشا مباحث.
-الباشا يريد إجابة محددة قبل أن يخرج عن طوره ويفقد أعصابه.
ألقت الموظفة الشطيرة التي في فمها داخل لفافة الورق وراحت تكومها في سرعة بينما أجاب زميلها في توتر:
-إنهما على قيد الحياة يا فندم، لكن الدكتور نعيم لم يعد يأتي للكلية منذ أعوام. أما الدكتور مصطفى فإنه يأتي لزيارة القسم مرة كل بضعة شهور.
تنهد محمد شاهين في ارتياح وهو يتبادل النظر مع فؤاد، قبل أن يقول:
-وماذا عن عنوان إقامتهما، لابد أنه موجود هنا.
أجابه الرجل وهو يفتح دفترا ورقيا حكوميا مهترئا:
-كل عناوين وتليفونات أطباء القسم هنا، لحظة من فضليكما.
انهمك لبرهة في البحث ثم خط على ورقة بيضاء صغيرة عنوانهما قائلا:
-هاك العنوانين. أي خدمة أخرى.
كان يقولها وكأنه يتمنى أن يختفيا من أمامه على الفور. مد الدكتور محمد شاهين يده، والتقط الورقة وهو يقول:
-كلا. أشكرك.
هم بالخروج لكن فؤاد استوقفه قائلا:
-لحظة يا دكتور محمد.
ثم التفت إلى الموظف الذي مازال واقفا وقال:
-لماذا كان باب المشرحة مغلقا؟
-لا أدري يا فندم، وربما أغلقها العامل وذهب إلى مكان ما.
-أريد أن أراها. هل يمكنك أن تصحبنا إلى هناك.
شعر محمد شاهين بالدهشة من طلبه في نفس الوقت الذي تبادل الموظف النظر مع زميلته وكأنه يسألها رأيها ثم قال:

-هل يمكنني معرفة من تكون يا فندم.
-الرائد فؤاد مباحث القاهرة.
-أهلا يا باشا، امنحني دقيقة واحدة، وسنذهب سويا للمشرحة.
قالها وراح يبحث في درج مكتبه عن المفاتيح قبل أن يجد مفتاح المشرحة فخرج من باب الحجرة وتقدمهما متجها إليها، بينما قال محمد شاهين لفؤاد:
-لماذا تريد الذهاب إلى المشرحة، ألم تكتف من رؤية الجثث.
-أريد أن أرى المكان الذي جرت به أحداث القضية الماضية، من يدري ربما أفادنا هذا بشيء.
-هذا لو لم تتغير معالم قاعات التشريح بعد كل هذا الوقت.
فتح الموظف باب المشرحة ثم دعاهما للدخول، نظر محمد شاهين حوله فرأى أنها مازالت تحتفظ بنفس الشكل رغم مرور كل تلك الأعوام. نفس الحجرات القديمة ونفس المناضد ونفس لمبات النيون الشاحبة الطولية، ولولا المبالغة لقال نفس الملاءات التي تغطي الجثث، فقط ما تغير هو طبقة حديثة من الدهان على السقف والجدران.
اشتدت الرائحة الخانقة للفورمالين، وهم يدخلون قاعات التشريح، قبل أن يصرخ الموظف:
-يا إلهي أين ذهبت الجثث؟
كانت مناضد التشريح فارغة تماما من الجثث، فقال فؤاد وهو يدور برأسه حول نفسه:
-هل أنت متأكد أنها كانت هنا؟ ربما وضعها العمال في الثلاجة مثلا.
-إنها عشر جثث يا فندم ولن تتسع الثلاجة لكل هذا العدد، إننا نحفظها بالفورمالين ثم نتركها على المناضد. لقد كانت هنا منذ يومين، أنا بنفسي أحصيتها فوق المناضد.
ابتسم محمد شاهين في سخرية وهو ينظر إلى الموظف المذعور، كان يعلم أن هذا العبث من فعل رومية، هل رغبت في أن تخبرهم أنها تعلم

أوهمهما للمكان وأنها تسبقهم بخطوة. انتبه بعدها إلى صيحة الموظف وهو يقول:
هناك جثة في مكانها.
اندفع إلى قاعة التشريح الثانية حيث رقد جسد أسفل إحدى الملاءات، تبعاه بخطوات واسعة، ثم توقفا حول الجثة، مد فؤاد يده ورفع الغطاء عن رأس الجثة، أدهشه أن يرى رأسا نحيلا نابت الذقن يغط في نوم عميق، فقال في دهشة:
من هذا؟
إنه سمعان، عامل المشرحة،
قالها الموظف وهو يهز جسد العامل النائم في قسوة ويوقظه قائلا:
استيقظ أيها الغبي، لماذا تنام هاهنا.
استيقظ العامل ورمق من حوله في بلاهة وغير فهم قبل ان يتوقف نظره عند الموظف الذي يعرفه فقال في تعجب:
أستاذ محروس، أين أنا.
أنت نائم على منضدة من مناضد التشريح والجثث كلها قد سرقت، ألديك تفسير لهذا.
هب العامل كالملسوع من فوق المنضدة ونظر حوله قبل أن يبدأ الولولة وهو يصرخ.
يا إلهي أين ذهبت الجثث، لقد كانت هنا. لقد خرب بيتك يا سمعان. سوف يسجنونك يا سمعان.
تقدم فؤاد وقد أدرك أن دوره قد أتى، فجذب الرجل من ياقة قميصه وهو يقرب وجهه منه ويقول في قسوة:
اسمع يا هذا. أنا ضابط شرطة. وأقسم بشرفي لن أتركك إلا وأنت في السجن، لو لم تخبرنا في الحال، ماذا حدث وأين ذهبت الجثث، ولماذا أنت تنام بالداخل.
انكمش سمعان في ذعر وراح يردد:
لا أعلم، لقد كنت في حجرتي أحتسي الشاي و .. و .. أجل .. كانت

هناك المرأة.
شعر محمد شاهين بالقلق فقال له:
-أي امرأة تقصد؟
نقل سمعان بصره بينهم وهو يجاهد للتذكر ثم قال:
-لقد دخلت فجأة الحجرة .. كانت رائحتها حلوة جدا وكانت
مثل الحوريات، نظرت إلي وابتسمت ثم .. ثم .. لا أدري .. لا أذكر
شيء بعدها.
وبينما رمق فؤاد الدكتور محمد شاهين في قلق، هتف محروس
سمعان:
-اسمع يا هذا، تلك الترهات التي تحكيها لن يصدقها طفل صغير
قل الحقيقة وإلا كان الفصل من العمل وربما السجن مصيرك
الجثث أو حتى أخبرني من سرقها وربما كان هناك مخرج من ورطتك
تحرك محمد شاهين وفؤاد مغادرين المشرحة في اتفاق غير
ووصل إلى سمعيهما صوت سمعان وهو يقول في بكاء:
-لا. أقسم بالرب أنني لم أسرقهم. صدقني يا أستاذ محروس. أنت
أنني لم أفعلها. لقد كانت تلك المرأة. أجل. إنها حتما تلك المرأة.
خارج المشرحة تنشق كليهما بعمق الهواء النقي ليطردا عن
رائحة الفورمالين الخانقة ثم قال فؤاد:
-إنها هي، تلك الملعونة.
-وهل لديك شك؟
-لكن لماذا تسرق الجثث. وما فائدتها من فعل شيء كهذا؟
-من يدري!
خرجا من باب الكلية الخلفي واتجها حيث صفا السيارة، لحظات
أنها ليست بالمكان، فغمغم محمد شاهين في حذر:
-السيارة كانت هنا. أليس كذلك؟
اندفع فؤاد نحو المكان الفارغ بخطوات أقرب للهرولة ودار حول المكان
في دهشة وهو يقول:

- نعم، لقد وضعناها خلف هذه الأقماع، إذن أين ذهبت؟

أشار محمد شاهين حيث حارس الأمن وهو يقول:

- لنسأل الحارس.

سار نحوه في نفس الوقت الذي لاحظهما فبدت على وجهه الدهشة لحظة وهو يرمق محمد شاهين قبل أن يتحرك هو الآخر نحوهما، وما إن اقترب حتى سأله فؤاد:

- أين ذهبت السيارة؟

نظر الحارس في تعجب إلى الدكتور محمد شاهين وهو يقول:

- لقد أخذها الدكتور منذ أقل من دقيقتين؟

جذبه فؤاد بغضب من ياقة ملابسه وهو يقول في غضب:

- هل تمزح يا هذا، الدكتور محمد كان معي طوال الوقت ولم يفارقني لحظة واحدة. لذا أخبرني من أخذ السيارة أو أتهمك بسرقتها.

أسرع محمد شاهين ليفك يدي فؤاد من حول رقبة الرجل المذهول وهو يقول:

- مهلا يا حضرة الرائد. دعنا نستمع للرجل أولا:

ثم التفت إلى الحارس الذي راقبه زملاؤه من بعيد في توتر وحذر وبدأ بعضهم في التحرك نحوه:

- هل أنت متأكد يا بني أنني من كان يقود السيارة.

- لقد كنت أنت، لقد رأيتك تخرج من باب المشرحة، بمفردك وتتحرك نحو السيارة مباشرة ثم ركبتها وتحركت مباشرة نحو الطريق الرئيسي. إنني أتعجب كيف خرجت الآن من الكلية وقد رأيتك بعيني تغادر المكان كله. الأمر يشبه .. يشبه .. بسم الله الرحمن الرحيم .. ألاعيب العفاريت.

أخرج فؤاد هاتفه المحمول وقال:

- سأتحدث إلى شرطة المرور ليتتبعوها. أعتقد أننا سنجدها بسهولة فهي مميزة ونادرة الوجود في شوارعنا.

راح يبحث عن الرقم في اللحظة نفسها التي أصدر فيها هاتف محمد

شاهين رنينا، نظر إلى شاشته فلم يجد أي اسم في خانة المتصل، إلا
هي، كان يعلم أن رومية هي من يتصل، فقط تمنى ألا تخبره باحتراق
سيارته أو تدميرها في حادث، أشار لفؤاد ألا يتعجل الاتصال وهو
يجيب:

-ألو. من معي؟

جاءته الضحكة المثيرة عبر الهاتف قبل أن تقول في دلال:

-ألا تعلم حقا؟

-أين سيارتي، وماذا فعلتِ بها؟

ضحكت مرة ثانية وقالت:

-فقط استعرتها، سيارة فخمة رائعة فتمنيت لو أقودها.

-كفي عن العبث وأخبريني أين السيارة؟

-طالما أنت مصر فسأخبرك. لقد تركتها في قلب ميدان العباسية، لكني
لا أدري لم يتجمهر كل من في الميدان حولها الآن.

قالتها وهي تطلق ضحكة ساخرة جديدة ثم تنهي الاتصال. نظر محمد
شاهين إلى فؤاد وهمس:

-لقد تركت السيارة في ميدان العباسية.

-إذن دعنا لا نضيع الوقت، لنذهب إليها.

استوقفا تاكسي وأمره فؤاد بالذهاب إلى ميدان العباسية، كان الطريق
مزدحما في تلك الساعة وخاصة وقد كفت السماء عن المطر وإن
احتفظت بسحبها الكثيفة، كانت المسافة لا تتعدى كيلومترين أو
ثلاثة، لكن الزحام جعلهما يصلان قلب الميدان في نحو العشر دقائق،
وداخل الميدان حيث موقف الباصات كان حشد ضخم للغاية من
الناس متجمهرين حول شيء ما حجبته أجسادهم وبعضهم يصوره
بكاميرات هواتفهم والبعض الآخر يصرخ.

هبطا من التاكسي وغمغم محمد شاهين:

-قلبي يحدثني أن تلك اللعينة رومية قد أعدت لنا مفاجأة لعينة
بانتظارنا.

أن فؤاد يشاركه الرأي، فمثل هذا الجمهور لن يتجمهر لمجرد رؤية سيارة نادرة كسيارة محمد شاهين، لذا سبقه بجسده القوي وراح يدفع الناس بقوة ليفسح طريقه قبل أن يجد نفسه أمام السيارة تماما، فتوقف في ذهول وقد أدرك سبب هذا التجمهر حولها، في اللحظة نفسها التي بلغه فيها محمد شاهين ونظر هو الآخر إلى السيارة في ذهول طوال قبل أن يغمره الغضب فيهتف:

- اللعينة.

كانت السيارة مغلقة وبداخلها جلست ثلاث جثث من جثث المشرحة فوق المقاعد الأمامية بينما تكدست نحو جثث ست على بعضها في المقاعد الخلفية، وحول السيارة انتشرت رائحة نفاذة خانقة للفورمالين.

اندفع فؤاد نحو رجلي شرطة وأمرهما بمحاولة إبعاد الناس عن المكان، كان طلبه مستحيلا في الواقع لكن الشرطيين راحا يصرخان كي يذهبوا ثم عاد إلى محمد شاهين الذي احتفظ بجموده وهو يراقب السيارة في حسرة، فربت على كتفه وقال:

- لا تقلق، سوف نخرج هذه الجثث من السيارة في الحال.

هنا أصدر هاتف محمد شاهين رنينا قصيرا معلنا عن وصول رسالة جديدة، فتح الشاشة ثم قرأ الرسالة بوجه محتقن قبل أن يناول الهاتف إلى فؤاد ليقرأها. كانت تقول:

"هل أعجبتك مفاجأتي يا صديقي الوسيم؟".

وانفجر فؤاد في الضحك .

(20)

يكره الدكتور نعيم البرد، ولهذا فأسوأ فصول العام له هو فصل الشتاء بالطبع، هذا الأمر غير جديد عليه، فمنذ حداثته يهوى الدفء ويستمتع بالصيف ويراه أعذب فصول العام، لا يدري ما الذي يروق للناس في ذلك الجو الضبابي الرمادي المظلم لنهار الشتاء، وكيف يبهج

عشاق الشتاء مغيب الشمس طوال الوقت، وذلك الصقيع الذي ينخر العظام ويجعل الأقدام متيبسة باردة كأرجل الموتى طوال الوقت، وهو يدفع المرء لارتداء كل ملابسه دون جدوى. كان يردد دوما فور ظهور تباشير الخريف وعواصفه الأولى مقولته الأثيرة:

"ألا لعنة الله على الشتاء والشمال الذي يأتي بالريح العاصف والصقيع!".

والآن وقد بلغ من العمر عتيا وصار عجوزا هشا ازداد كراهية للبرد وقد وهنت عظامه ورقت، وتيبست مفاصله وجفت. صار فصل الشتاء بالنسبة له كابوس العام كله، ولهذا كان يستعد له مبكرا، يملأ مخزن البيت بالأخشاب الجافة ويحرص على اشتعال مدفأته طوال الوقت، ولا يكف عن تناول السوائل الدافئة والحساء الساخن كثيرا، رغم متاعبه مع أمراض البروستاتا التي تدفعه للتبول طوال الوقت.

كان قد اعتزل العالم منذ أعوام كثيرة بعد أن ثقلت حركته، فابتنى لنفسه فيلّا من طابقين في التجمع الخامس، حرص على إنشاء مدفأة إنجليزية الطراز في طابقها السفلي. كان يعيش بمفرده في المكان وإن كان يستعين بحارس عجوز للفيلّا يقيم في حجرة صغيرة في حديقة الفيلّا، وأرملة شابة تأتي كل صباح لتنظف المكان وتطهو له الطعام ثم تغادر الفيلّا بعد الظهيرة. لم يكن يهوى الاختلاط طوال عمره، ولهذا لم تؤرقه كثيرا حياة الوحدة التي يحياها، فكر قبل أعوام في ممارسة نشاط اجتماعي كالذهاب للنادي والانخراط في بعض أنشطته الاجتماعية، لكنه شعر بالضجر بعد قليل فلم تطأ قدماه أرض النادي ثانية، من حسن حظه أنه يهوى القراءة، وأنه يمتلك مكتبة ضخمة تحوي آلاف الكتب، لذا استغل وقت فراغه الطويل في مطالعة كل الكتب التي لم تتح له فرصة قراءتها من قبل، يستيقظ في الصباح فيتناول إفطاره ثم يراقب الطقس، لو كان الجو مشمسا دافئا ينتقل للحديقة ويجلس على كرسيه الهزاز المصنوع من الخوص ويشغل أغنية قديمة من أغاني أم كلثوم أو عبدالحليم حافظ أو عبدالوهاب، ويبدأ القراءة. قبل أن تذهب

تأتيه الخادمة بالغداء فيتناوله في مكانه، وقرب المغيب ينتقل لداخل الفيلا، حيث يمضي الساعات الأخيرة من اليوم في مشاهدة بعض برامج التلفزيون أو يشاهد فيلما ما، وخاصة لو كان قديما، أو يتابع أحد البرامج القديمة في إذاعة البرنامج العام أو صوت العرب، قبل أن يأوي للنوم بعد صلاة العشاء مباشرة.
حياة هادئة بسيطة ارتضاها لنفسه حتى يحين موته، وخاصة أنه لا أقارب له أو أهل، كما أنه لم يتزوج بعد طلاقه من زوجته. كثيرا ما فكر هل أخطأ في حق نفسه بعدم الزواج ثانية والإنجاب، هل كانت حياته لتكون أكثر بهجة لو كان بها بنون وبنات، وهل كانت الزوجة لتذهب الكثير من وحشة الشيخوخة لو كانت موجودة. قبل أن يعود ليُذكر نفسه أنه كثير الملل والضجر وأنه لم يكن ليحتمل أحدا يشاركه فراشه وحياته، ولم يكن ليصبر أسبوعا واحدا على زوجة تغرقه في مسئوليات البيت. لقد جرب الأمر مرة وفشل. أجل، لم يكن لينجح في الزواج.
كان طقس اليوم كئيبا مزعجا، رياح باردة عاصفة تضرب الجدران وسماء ملبدة بالغيوم وأمطار بدأت في الانهمار، لذا فقد اتخذ مقعده أمام المدفأة بعد أن وضع فيها المزيد من الخشب وغطى جسده ببطانية من الصوف ثم راح يقرأ في كتاب "عاشوا في حياتي" لأنيس منصور. مضى بعض الوقت وهو مستمتع بالدفء حتى شعر بتثاقل أجفانه ورغبة ملحة في النوم تطارد عقله، كان معتادا على هذا، فكثيرا ما يأخذ سنة من النوم وهو على مقعده يقرأ، لذا فقد وضع الكتاب على المنضدة المجاورة له وأحكم تغطية جسده وأمال رأسه على مسند الكرسي ثم أغمض عينيه مستسلما للنوم.
هنا وللمرة الأولى منذ أعوام كثيرة تطارده ذكرى حرص على نسيانها منذ أكثر من ثلاثين عاما. وفي الحلم عاد ليتذكر تلك الليلة الشنيعة التي زارته فيها رومية.

***

"من رواية الجثة الخامسة، الجزء الأول".

كان بغرفة مكتبه في البيت يقرأ .. وحين ارتفعت دقات الساعة لتعلن تمام العاشرة مساءً. ترك الكتاب الذى يقرأه، ومال بجسده نحو الراديو المعلّق على الحائط بجواره، فأدار بكرة جانبية به، ليظهر صوت المذيع معلنًا عن نشرة العاشرة مساءً بالبرنامج العام..

كان يتابع مسلسلاً إذاعياً مثيراً، يأتي كل ليلة في العاشرة وخمس دقائق على البرنامج العام. تابع بلا اكتراث الأخبار التي لم تأت بجديد عليه، ثم راح يصغي لتتابع الموسيقى التصويرية للمسلسل، فاسترخى على كرسيه، وقد أغمض عينيه، مستمتعًا بالأحداث التي يتابعها بأذنه، ويصورها له خياله. كان الراديو في هذا الوقت مازال وسيلة الترفيه الأولى، ولم ينجح التليفزيون في أن يحتل مكانة بعد..

كان مستغرقًا في تخيل الأحداث حين تناهى لأذنيه صوت خطوات تأتي من الصالة. ففتح عينيه باتساعهما، وهب واقفًا بقلق، وهو يتطلع إلى الباب الزجاجي الذي يفصله عن الصالة. أرهف السمع فلم يسمع شيئًا. جلس مرة أخرى موعزًا الصوت الذى سمعه لإرهاقه، أو ربما تكون إحدى الحشرات الصيفية التي ربما تسللت إلى الشقة عبر الشباك المفتوح.

طرد الأمر عن عقله، وإن ظلت عيناه معلقتين بباب الحجرة بشيء من الترقب ..انتهى المسلسل، وتعالت بعده موسيقى إحدى الأغنيات القصيرة لكارم محمود، فأخذ يرددها معه حين لاحظت عيناه ذلك الظل السريع الذى مر من خلف الباب الزجاجي. هذه المرة تأكد أنه لا يتوهم. لقد رأى ظلاً يتحرك خلف الباب بسرعة من ناحية للأخرى باتجاه حجرة نومه.

شعر بالرعب. إنه بمفرده في الشقة. فمن يكون هذا؟

أيكون لصًا؟

ولكنه لو كان لصًا فكيف دخل؟ .. كان من المستحيل أن يدخل بواسطة باب الشقة، فهو يغلقه دائمًا من الداخل بأكثر من مزلاج .. ومن العسير كذلك أن يدخل من الشباك المفتوح في الصالة .. فالشباك

يطل على الشارع الرئيسي، والشارع مازال مكتظًا بالمارة حتى الآن، ولو حاول أحد ما أن يتسلق البناية ليدخل من الشباك فسيراه المئات بسهولة ..

إذن من هذا؟!

وكيف دخل؟

تجمد في مكانه، وعيناه معلقتان بالباب بتحفز، ودقات قلبه تتصاعد معلنةً عن فزعها هي الأخرى..

ماذا يفعل الآن؟

فكر دون أن يهتدي لفعل ما.

فكر أن يندفع بسرعة نحو باب حجرة المكتب الذى يجلس فيها الآن فيغلقه بالمفتاح، ثم يصرخ من شباك الحجرة المطل على الشارع طلباً للنجدة من المارة .. لكن باب حجرة المكتب زجاجي ضعيف، ومن السهل اختراقه. كما أن من سيهب لنجدته عليه حينها أن يكسر باب الشقة كي ينجده، وهذا سيستغرق وقتًا ما .. وربما آذاه اللص في هذا الوقت قبل أن تصله النجدة.

الحل الآخر الصعب هو أن يخرج ليرى بنفسه من هناك، فربما كان واهمًا فيما رآه .. طال تردده قبل أن يحسم قراره فقرر أن يخرج ليعرف الحقيقة .. لكنه قبل أن يفعل اتجه إلى المكتب، وهو يحمد الله على أنه يحتفظ بسلاحه الناري المرخّص في أحد أدراجه ..

أخرجه، وبيد مرتجفة لا تصدق أنها قد تضطر لاستعماله أمسكه بقوة، وبخطوات مرتعشة وساقين لينتين كأعواد المكرونة سار نحو الباب.

فتح الباب بسرعة، وقلبه يتواثب بين ضلوعه، وتطلع إلى الصالة يسبقه المسدس المصوب بتحفز نحو عدو وهمي.

كانت الصالة ساكنةً، ولا أحد فيها، فشعر ببعض الاطمئنان.

اتجه بخطوات حذرة إلى حجرة الصالون، وأضاء مصباحها، قبل أن يتنهد في ارتياح، وهو يرى المقاعد الفارغة، والحجرة الخالية أمامه.

فتش بعدها الحمام والمطبخ، لكنه لم يجد أحدًا.

ازداد اطمئنانه ... إنه الإرهاق إذن وإنه حتما تخيل ما رآه. لم يبق أمامه غير حجرة نومه؛ فاتجه إليها بهدوء، وفتح بابها الخشب ، وامتدت يده نحو زر الإضاءة بجوار الحائط، فضغط عليه..
بدد النور ظلام الحجرة، فرآها أمامه تجلس على طرف الفراش، وقد وضعت ساقاً فوق ساق، واستندت بمرفقها الأيمن على الفراش .. كانت تنظر إليه بابتسامة لعوب .. كانت جميلة وفاتنة كما رآها بالمشرحة، لكن بشرتها - هنا - كانت رائقةً وحلوةً ومثيرةً..
اجتاحه الذعر. فراح قلبه يتواثب بصورة لم يعهدها من قبل، كأنما يحتج على ما يراه .. آلام الذبحة الصدرية المخيفة بدأت حينها في غزو عظمة القص في صدره مثيرةً وجعًا لا حدّ له، ثم تسللت بخبث نحو كتفه الأيسر فخدرته، وأصابته بالشلل، ومعها بدأت أنفاسه اللاهثة في الاختناق، وبقعة من الظلام تتسع في مجال بصره معلنةً عن اقتراب تسرب الوعي منه.
عجزت يداه عن حمل السلاح الناري، فسقط منه. بينما ظلت الجثة الحية كما هي جالسة على فراشه تتطلع إلي معاناته باستمتاع .. أراد أن يسألها مَنْ أنتِ فلم يطاوعه لسانه .. لكنه سمعها تجيبه دون أن يسأل:
-ألا تعرفني حقا؟ سأغضب كثيرا لو كنت تجهل من أكون! وصدقني لو أخبرتك، أنت لن ترغب في إغضاب فاتنة مثلي.
نهضت بعدها من الفراش لتسير نحوه. أراد أن يتراجع مبتعدًا عنها، لكن قدمه هي الأخرى خذلته فلم تتحرك. بينما تصاعد الألم في صدره معلنًا عن رعبه هو الآخر منها.
صارت الآن أمامه تمامًا. انبعثت منها رائحة عطرية مثيرة للغاية. رائحة لم يشم مثل حلاوتها من قبل، وسمعها تهمس له، وهي تضع أناملها الرقيقة على قلبه:
-يا لبؤس قلبك الضعيف. لا يبدو أنه قويا ليحتمل مثل فتنتي كما أرى. أنت بحاجة يا صغيري لإسعاف سريع.
شعر بسبابتها الباردة كالثلج وهي تلمس صدره، فزال الألم عن قلبه على

الفور.. لا يدري كيف حدث هذا، ولكنه قد حدث. بدا الأمر وكأن أثقالا لا حد لها قد انزاحت عن صدره دفعة واحدة.
مالت على أذنه، وقالت له هامسةً بصوت مثير دافئ، ويداها الناعمتان تعبثان بوجهه وشعره الأشيب المبعثر:
- سأعود إليك يا صغيري مرة أخرى. فانتظرني. ألا ترى كيف أنقذت حياتك منذ لحظات؟
تلاحقت أنفاسه من الإثارة، وعاد قلبه يدق بشدة حين اختفت فجأة من أمامه. عاد الألم مرة أخرى، وبالرغم من أنه كان أقل حدةً مما سبق. إلا أن سحابة الظلام في عينيه اتسعت مرة أخرى، وتخاذلت قدماه، ففقد الوعي..
أفاق على دقات الساعة التي تدوي، وتخترق ظلام سكون البيت، وتعالى صوت الراديو الذي مازال يعمل معلنًا عن نشرة الثالثة فجرًا. ظل في حجرته راقدًا على فراشه بوهن دون أن تفارق عيناه باب الحجرة متوقعًا أن تدخل منه تلك الفتاة الملعونة في أية لحظة. خشي أن يغادر مكمنه فيجدها في مكان ما بالخارج بانتظاره.

***

هب من نومه في ذعر لا حد له، لم يكن حلمًا، أجل. ما رآه في نومه ليس كابوسا أو حلما، إنها تجربة مريعة عاشها من قبل بكل تفاصيلها، كان قلبه يضرب صدره وقبضة ثقيلة تعصره بلا هوادة. وكانت أنفاسه متلاحقة سريعة، مد ذراعه إلى علبة النيتروجليسرين الموضوعة على المنضدة، وأخرج منها قرصين صغيرين ثم وضعها أسفل لسانه وراح يمتص مرارتهما في جشع، لماذا يتذكر تلك الملعونة الآن، حاول أن يتجاهلها فلم يستطع. مضت بضع دقائق قبل أن ينحسر الألم ويعود قلبه لانتظامه، شعر بالظمأ فالتقط كوب ماء وشربه بأكمله. نظر للنار التي تتطاير ألسنتها، وهو يتذكر كل ما مر به من قبل، منصور وجمال وعبد الدايم ومتولي والدكتور مصطفى وذلك الطبيب النفسي الذي نسي اسمه الآن، تذكر الجثة الملعونة التي عادت للحياة لتنشر الرعب

في ذلك الوقت، ومن أعماق عقله راحت عبارة واحدة تتردد في ردهات جمجمته:

"سأعود أيها البائسون وستدفعون جميعا الثمن. سأعود إليكم قريبًا جدًا لأنتقم. تذكروا هذا وانتظروني!".

أغمض عينيه وهو يحيط أذنيه بكفيه كي تتوقف تلك العبارة المشؤومة فلم تتوقف. فتح عينيه ليدرك أن الكلمات لا تتردد في عقله، بل تأتي من الخارج، كانت الكلمات تأتي بنفس الصوت الذي نُطقت به من قبل من قلب النار، كانت الكلمات تحمل صوت رومية. حملق في النار في فزع. هنا ومن بين ألسنة النار رأى الوجه الذي ما زال يذكره، وجه الجثة اللعينة، وجه رومية. كان رأسها داخل المدفأة والنار تتراقص حولها وتظلله بظلام وردية، بينما كان الفم يتحرك ناطقا الكلمات الملعونة وعيناها تنظران إليه في تهكم وسخرية.

"سأعود أيها البائسون وستدفعون جميعا الثمن. سأعود إليكم قريبًا جدًا لأنتقم. تذكروا هذا وانتظروني!".

عاد الألم ثانية إلى صدره ليعتصره بلا رحمة، حاول أن يصرخ فاختنقت الكلمات في حنجرته، حاول أن ينهض ويهرب فلم تطعه أقدامه، ومن قلب النار زحفت رومية لتغادر المدفأة المشتعلة. انتصبت أمامه من قلب المدفأة دون أن يبدو للنار التي خرجت من قلبها أي أثر على بشرتها أو حتى ملابسها، كانت تبتسم في وجهه في سحر، بينما تسللت إلى أنفه رائحتها العطرية التي أسكرته منذ زمن بعيد. رفع رأسه نحوها في رعب هائل فقالت له:

-مرحبا يا دكتور نعيم. هل افتقدتني كالآخرين؟

شعر بالاختناق أمامها، وأدرك أنها النهاية، إنها أزمة قلبية يتمنى أن تكتمل هذه المرة بنجاح ليموت ويرتاح من هذا الرعب، لكنها وكمن يقرأ أفكاره هزت رأسها بالنفي وهي تقول:

-كلا. لن تكون نهايتك بأزمة قلبية سخيفة، أنقذتك منها من قبل وسأفعل الآن".

في المرة السابقة وضعت سبابتها فوق قفصه الصدري ليزول الألم في لحظة كالسحر ويعود قلبه لهدوئه. رأت كيف عاد وجهه للتورد، فقالت في رضا:

هذا أفضل، فأنا أدخر لك موتة تروقني أكثر.

راح يرمقها في عجز ولسانه كالمشلول لا يقدر على النطق، فحركت رأسه نحو المدفأة وهي تقول:

انظر إلى رفاقك. إنهم ينتظرونك.

ومن قلب النار رأى وجوها يعرفها وهي تصرخ وتتلوى في ألم ورعب هائلين، رأى وجه منصور وجمال ومتولى وعبد الدايم، هل قتلتهم هذه الملعونة؟

ثم مالت نحو أذنه وهي تهمس:

ما رأيك لو تلحق بهم؟

وجد الدكتور نعيم جسده وقد حملته قوى خفية من فوق مقعده ثم راحت تدفعه ببطء نحو النار، أراد ان يصرخ فلم يقدر، شعر بلهيب النار التي يقترب منها فأيقن أنها النهاية، النهاية بأبشع طريقة ممكنة للموت، كانت قدماه أول ملامس النار، ومع الألم الرهيب ذهب الشلل من لسانه فانطلقت صرخات هائلة لتردد بين جنبات الفيلّا، راح جسده يدخل ببطء عبر فتحة المدفأة والنار تلتهمه بلا رحمة، وصرخاته لا تتوقف.

وعلى المقعد الذي كان يحتله جلست رومية وهي تراقب موته وعلى شفتيها ابتسامة رضا واستمتاع!

(21)

انتظر عامل غسيل السيارات في محطة الوقود في صبر، الدكتور محمد شاهين وهو يدور ببطء حول سيارته ويتشمم الهواء حولها في دقة، ثم فتح بعدها الباب الأمامي ودفع رأسه داخلها وهو يحرك أنفه فيها قبل أن يهز رأسه بتأفف ويقول للعامل في غير رضا:

-كلا. مازالت الرائحة عالقة بها. من فضلك، أعد غسلها مرة أخرى.
-لكنها المرة الرابعة يا سيدي.
قالها العامل باستنكار وهو ينظر إليه وكأنه رجل فقد عقله، فقال الدكتور محمد شاهين في حزم:
-وماذا يضيرك ما دمت سوف أدفع، أعد غسلها من فضلك كما لو كانت أول مرة، لكن أضف المزيد من المنظفات والمعطرات هذه المرة.
تنهد العامل في غير فهم قبل أن يركب السيارة في استسلام، ويقودها لداخل المغسلة ثانية، بينما اقترب فؤاد من محمد شاهين وسيجارة في فمه يدخنها رغم اللافتات الكثيرة التي تحذر من التدخين في محطة الوقود الموجودة حوله، غمغم فؤاد:
-ألا ترى أنك تقسو على العامل يا دكتور؟ السيارة نظيفة بالفعل هذه المرة وقد كفت رائحة الجثث اللعينة من الانبعاث منها.
-كلا، هنالك بعض الرائحة مازالت عالقة بها، ومن المستحيل أن أقودها وهي هكذا.
ثم أشار للعامل وهو يقول:
-أما عن العامل فسوف أمنحه بقشيشًا لم يحلم به من قبل، فقط ليعيدها نظيفة كما كانت.
نظر فؤاد إلى ساعته التي أشارت إلى منتصف اليوم، وإلى السماء التي أظلمت وقد ازدادت سرعة الرياح منذرة بالمزيد من الأمطار قبل أن يقول:
-إننا هنا منذ أكثر من ساعة، ولم نذهب بعد إلى أي من الدكتور نعيم أو الدكتور مصطفى بعد. لن نمضي اليوم كله في محطة الوقود هذه.
-وأنا لن أتحرك قبل أن تعود سيارتي كما كانت.
قالها محمد شاهين في عناد طفولي، فرمقه فؤاد في تعجب حقيقي، ما لا يعلمه فؤاد أن إحدى أهم هوايات محمد شاهين الأثيرة اقتناء السيارات الفخمة، وأنه يحرص بنفسه على صيانتها ونظافتها طوال الوقت، وكان أكثر ما يعكر مزاجه أن تصاب إحدى سياراته بخدش ولو

بسيط، لهذا لم يفهم إصراره على المكوث بالمكان حتى ينتهي العامل من تنظيفها تماما، رغم الأمور الهامة التي عليهما فعلها معا. عصفت الريح فدفعته بقوة، فشعر بالبرد، وغمغم:

حسنا، لننتظر حتى ينتهي العامل المسكين من غسلها ثانية، وأتمنى أن تكون هذه هي المرة الأخيرة، والآن ما رأيك في كوب آخر من الشاي أو القهوة الفرنسية؟

لا بأس، لكن لا تنس أن تأتي بزجاجة ماء كذلك.

اتجه فؤاد إلى الكافتيريا الصغيرة الملحقة بمحطة الوقود لشراء المشروب، بينما عاد محمد فؤاد لمقاعد الانتظار داخل المحطة وقد أشعل غليونه وراح يدخن ببطء، كان متوترا أكثر منه غاضب، وكان يشعر باليأس من النجاح في تلك القضية، كانت رومية تسبقهم دوما بخطوة ولديها كل المقدرة والقوة على تنفيذ تهديداتها، كما أنه لا يعرف حتى هذه اللحظة وسيلة فعالة لردعها أو حتى تحجيم قواها أو إعاقتها، ما الذي يمكنه أن يفعله مع قوى قديمة شريرة كهذه، هل يقدر هو أو فؤاد أو حتى جيش كامل من البشر على منعها من تنفيذ انتقامها الذي بدأته؟ بالطبع لا. ما لا يدركه فؤاد أنه يخشى المواجهة، ويخشى أن يذهب معه إلى الدكتور نعيم أو الدكتور مصطفى فيجدهما مقتولين، لقد حدث هذا في مشرحة زينهم حين هاجمتهم الجثث فقتلت أحد رجال الشرطة ثم في منزل جمال حيث اختطفت ثلاثة رجال آخرين من الشرطة. قبل أن يموت ذلك الضابط الشاب في دار المحفوظات ومعه أمين الشرطة الشاب. إن كل مواجهة معها تعني موت المزيد من الأبرياء، لو كان انتقامها حتميا فلتنفذه فيهم، ليموت الرجال الخمسة الباقين على قيد الحياة لو كان هذا هدفها، في النهاية جميعهم قد تخطوا العقد الثامن من أعمارهم وموتهم في أي لحظة غير مستبعد. لكن عليهم ألا يكونوا لعنة لمن حولهم، وعليهم ألا يتسببوا في مقتل المزيد من البشر.

في الكافتيريا انتظر فؤاد أن يجهز له عامل البوفيه ما طلبه، وابتعد قليلا منه وهو يتصل بهاتف زوجته المحمول، وقال لها فور أن أجابته:

-كيف حالك وكيف حال .. الآن.
-إننا بخير، وإن كنت لازلت لا أفهم لماذا أخرجتنا من البيت في منتصف الليل وكأن الشياطين تطاردنا.
-ربما كان هذا ما حدث.
-ماذا تقصد يا فؤاد؟ هل تسخر مني أم ترغب في إرعابي.
-هايا، اهدأي من فضلك، أخبرتك أنني أعمل على قضية خطيرة، وأن هناك من يلاحقني، وشعرت أنه قد يلاحقكم كذلك ليعوقني عن استكمال عملي، ولهذا فكرت في أن انتقالكم لفيلا أبيك أكثر أمانا في هذا الوقت، وهناك من يحرسها طوال الوقت.
-يمكنك أن تخبر أبي بالأمر، وربما ساعدك، أنت تعرف من يكون أبي.
-ومن في مصر بأكملها لا يعرف سيادة اللواء والدك، وما يقدر على فعله، لكن ليس هذه المرة. فقط عديني ألا تدعي ريم بمفردها أبدا، وأن تحرصي على تشغيل القران في حجرتها طوال الوقت.
-ما الذي تخفيه عني يا فؤاد؟
أشار له عامل البوفيه أنه قد انتهى من تجهيز ما طلبه، فأومأ له برأسه أنه قادم، ثم أجاب زوجته في نفاد صبر:
-تعلمين أنني لا أتحدث عن أسرار عملي مع أي أحد. ألم نتفق على هذا من قبل؟
-لكننا لم نتفق على هذا الصمت الذي نعيشه سويا، نحن تقريبا لا نتحدث إلا بشأن ريم، غير هذا لا ألقى منك غير الوجوم والصمت، لقد صرت أشعر أنني مجرد مربية تحافظ على ابنتك وتمنحك بريقا اجتماعيا جذابا.
-إذن فهو شجار جديد، وأنا غير مستعد له ولو للحظة، اعتني بنفسك وبالفتاة، إلى اللقاء.
ثم أغلق الهاتف قبل أن تجيبه، واتجه إلى عامل البوفيه ليحضر المشروبات، كان يعلم أن شجارا عنيفا سيكون بانتظاره حين يعود، لذا هتف في قرارة نفسه في سخط:

اللعنة، كم كنت أحمقا حين فكرت في الزواج منها.
رمقه عامل في دهشة وقال:
- هل قلت شيئا يا سيدي؟
- لا، لا شيء، كم حسابك.
عاد فؤاد حاملا زجاجتي ماء وكوبين من الشاي، شكره محمد شاهين والتقط كوب الشاي ووضعه على المنضدة الصغيرة التي أمامه، ثم فتح زجاجة الماء وتجرع منها بضع رشفات قبل أن يغلقها ثانية ويضعها أمامه، بينما أشعل فؤاد سيجارة ليشربها مع الشاي وقال بعد أن جلس إلى جواره:
- والآن ماذا سنفعل؟
ارتشف محمد شاهين بعض الشاي وهو يحيط الكوب الورقي بكلتا كفيه ليستعير بعض دفئه، قبل أن يجيب:
- أرى أن نذهب إلى الدكتور نعيم أولا، إنه يسكن في فيلا بالشروق، بينما يعيش الدكتور مصطفى في الإسكندرية.
- أخشى أن تصل إليهما تلك اللعينة قبلنا وربما فعلت بسيارتك هذا لتعوقنا عن إنقاذهما.
- كل شيء محتمل.
ثم جاء عامل المغسلة ليخبره أنه قد انتهى من غسيل السيارة للمرة الخامسة. هذه المرة كادت رائحة الفورمالين أن تختفي كليا من السيارة، لذا ورغم أنه كان يرغب في غسلها مرة أخرى أخيرة، إلا أن الدكتور محمد شاهين رضخ لنظرات فؤاد المحذرة، ونظرات عامل الغسيل المتوسلة، وقرر أن يكتفي بالمرات الخمس، نقد العامل مائتي جنيه كبقشيش، فرمقه العامل النحيف في ذهول قبل أن يدعو له كثيرا، راق لفؤاد كرمه لكنه لم يعقب وهو يدخل السيارة، بينما أشعل محمد شاهين المحرك وهو يقول في ضيق حقيقي:
- يا لسيارتي الجميلة المسكينة.

ثم تحرك بها، وقد بدأت السماء في الإمطار ثانية، بينما أخرج فؤاد
هاتفه المحمول وأرسل رسالة إلى زوجته صافي:
"انتظريني الليلة".
راحت ألسنة البرق تضرب السماء في عنف وهزيم الرعد يهدر كالاف
القنابل، راح فؤاد يراقب السماء في توتر، بينما راحت المساحات
تتحرك في جنون على زجاج السيارة لتبعد السيول المنهمرة، منذ
طفولته كان فؤاد يخشى البرق والرعد، ومازال يذكر كيف كان يختبئ
وهو صغير أسفل الفراش في رعب وهو يبكي حين يسمع الرعد أو يرى
البرق، طوال عمره تؤرقه فكرة السير أسفل المطر ثم يصيب رأسه لسان
من البرق فيحيله رمادا في الحال، كانت نوعا من الفوبيا السخيفة لكنه
لم يقدر على إبعادها عن رأسه، لذا كان يفضل في تلك الأيام الشتوية
التي يكون فيها عواصف رعدية أن يلازم بيته أو حتى مكان عمله، ولا
يغادر مكانه إلا حين تصفو السماء، وقال فؤاد في توتر:
-أليس من الخطر القيادة وهناك عواصف رعدية؟
-ليس ونحن في السيارة، إطارات السيارة المطاطية تصنع عازلا ممتازا
من الكهرباء، الخطر الحقيقي سيحدث حين نترجل أو نسير في العراء.
ثم لاحظ بطرف عينيه كيف يرتعش جفنا فؤاد وكيف تعرق جبينه رغم
البرد فاستطرد:
-أسترا فوبيا (Astraphobia).
-ما معنى هذا؟
- رهاب البرق، astra تعني البرق، و phopia تعني رهاب، أرى أنك
تعاني من رهاب البرق.
-لا شأن لك بي، ولا تفكر في ممارسة علم النفس معي ثانية.
-هذا عملي يا فتي، أنا طبيب نفسي ومن العسير أن ألقى عرضا نفسيا
وأتجاهله، كما أن الأمر لا يدعو للخجل، فرهاب البرق ثالث أشهر أنواع
الفوبيا في أمريكا ويصيب نحو ثلاثة ملايين شخص فيه.
- أنا لا أعاني من شيء، قد سيارتك بحرص يا دكتور، ولا تشغل بالك بي

من فضلك.

ثم أجفل حين أبرقت السماء وهو يتحدث، فنظر للناحية الأخرى ليبعد وجهه عن محمد شاهين، وبتلك السرعة المتوسطة التي يسير بها الدكتور محمد شاهين، احتاج الأمر لساعة كاملة حتى بلغوا فيلّا الدكتور نعيم، كانت شوارع المدينة الجديدة شبه خالية إلا من بضع سيارات قليلة تتحرك وسط الأمطار في حذر وبطء، اقترب من الفيلّا الرابضة أسفل المطر في سكون، ثم فضل الدكتور محمد أن يهبط هو من السيارة وليس فؤاد وخاصة أن العاصفة الرعدية لم تنتهي بعد. راح يطرق الباب المعدني في عنف، وهو يرفع ياقتي معطفه اتقاء للهواء العاصف والمطر الشديد. مضت نحو الدقيقة قبل أن يظهر شاب أسمر البشرة من الداخل. سأله عما يريده ثم فتح لهما الباب. صف محمد شاهين السيارة أمام الدرج المؤدي للطابق السفلي من الفيلّا، ثم خرج هو وفؤاد الذي اندفع في سرعة ليدخل الرواق المؤدي لباب الطابق السفلي، لحقه محمد شاهين والبواب الشاب، كان باب الفيلّا مواربا وليس مغلقا، فقال محمد شاهين للبواب:

-هل اعتاد الدكتور نعيم ترك باب الفيلّا مفتوحا؟

-كلا يا سيدي، إنه يغلقه بالمفتاح خلفه طوال الوقت.

هنا تدخل فؤاد في الحديث فعرفه بنفسه وقال في حزم:

-قف هنا ولا تدخل مهما حدث.

ثم دفع الباب ودخل الفيلّا وقد أشهر سلاحه في تحفز، كانت هناك رائحة شواء خانقة تفعم المكان، تقدم قليلا ليرى مقعدا خشبيا في مواجهة المدخنة وهناك رأس عجيبة تطل مؤخرتها في مواجهتهم، اندفع الدكتور محمد شاهين نحو المقعد، وهو يهتف في ذعر:

-الدكتور نعيم.

وأمام المقعد شعر بغثيان لا حد له، وهو يرى جثمان الرجل وقد احترق جلده بالكامل وتسلخ في بعض أجزاءه وقد ظهرت أسفله طبقات من اللحم المشوي، وشهق محمد شاهين وهتف:

-يا إله السماوات.
بينما لم يتمالك فؤاد نفسه، ووجد نفسه يفرغ ما في أحشائه التي لم تحتمل بشاعة ما يراه ورائحة الشواء اللعينة تملأ صدره، في تلك اللحظة أقسم انه لن يقرب لحما مشويا بعد الآن، انتبه بعدها وهو يمسح فمه إلى صوت محمد شاهين وهو يصرخ:
-يا إلهي، إنه حي. صدره يعلو ويهبط.
قاوم غثيانه ونظر إلى الجثمان، مدققا. بالفعل الصدر يعلو ويهبط في حركة واهنة غير ملحوظة، ثم رفع رأسه نحو وجه الرجل وقد راحت شفتاه الداميتان تتحركان وكأنه يرغب في قول شيء ما.
هتف الدكتور محمد شاهين بصوت قوي:
-نحن هنا يا دكتور نعيم، سوف نطلب الإسعاف حالا.
ثم قرب أذنه من شفتي الرجل وكتم أنفاسه كي لا يشم رائحة الشواء القوية الصادرة من لحمه، قبل أن يرفع وجهه وينظر إلى فؤاد بوجه ممتقع، فقال له الأخير متسائلا:
-ماذا يقول؟
ابتلع محمد شاهين ريقه، قبل أن يغمغم في اقتضاب:
-اقتلني!

(22)

بعد ثلاث مرات من محاولة الاتصال بفؤاد، أدركت صافي أنه لن يجيب، فكرت، ربما كان مشغولا في إحدى قضاياه، وربما عدل عن زيارتها تلك الليلة كما يفعل أحيانا، فكثيرا ما يعدها بالمبيت معها وفي اللحظة الأخيرة يتصل بها ليعتذر عن القدوم وهو يعدها بيوم آخر قريب. رمقت المكان وقد رسمت على شفتيها ابتسامة متهكمة، كانت فيها تسخر من نفسها. مرة أخرى تنتظره ولا يأتي، كانت قد غادرت المستشفى حيث تعمل كطبيبة أطفال مبكرا، لتستعد لقدومه، جهزت الطعام الذي يفضله، لحم مشوي مع عصير الأناناس الاستوائي الطازج

الذي يعشقه، أطلقت معطرات الجو في كل الشقة، وشغلت المدفأة الكهربائية، ثم عدلت من زينتها وارتدت فستانا بلون السماء طويلا عاري الكتفين. وحين انتهت، شغلت عبر سماعات داخلية مجموعة من أغاني فيروز التي يفضلها. جلست لنحو الساعة على مقعد المائدة في سكون تام بعد أن أطفأت الشمع الذي كانت قد أوقدته ليصنع جوا رومانسيا في المكان، رفعت رأسها إلى ساعة الحائط التي أعلنت العاشرة مساء بدقات خافتة متتالية، فنهضت بتثاقل نحو حجرتها، رمقت وجهها الجميل الفاتن المحبط في مرآتها بمرارة، ثم خلعت الفستان عن جسدها وارتدت ملابس نومها واتجهت نحو الفراش لترقد فوقه في إحباط، جالت بخاطرها في تلك اللحظة كل ذكرياتها مع فؤاد، عرفته قبل نحو خمس عشرة عاما، كانت في بداية أعوامها الجامعية في كلية الطب وكان هو طالبا في كلية الشرطة، حيث عاشا في نفس الحي، وكان حينها جريئا فلاحقها كثيرا، دون أن يظفر منها بشيء، بل كانت في الواقع تزجره دوما وتهدده بإخبار أسرتها بما يفعله، في النهاية لم يكن أمامه غير طريق واحد ليصل إليها، فذهب إلى أبيها ليطلب يدها.

باركت عائلته وعائلتها الخطبة، واتفقنا على تأجيل الزواج لحين انتهائهما من دراستيهما، حينها وهبته مفاتيح قلبها وقد غرقت في غرامه، عاشت سنوات من السعادة وهي ترى كيف يحبها ويجتهد في إرضائها، الكل كان متأكد أن الزواج قادم لا محالة، ضابط وسيم وطبيبة حسناء وأسرتان تباركان الزواج وحب جم يجمعهما، فما الذي يمنع اكتمال قصتيهما بالنجاح؟

ارتجفت وقد هدر الرعد بغتة وسطع ضوؤه المفاجئ عبر خصاص النافذة، كانت العاصفة الرعدية في أوجها الآن، أمطار بلغت درجة السيول ورعد وبرق لا يفارق صفحة السماء. راحت قطرات المطر تضرب جدران الغرفة في صوت رتيب ومن بعيد أخذت الريح تضرب إحدى النوافذ غير محكمة الغلق بالحائط في قوة، أغلقت صافي عينيها في قوة كيلا ترى البرق ثم دارت بجسدها لتواجه الجدار المقابل للنافذة

كي لا ترى انعكاس البرق عبر النافذة المغلقة، تذكرت أن فؤاد يخشى البرق والعواصف الرعدية منذ صغره، أيكون هذا السبب في أنه لم يأت الليلة؟ ربما، ثم تذكرت إجابة السؤال السابق الذي طرحه عقلها. لماذا لم يتزوجها حينها؟

هل هو الطمع، أم الطموح، أم أن الحقيقة أن حبهما حينها قد أصابه الملل، أخبرها فؤاد حينها فجأة، أنه لا يستطيع إكمال علاقته بها، وأن هناك أخرى. ورغم أن الأمر حدث بلا أي مقدمات أو دلائل تشير لما حدث، فقد استقبلت قراره بابتسامة جوفاء، وبرود عجيب. كل ما فعلته هو أن خلعت الدبلة من كفها ووضعتها على الطاولة أمامه وغادرت المكان في صمت تام، لم يحاول تبرير ما فعله لها، ولم تحاول معرفة السبب أو حتى اتهامه بخيانة حبهما أو خيانتها هي نفسها. رغبت في ألا تكون النهاية المفاجئة درامية وهي التي تمقت الدراما في النهايات حد الموت. لكنها في حجرتها وعلى فراشها عاشت أقسى أيام عمرها كله، نحل عودها وشاخ وجهها، وانطفأ البريق من عينيها، وزال شغفها بالحياة مرة واحدة، في تلك الأيام ظهر ممدوح، طبيب يكبرها ببضعة أعوام رغب في الزواج منها، لم تتردد ولو للحظة حينها، حتى حين أخبرها أنه يمهلها بعض الوقت لتفكر في الأمر أخبرته بثقة أنها توافق.

حتى الآن لا تدري لماذا قبلت بالزواج منه وهي التي لم تفكر فيه يوما ولم تحبه، بل ولم تشعر قبلها نحوه بأي عاطفة إيجابية، هل كفرت حينها بالحب فقررت أن تمنح نفسها لأول من يطرق بابها طلبا للزواج، أم تراها رغبت في معاقبة نفسها بالزواج من رجل لا تحبه لأنها أحبت يوما رجلا لا يستحق، أم أنها تزوجت لتنسى فؤاد وخاصة أنها علمت أنه قد تزوج بعد أن فارقها ببضعة أشهر؟ إنها لا تعلم.

لم تكن حياتها مع ممدوح مستقرة، وشابها تأخر الإنجاب، خاضا سويا دوامة الفحوصات اللعينة المعتادة في مثل تلك الأمور، قبل أن تخرج النتيجة أنه من العسير على رحمها تقبل جنين. وبعدها بمدة قصيرة أخبرها ممدوح أنه يرغب في طفل وأن الانفصال هو خير قرار لهما.

يومها رسمت على وجهها نفس الابتسامة الباردة التي قابلت بها فؤاد حين أخبرها برغبته في الفراق، واكتفت بكلمتين فقط:
"لا بأس!".
انهمكت في عملها ودراستها، فحصلت على درجة الماجيستير في طب الأطفال، ثم بدأت في دراسة الدكتوراه، انتقلت للحياة في القاهرة، لتكون قريبة من مكان عملها الجديد وكليتها التي تدرس بها كما أخبرت أهلها، لكن الحقيقة أنها كانت ترغب في نسيان كل شيء متعلق بحياتها السابقة. أرادت أن تبدأ بداية جديدة تماما لا مكان فيها لذكريات مريرة تجترها أو رجال يؤذون قلبها، مضى عام كامل قبل أن تجده يوما أمامها في المستشفى التي تعمل بها، قال لها أنه بحث عنها طويلا، فلم تسأله لماذا كان يفعل، طلب منها أن يراها ثانية فقالت في هدوء:
"ولم لا؟".
تعددت اللقاءات بينهما، دون أن تسأله لماذا هجرها ولا لماذا عاد إليها، والعجيب أنها لم تتوقف للحظة لتسأل نفسها لماذا تقابله وما الذي تنتظره منه. في النهاية طلب منها الزواج، فلم تمانع حتى عندما أخبرها أن هذا سيكون في السر لبعض الوقت حتى يرتب أموره مع زوجته.
والآن ها هما متزوجين منذ نحو العامين دون أن يتغير شيء، فلا هو أخبر زوجته ولا أخبر العالم بزواجه بها كما وعدها، ولا هي احتجت كثيرا على مثل هذا الوضع. فقط كل ما كان يزعجها عدم قدرته على المجيء لها بصورة منتظمة، بسبب عمله تارة وزوجته تارة أخرى.
شعرت أن عقلها غير قادر على التفكير أكثر من هذا فأغلقت عينيها بقوة وكومت الغطاء فوقها وراحت تعد من واحد حتى الألف. كانت تلك طريقتها السرية الأثيرة لطرد الأفكار المزعجة عن رأسها والوقوع في براثن رسل النوم، وككل مرة نجح الأمر فغلبها النعاس. وفي الحلم كانت هناك امرأة أخرى فاتنة تتأبط ذراع فؤاد، وتدخل معه شقتها وهي تصرخ في وجهها "إنه ملكي الآن، وحان الوقت لتبتعدي عنه". شعرت بالخوف منها فلاذت بالصمت ولم تحاول محاربتها على زوجها. فجأة تحولت

المرأة لثعبان ضخم، التف حول فؤاد ثم فغر فمها الواسع وراحت
تبتلعه من رأسه حتى اختفى جسده داخله. الغريب أن فؤاد ظل مبتسما
سعيدا حتى النهاية، ولم يقاوم تلك المرأة. راحت صافي تلهث في رعب
حقيقي وتتحرك للخلف محاولة الهرب، لكن المرأة التي تحولت لثعبان
الآن التفتت إليها ونظرت إليها بعيون مشقوقة من نار ثم قالت لها:
"والآن تقدمي يا حلوة، إنه دورك".

ثم اتسع الفم الهائل وانطلق نحوها في لمح البصر، ليبتلع رأسها وتظلم
الدنيا في عينيها، و. ..

واستيقظت دفعة واحدة، في نفس اللحظة التي هدر فيها الرعد،
فارتجفت، انكمشت أكثر حول نفسها في الفراش وغطت وجهها
باللحاف وكأنما تختبئ من عدو خفي، غمغمت في سرها وهي تنتحب في
صمت: "أين أنت يا فؤاد، ولماذا تصر على تركي وحيدة وقت الحاجة
إليك؟!".

مضى بعض الوقت حتى ذهب خوفها، وراحت تتابع بأذنها صوت
دقات المطر التي تضرب النافذة بلا انقطاع، في النهاية عاد النوم
ليتسلل إلى عينيها، و. ..

انتبهت إلى ما يحدث حولها.

كان هناك من يجذب الغطاء عنها ببطء في إصرار!

ارتجف قلبها وراح يدق بسرعة، بينما تشبثت بالغطاء بكلتا يديها في
رعب.

من يفعل هذا؟

هل هو لص مثلا، أم أنه شيء آخر لا تجرؤ على ذكر اسمه.

جان مثلا .. أو عفريت ..

راح الغطاء رغما عنها ينحسر عن جسدها في بطء رغم مقاومتها. تمنت
لو ينتهي الأمر بسرعة، ولو حتى بموتها .. فقط لا تريد أن ترى وجه من
يجذب الغطاء عنها في صمت.

شعرت بالبرد يضرب وجهها وشعرها .. أغلقت عينيها بقوة ومازال الغطاء تجذبه تلك القوى العاتية في إصرار. كانت دقات قلبها في حدها الأقصى في تلك اللحظة .. ثم فارق الغطاء صدرها .. هدر الرعد مرة أخرى .. هنا راحت تصرخ في قوة من الرعب. وقد فتحت عينيها رغما عنها.

جذبت تلك القوى الخفية الغطاء بعيدا عن باقي جسدها دفعة واحدة. ثم وجدت فمها مغلقا رغما عنها لتصمت صراختها.

اعتادت عيناها الظلام فراحت ترمق ظلام الغرفة في ذعر لا حد له، من يفعل بها هذا؟

تسللت إلى أنفها رائحة العطر القوي المثير قبل أن تدرك أن الخطر ليس على الأرض.

إنه فوقها..

إنه في السقف.

جحظت عيناها وهي ترى تلك المرأة وقد تدلت من سقف الحجرة فوقها تماما، أقدامها ملتصقة بالسقف ورأسها للأسفل فوق رأسها. ورغم الظلام عرفت من تكون. إنها نفس المرأة في الحلم. نفس المرأة الفاتنة التي تحولت لأفعى وابتلعت فؤاد. ابتسمت المرأة المعلقة وهي تقول:

-أرى أنك قد تذكرتني، مرحبا بي في عالمك يا صافي.

ثم مدت يدها نحوها وهي تكمل:

-لكنك قد استيقظت قبل أن أتم عملي في حلمك يا صافي، وأنا لا أدع شيئا أقوم به في منتصفه دون أن يكتمل، ولهذا أنا هنا.

راح الظلام يزحف نحو عقل صافي في بطء. كان جسدها مشلولا تماما، ورأس المرأة يقترب من وجهها رويدا رويدا، انتبهت إلى أن جسد الشيطانة تحول لجسد ثعبان ملتصق بالسقف، وفتحت المرأة فمها باتساعه فرأت نابين عظيمين ولسانا طويلا مشقوقا، بينما صارت عيناها صفراوين مشقوقتين بالطول.

كان هذا أكبر من أن يحتمله أي بشر. وفقدت صافي الوعي ..
لحسن حظها ..
في نفس اللحظة التي فتح فيها باب الغرفة في عنف، وظهر فؤاد. تحول جسد الثعبان إلى ضباب على الفور، بينما ظلت رائحة العطر عالقة في فراغ الغرفة بقوة. صرخ فؤاد وهو يندفع نحو جسد صافي فاقد الوعي:
-صافي .. استيقظي .. هل أنت بخير يا حبيبتي؟
كان صدرها يعلو ويهبط في سرعة، إذن ما زالت حية، حمد الله في سره ثم احتضنها في قوة وهو ينظر حوله في رعب. كانت الرائحة العطرية المميزة لها تفعم هواء الغرفة، فأدرك ما حدث.
لقد كانت رومية هنا!
كانت في طريقها لقتل حبيبة عمره كله. وجد نفسه يصرخ في جزع وغضب ويأس وهو يحتضن جسد صافي بقوة:
-ماذا تريدين مني أيتها اللعينة؟

(23)

حين وصل يوسف إلى البيت كان جسده يرتجف من البرد والخوف معا، وضع الكاميرا على الطاولة، ثم أشعل المدفأة الكهربائية، ذهب إلى حجرة نومه وعاد حاملا بطانية ثقيلة أحاط بها جسده البارد ثم جلس أمام المدفأة المتوهجة في وجوم، ومازالت أسنانه تصطك ببعضها البعض، وقد سال أنفه. ببطء راح الدفء القادم من المدفأة يتسلل إلى دمائه وأوصاله وملابسه، فتوقف جسده عن الانتفاض. لكن قلبه ظل ينتفض، وراح يتمتم في خوف:
-أي شرك لعين ألقيت بنفسك فيه يا يوسف. لو كنت رجلا حكميا ما قبلت بتلك المهمة اللعينة منذ الوهلة الأولى.
الآن كان يعلم أن المبلغ الهائل الذي رصده كمال البهتيمي كمكافأة ليس إلا طعما لاصطياد أحد المغفلين كي يقوم بمهمة لعينة كهذه، وحتما لم ينعم أي رجل ممن سبقوه في تلك المهمة بأي مليم من تلك الأموال،

المشكلة الحقيقية هل مازال الانسحاب من تلك المهمة ممكنا، وهل تركه رومية بعد أن أبلغته بنفسها أنها تعرف أنه يراقبها ويصورها.
لكن السؤال المهم، من تكون تلك المرأة. وكان الجواب يلح على عقله بشدة، إنها تنتمي للجان أو الشياطين. هل تكون واحدة من الجان؟ لا يوجد ما يتعارض مع احتمال كهذا، لطالما سمع عن الجنيات التي عشقت بشرا وتزوجته، بعضهن اصطحبن الزوج للعيش معهن في باطن الأرض أو أسفل الماء كما تقول الحكايات، لكن ما المانع لو وافقت إحداهن على الحياة بين البشر فوق الأرض. في ألف ليلة وليلة هناك حكاية الملك لقمان الذي عشقته إحدى جنيات الماء وتركت قومها لتعيش معه على اليابسة وتنجب منه الأمير ريحان، أتكون تلك الحكايات مجرد خرافات، أم أنها حقائق لوثتها بعض الخرافات.
تذكر عقله عشرات الحكايات الأخرى التي سمعها أو قرأها وهو في مقتبل العمر، عن الجان المتشكل في هيئة عقارب أو قطط أو كلاب سوداء، عن الحرائق التي يحدثونها في البيوت فجأة، ولأن خياله واسع للغاية، ولأنه يتصف بالكثير من الجبن، فقد أدرك أي ساعات سود بانتظاره.
ماذا لو استيقظ بغتة ووجد قطا أسود يرمقه في الظلام بوحشية، ثم راحت النار بعدها تشتعل في الفراش والشقة؟
خيال مرعب مخيف.
لم انتبه لنفسه، ووجد جسده يرتجف وأسنانه تعود لتصطك ببعضها رغم أن المدفأة قد منحته كامل دفئها حتى أن بعض العرق قد بدأ يتفصد من جبهته. نهض وهو ينظر حوله في توجس وكأنه ينتظر أن تظهر رومية فجأة من أحد الأركان المظلمة في الشقة، ثم أشعل كل أضواء الشقة لتبدد أي بقعة قد تأوي ظلالا ما، لكن ماذا عن مصباح الحمام التالف منذ أكثر من شهر دون أن يغيره بفضل الكسل،
ووجد نفسه يهتف في إصرار:
-سأبدله الآن ولو كانت السماء تمطر شهبا.

ورغم البرد الشديد خارج الشقة فقد هبط إلى الشارع حيث ابتاع ثلاثة مصابيح، واحد للحمام والآخران احتفظ بهما للطوارئ. غمر الضوء الحمام الصغير كله فتنهد يوسف بارتياح ثم تذكر أنه لم يتناول أي طعام حتى اللحظة فشرع في إعداد شطيرة من الجبن مع كوب من الشاي الثقيل، وبينما يتناول طعامه في هدوء رن هاتفه، وعلى الشاشة وجد اسم كمال البهتيمي. تردد للحظة في الإجابة لكنه في النهاية أجاب.

-كيف حالك يا أستاذ يوسف هل أنت بخير؟

أجابه يوسف باقتضاب:

-أنا بخير.

-وماذا عن المهمة؟ هل بدأتها؟

تنهد يوسف وهو يجيب:

-تتبعتها منذ الصباح، ذهبت إلى النادي، وبعدها كانت في المتحف المصري.

بدا صوت كمال يعبق بالدهشة وهو يجيب:

-المتحف المصري؟ وماذا تفعل هناك؟

مرة أخرى فكر يوسف مترددا قبل أن يقول ببطء:

-لم تكن هناك بمفردها، كان معها رجل ما.

هذه المرة طال صمت كمال، فقط وصل صوت لهاثه إلى يوسف. ثم قال بصوت حازم:

-أرسل لي صورته على الواتس آب الآن، صورته بمفرده وليس صورتيهما معا، هل تستطيع فعل هذا؟

-امنحني دقيقة واحدة.

أسرع إلى الكاميرا وبسرعة وعبر تقنية البلوتوث نقل صورة واحدة كان الرجل فيها بمفرده، ثم نقلها عبر الواتس آب إلى حساب كمال البهتيمي، وقال:

-لقد أرسلت الصورة.

-أشكرك.

قالها كمال البهتيمي. وعلى شاشة هاتف يوسف ظهرت علامة زرقاء تشير إلى استلام كمال البهتيمي الصورة، فقال يوسف في فضول:
- هل تعرفه؟
- لا، ولكني سأعرفه حتما بعد قليل.
تنهد بعمق وكأنما يغالب اضطرابه قبل أن يردف:
- أشكرك على مجهودك، لكن هل يمكنك إرسال كل الصور مطبوعة على العنوان الذي منحته لك، ولا تنس ما حذرتك منه، إياك أن ترسل الصور عبر النت.
كان طلبا غريبا أمره به كمال حين قابله في الجريدة، وهو يزوده بعنوان بريد عادي ليرسل إليه الصور بعد طباعتها، لذا قال يوسف.
- لا تقلق يا أستاذ كمال، لكن بقي سؤال أخير.
- تفضل.
كان خاطرة ملحة أن يطرح هذا السؤال العجيب، لكنه لم يقاوم أن يسأله، فقال ببطء:
- هل أنت متأكد أن زوجتك بشرية؟
هذه المرة وصله صمت تام، حتى صوت أنفاس كمال لم يسمعه. ولنحو الدقيقة لم يقطع هذا السكون أي صوت ثم سمع يوسف صوت كمال وهو يقول في حزم:
- سأنتظر الصور يا أستاذ يوسف كما اتفقنا. إلى اللقاء.
وأغلق الاتصال دون أن ينتظر أي إجابة، نظر يوسف للهاتف في وجوم، هل كان مخطئا في طرح مثل هذا السؤال الغبي، ليس هناك من شك في هذا، فمن هو الرجل الذي قد يتقبل منك أن تسأله إن كانت زوجته بشرية أم لا، لكنه يقسم أن صمت كمال الطويل قبل أن ينهي المكالمة دون إجابته لم يحمل ذرة غضب واحدة أو حتى استنكار، الرجل حتما راودته تلك الشكوك بقوة، لكنه يخشى الاعتراف بهذا. رمق صورة الرجل الذي كان مع رومية للحظات، رجل وسيم فاتن أنيق في منتصف الأربعينات من عمره، رجل من الصعب أن تضعه في مقارنة مع رجل

آخر، فإلى جانب وسامته وأناقته، كانت هناك جاذبية غريبة تشع منه، بالطبع ليس غريبا أن تنجذب النساء إليه، لكن أن تفعل هذا امرأة متزوجة فهذا أمر شائن بلا شك.

استيقظ فضوله الصحفي، فقرر أن يعرف بنفسه من يكون، الخطوة الأولى أن يفتش عن أي معلومات عنه عبر النت، رفع الصورة مستخدما برنامج جوجل لرفع الصور، ثم ضغط على أيقونة البحث. مضت أقل من ثانيتين قبل أن تظهر محركات البحث العملاقة نتيجة التنقيب عن صور مماثلة، ظهرت الكثير من الصور التي لا تشبهه، لكن من بين عشرات الصور ظهرت صورة له، ضغط عليها ليجد عنوانا غريبا:

"طبيب نفسي يفتش عن الخوارق".

كان الخبر مجرد تحقيقا صحفيا ساذجا إلى حد ما، يتحدث فيه الصحفي عن الدكتور محمد شاهين أستاذ الطب النفسي السابق في جامعة القاهرة والذي يهتم بالخوارق، والذي ينتظر منه هذا الصحفي المبتدئ أن يوافق على عمل لقاء صحفي معه ليتحدث فيه عن خبراته مع وعد بنشر اللقاء في الأعداد القادمة من الجريدة. لكن كما يبدو لم يتم نشر أي لقاء بعدها.

غمغم يوسف وهو يعاود النقر في لوحة مفاتيح الكمبيوتر المحمول الخاص به:

-ليس مهما، المهم أني وجدت اسما.

كتب هذه المرة في خانة البحث اسم "الدكتور محمد شاهين"، وعلى الفور ظهرت عشرات التخمينات، واحد منها فقط كان يخصه، كان يتحدث عن عيادته وعنوانها، ومواعيد العمل فيها، مع صورة له يبتسم فيها في هدوء. إنه هو بلا شك.

هل عانت تلك المرأة من مشاكل نفسية مثلا فاضطرت لزيارته كطبيب نفسي بحثا عن المشورة قبل أن تتطور العلاقة لما هو أكثر، أمر مُحتمل يحدث كثيرا، لكن ماذا عن تلك المقالة السابقة التي تتحدث عن اهتمامه بالأمور الخارقة، شيء مثير للريبة مع امرأة هي الريبة نفسها.

نقل عنوان العيادة والهواتف المذكورة في الخبر في دفتر مذكراته، ثم
أوصل الكاميرا باللاب ليقوم بعرض الصور وتنقيتها وتهيئتها للطباعة
على الورق المقوى، راحت الصور تنتقل بسرعة إلى اللاب، وحين انتهى
بدأ في عرض الصور. وبعد أن اطمأن على جودتها طبعها باستخدام
طابعة فورية يملكها. ثم وضع الصور في مغلف كتب عليه العنوان
الذي أمره كمال أن يرسل الصور إليه، ثم هبط الدرج رغم المطر، ليلقي
بالظرف المغلق في أول صندوق بريد قابله. وحين عاد كان اللاب توب
ما زال يعمل، لم ينتبه يوسف لهذا، إلا حين أصدر جهازه رنينا غريبا،
وعلى شاشته كانت هناك صورة جديدة، صورة مريعة لم يقم أحد
بتصويرها.

كان يقف أمام جثمان خطيبته رانيا المعلقة إلى السقف بأنشوطة حول
رقبتها وقد تدلى لسانها خارج فمها، واسود وجهها، بينما حمل وجهه
في الصورة كل سعادة الدنيا والكثير من الوحشية والتشفي.

نهض مبتعدا عن اللاب كالملسوع، وهتف:

-كذب، كل هذا كذب، أنت لم تفعل أي من هذا يا يوسف، أجل، كل
هذا مجرد كذب.

ثم هز رأسه بقوة، لينفض انفعاله وهو يتراجع للخلف مبتعدا عن اللاب
وهو يكمل:

-يبدو أنك قد عدت ثانية للضلالات، وكل هذا وهم.

واندفع إلى الحمام، إنه يهذي بلا شك، وحتما سيتكفل حمام دافئ
بإيقاظ عقله، أشعل السخان الغازي، ثم جلس فوق قاعدة الحمام،
وهو يلهث في قوة، محاولا طرد تلك الأوهام من عقله، يبدو أن
اضطرابه بسبب تلك المهمة اللعينة سيوصله للجنون، لكن تلك
الصور التي رآها لم تحدث بالتأكيد، مضى بعض الوقت ثم انتبه فجأة
لنفسه وهو ساقط على أرضية الحمام، نظر حوله في إعياء شاعرا بالبرد
فرأى نافذة الحمام وهي مفتوحة ورائحة غاز الميثان تملأ الجو، نظر
إلى السخان فوجد الخرطوم الذي يمد السخان بالغاز قد انفصل عنه

بينما يصدر منه صوت خافت يوحي بأنه يلقي بالغاز في هواء الحمام
ورغم الوهن الذي يعتريه، إلا أنه تحامل على نفسه ونهض متجها إلى
الخرطوم وبما تبقى من قوته، أغلق قابس الغاز. ثم انهار ثانية أسفله،
كيف حدث هذا؟
ما يتذكره هو أنه دخل الحمام ليغتسل وأنه أشعل السخان لتدفئة
الماء، لكن وكما يرى، فخرطوم السخان كان يدفع غازاته المميتة في
الغرفة وهو كما يبدو قد فقد وعيه وكان ليموت لولا الشباك المفتوح،
لكن الشباك كان مغلقا حين دخل الحمام، فمن فتحه؟
وبينما كان قلبه يدق بعنف وألم، نهض متثاقلا وغادر الحمام نحو
الصالة، كانت شاشة اللاب في مواجهته وهي تومض بقوة غريبة، وحين
اقترب كانت هناك صفحة بيضاء مكتوب عليها:
"أنقذتك هذه المرة، لأن مهمتك لم تنتهي بعد".
وسقط في رعب نحو الأرض وجسده يرتجف، وبينما انكمش حول
نفسه، وراح يردد:
-كلا، لن أكمل هذه المهمة الملعونة، لن أكملها.
شعر هذه المرة أن قلبه قد توقف تماما، ثم سمع صوت أنثوي يعرفه
جيدا يهمس في أذنه:
-ستواصل المهمة يا يوسف، أو تموت رانيا كما رأيت.
واستدار بعنف حول نفسه ليرى من يكلمه، لم يكن هناك أي أحد غيره
في المكان، وبرعب جم نهض بسرعة إلى الراديو القديم وشغله بسرعة،
من حسن حظه أن مؤشره كان موجها لإذاعة القرآن الكريم، وسرى منه
فور عمله صوت الشيخ عبد الباسط عبد الصمد، فتسللت بعض
الطمأنينة إلى قلب يوسف، لكن خوفه لم ينقطع.

(24)

كان يشعر بإعياء لا حد له، ألقى محمد شاهين بجسده على أقرب مقعد
في بهو فيللته، وزفر في قوة، وكأنما يطرد إرهاق اليوم كله، قبل أن يغمغم

وهو ينظر للساعة التي أشارت لنحو الثانية عشرة صباحا:
يجب أن تعترف أنك صرت مسنا للغاية على تلك المطاردات والملاحقات، وخاصة في جو عاصف بارد كهذا. العمل بشكل متواصل يحتاج لشباب وليس لعجوز جاوز السبعين من عمره. لتكف عن المكابرة قليلا أيها العجوز ولا بأس ببعض التواضع.

مازالت السنوات العشر التي فقدها في حجرة الأسرار تزعجه، ولو قدر له الحياة بعد تلك المواجهة الرهيبة مع رومية فعليه أن يقوم برحلة استشفاء أخرى كي يستعيد قواه وبعض شبابه المفقود. هذا بالطبع لو لم تقض عليه رومية. لكن هل يملك حقا أملا في مواجهة كائن ملعون بالغ القوة كهذا؟

أن يشك.

المشكلة أنها تلاحقهم دوما، بل وتسبق خطواتهم بخطوة واحدة طوال الوقت، تعبث بهم وتثير الرعب في أنفسهم دون أن تترك خلفها خيطا واحدا يقود إليها. إنها عدو خفي، عدو قوي وقادر على فعل ما يريد، ومن المستحيل بالطبع أن تواجه عدوا لا تعرف أين يكون، وما هدفه القادم ولا كيف تواجهه. أشعل غليونه وراح ينفث دخانه في بطء وهو يفكر، هل الانتقام حقا ما يحرك مثل تلك الشيطانة، بعد كل تلك السنوات من المواجهة الأولى؟ من الصعب عليه تخيل شيء كهذا، ربما كانت رومية ترغب في قتل كل من واجهها من قبل، لكنها حتما لن تركن للهدوء بعدها، فبكل هذا الشر والقوة التي تملكها لابد أن تكون لديها مخططات أكثر أهمية من قتل مجموعة من المسنين المشرفين على الموت.

تذكر كتاب اللعنات مرة أخرى، وتذكر الراهب الذي كتبه والذي شاركه في رحلة عجيبة عبر الحلم، ربما حان الوقت للعودة إليه ثانية، لكن ليس الآن، إنه جائع، لهذا فليتناول طعامه ثم يعود لذلك الكتاب الرهيب ثانية.

ظهرت وداد في تلك اللحظة، رغم أنه لم يدعُها، كان قد اعتاد على هذا منذ سنوات كثيرة، فدوما يجدها أمامه حين يحتاجها، وكأنما يربطهما رابط خفي. قالت له دون أن تنظر إلى وجهه:

-هل أعد العشاء؟

-ليس قبل أن تخبريني، لماذا تتجاهلين النظر إلى وجهي؟

خفضت عينيها نحوه، وبدا على وجهها صراع من نوع ما وهي تقول:

-لأني أخافك. ألا تدرك هذا. تعلم كم أخاف من تلك الألعاب التي تمارسها ولا أفهمها، يوما تبدو شابا ثم بعد زمن تعود كهلا عجوزا، لتعود بعدها بعد قليل شابا مرة أخرى، هل تعتقد أن هذا العبث اللعين أمر طبيعي يمكن أن يعتاده المرء؟

-بالطبع لا، لكنك تعلمين جيدا أن هذا لن يؤذيك.

-لكنه يؤذيك، وأخشى أن أستيقظ يوما لأراك وقد دفعت ثمن العبث الشيطاني هذا، ما تمارسه أشبه بالسحر والسحر ملعون يا دكتور، ولا يجلب لصاحبه إلا اللعنة والوبال.

-هل تعتقدين أني ساحر؟

-أنا لا أعرف أي شيء، لكن ما يحدث لك لا يحدث لغيرك من البشر، وهذا مقلق.

-إذن لا تقلقي علي، واطمئني، ربما كنتِ محقة في كل ما ذكرته، لكني أقسم لك أنني لست بساحر، هل يريحك هذا، والآن هلا أعددت الطعام؟

التفتت لتعود للمطبخ لكنها توقفت للحظة وقالت دون أن تستدير إليه:

-بالمناسبة، قطك العجوز مازال مختفيا، ولم يظهر حتى الآن.

-لا تقلقي بشأنه أعرف أين يكون.

بدل ملابسه وتناول عشاءه ثم طلب من وداد أن تأتيه بالشاي في حجرة مكتبه، ذهب إليها وأشعل المدفأة الكهربائية أولا، فقد كان الطقس بارد جدا ودرجة الحرارة تقترب على الترمومتر المعلق على الحائط من

أربع درجات مئوية فقط، ولازالت السماء بالخارج تمطر، ومازالت العاصفة الرعدية في عنفوانها وتزأر من حين لآخر.

جلبت وداد فنجان الشاي ووضعته على المكتب ثم انصرفت دون أن تتفوه بأي كلمة، وقد أغلقت باب الحجرة خلفها، أوقد غليونه واسترخى في مقعده الجلدي الوثير خلف المكتب وهو يطلق ببطء حلقات الدخان، وقد أغمض عينيه وعاد ليفكر، هل من الصواب البحث عن باقي المشاركين في مواجهة رومية الأولى، لكنها قد قتلت جمال وزوجته ثم قتلت الدكتور نعيم، إذن هي لن تدع الباقين وشأنهم، لكن ماذا عن وسائل الموت المريعة التي تتفنن في قتل ضحاياها بها، مازالت الكلمة الشنيعة التي خرجت من فم الدكتور نعيم المحترق تتردد في أذنه حتى هذه اللحظة:

"اقتلني!".

كم هو مريع أن يتمنى المرء الموت ليتخلص من معاناته، من حسن الحظ أنها كانت كلمة الدكتور نعيم الأخيرة، فقد عادت روحه لبارئها بعدها مباشرة، كان رجال البحث الجنائي الذين أتوا بعدها للتحقيق في مقتله في غاية الذهول، لقد وجدوا بقايا ملابسه وساعة يده المحترقة في المدفأة، وكان هذا يؤكد أن جسده قد احترق داخلها، لكن السؤال المحير، كيف دخل المدفأة وكيف فارق كل ملابسه داخلها وخرج منها، بل وكيف كان جالسا على مقعده رغم أن الفحص الظاهري على جسده بواسطة الطبيب الشرعي أكد أن عموده الفقري مهشم تماما ومن المستحيل أن يحمل رأسه. بالطبع كانوا يفتشون في أسباب مادية، وقاتل أو سفاح بشري فعلها، لكنه هو وفؤاد كانا يعلمان الحقيقة، والشيء المخيف أن دوره قادم ولا يدري أي موتة وحشية ستختارها تلك اللعينة له.

انتهى من شرب الشاي وقاوم رغبة ملحة في النوم، وهو يخرج كتاب اللعنات من درج مكتبه، لمس غلافه البني المصنوع من جلد آدمي مدبوغ، وفتحه وهو يدمدم:

-كن كريما معي هذه المرة وامنحني أي أمل.
ولدهشته وجد صورة جديدة ظهرت في الصفحة السابعة، كانت صورة عجيبة راح يتأملها في دهشة،
كان الرسم يمثل تنينا وامرأة، وشموعا ومثلثا من العظام، وعينا فوق جسد المرأة تراقب وكتابات قديمة غير مقروءة، شعر محمد شاهين بالشغف، لم ير تلك الصور في الكتاب من قبل، كان يعلم أن الكتاب يمتلئ بالكثير من الأسرار وأنه لا يكشفها مرة واحدة، ما الذي يرغب الكتاب في كشفه له هذه المرة؟ راح يسترجع معلوماته، التنين في العقائد القديمة كان يرمز غالبا للشيطان، والعين ترمز للحكمة الأزلية أو السيطرة والتحكم، لكن ماذا عن المرأة، أتكون هي رومية؟ وهل معنى هذا أن الشيطان هو من يحركها مثلا؟
"وربما كانت هي من يسيطر عليه ويحركه".
أجفل بغتة حين ظهر الصوت من أمامه، رفع محمد شاهين عينيه بسرعة عن الكتاب ونظر إلى الشخص الجالس أمامه خلف المكتب، كان الراهب اليوناني، ومازالت العصا في يده، وهو ينظر إليه بهدوء، ارتجف قلب محمد شاهين للحظة من المفاجأة ثم قال:
-كيف ظهرت بغتة وكيف وصلت إلى هذه الغرفة.
أشار إلى الكتاب مبتسما وقال:
-ليس أنا من جئت لعالمك، إنه أنت من جاء لعالمي.
ثم أشار حوله وقال:
-انظر حولك.
نظر محمد شاهين حوله ليدرك أنه لم يعد جالسا خلف مكتبه، بل رأى جسده نائما وقد أراح رأسه فوق المكتب، بينما كان الكتاب البني مغلقا أمامه، وحين نظر حوله أدرك أن جسده يحلق في منتصف الحجرة، هل كان هذا نوعا من الإسقاط النجمي أم أنه يحلم؟ لكن الراهب عاد للحديث:
-أنت لا تحلم أيها البشري. ولسنا في حجرتك كذلك.

ثم وضع إصبعه فوق الكتاب وقال:

نحن هنا. والآن هل أنت مستعد؟

مستعد لماذا؟

الرحلة التي ترغب في خوضها، بعد أن دفعت الثمن، المعرفة.

الرحلة التي ترغب في خوضها، بعد أن دفعت الثمن، المعرفة.

هز محمد شاهين رأسه دون أن يجيب موافقا، فابتسم الراهب للحظة قبل أن تظهر دوامة غريبة من العدم بينهما وتبتلعهما، دوار عنيف اجتاح رأسه في تلك الرحلة، شعر أن روحه تجاهد لتفارق جسده نفسه وترحل بعيدا عنه. ودون أن يشعر راح يصرخ من الألم. ثم انتبه فجأة على صوت الراهب وهو يهمس محذرا:

صمتا. قد ينتبه إلينا أحدهم!

فتح عينيه ونظر حوله، كانا في مكان مظلم، استنزف مقلتيه ليرى أين هو، قبل أن يهمس:

أنا لا أرى أي شيء، أين نحن؟

راقب وانتظر في صمت أيها البشري وستعرف إجابة كل ما سألت عنه.

مضى بعض الوقت قبل أن تعتاد عيناه الظلام، ثم أدرك فجأة أنهما في حجرة بالغة الاتساع وإن كان الظلام يغمرها بشدة. بينما تربع في نهايتها رجل يرتدي ثياب الكهنة في وضع القرفصاء وقد أغمض عينيه ومد ذراعيه على امتدادهما فوق ركبتيه في وضع الكاتب المصري القديم. كان كاهن فرعوني يمارس شعائره في حجرة ما بأحد المعابد كما يبدو، كانت الرؤية قد تحسنت كثيرا في عيني محمد شاهين، فنظر حوله ليرى الجدران الحجرية المزينة بالنقوش البديعة، والأعمدة الضخمة والسقف الحجري شاهق الارتفاع، بينما قبع في المنتصف المذبح الحجري. وعلى جانبي الحجرة كان هناك خمسة من التماثيل الضخمة في كل جانب



رمق محمد شاهين النظر فأدرك أن الكاهن الفرعوني يشبه كثيرا شخصا يعرفه جيدا. إنه هو نفسه الراهب اليوناني، نظر إلى الراهب اليوناني وأراد قول شيء ما، لكن رأس الراهب تحركت للناحيتين وعيناه تأمرانه بالصمت. فعاد لمراقبة الكاهن، انتبه إلى أصوات خطوات قادمة من الخارج، ثم فتح باب الغرفة قليلا، قبل أن يأتي صوت من الخارج هاتفا:

-المجد لرع رب الشمس الأعظم.

جاوبه صوت الكاهن من الداخل:

-المجد لرع. ادخلوا أيها القادمون من بطون المعابد البعيدة. لدينا لكم الخبز الساخن، والماء البارد، والخمر المعتق والعسل الحلو والحليب الطازج.

المخيف أنهم تحدثوا بلغة يعلم محمد شاهين حد اليقين أنه لا يعرفها، إنها الهيروغليفية غالبا، ورغم هذا فهو يفهم حديثهم تماما. دلف الحجرة ستة من الكهنة مختلفي الأعمار، بعضهم عجوز للغاية وبعضهم في مقتبل العمر. الجميع كان يرتدي زي الكهنة الأبيض المصنوع من قطعة واحدة من الكتان، بعضهم كان زيه نظيفا ناصع البياض والبعض الآخر كانت ملابسه بالية قديمة، كان الجميع يتكئ على عصا تنتهي برأس صقر. التفوا حول الكاهن الأكبر الذي ظل جالسا وإن كان قد فتح عينيه ثم انحنوا برؤوسهم ببطء تحية له، فهز رأسه ليجيب تحيتهم، ثم جلس ثلاثة منهم على يمين الكاهن الأكبر والباقون على يساره في نفس شكل جلسته، مضى بعض الوقت قبل أن يقول كاهن عجوز في نحو التسعين من عمره:

-لسنا بمفردنا أيها العظيم المبجل "نبع رع"، أشعر بأنفاس غريبة تتردد في الظلام. هل دنس قدس الأقداس بعض الأشقياء التعساء؟

نظر الكاهن الأكبر نحو الناحية التي يقبع فيها محمد شاهين، والراهب اليوناني، وصمت للحظة قبل أن يقول:

-قدس الأقداس لا يدخله إلا الأخيار يا "كا رع"، إنها تعاليم رع المقدسة.

لقد رآهم بوسيلة ما، كان محمد شاهين متأكدا من هذا، التفت بقلق للراهب اليوناني فهز له رأسه مطمئنا. عاد الكاهن العجوز ينظر حوله في قلق وما زال غير مطمئن، قبل أن يغمغم:
-وماذا عن الجدران، قد تخترقها الجرذان لتخبر الأعداء عن اجتماعنا
-إن روح "بس" العظيم تطوف جول الجدران لتلتهم آذان الآثمين المتلصصين. لتنحي قلقك جانبا أيها الكاهن المبجل، وليطمئن قلبك. أغمض الكهنة عيونهم بعدها، ثم ارتفع صوتهم في أنشودة عذبة للإله رع:

"الإله رع المبارك .. زعيم القطرين، ذو القوة الجبارة .. الإله الذى خلق الأرض كلها ثم ارتفع فوق السماء .. ذو الأفكار الأعلى المتفوقة على كل إله .. إنه الإله الذى تبتهج الآلهة لجماله .. الذي يحمده البشر في المعابد ويعظمونه عند تقديم القرابين .. الذى تحب الآلهة رائحته عندما يرجع من بلاد بونت .. الذى تسجد له جميع الآلهة عندما يعترفون بجلالته كسيدهم الذى يزرع".

انتهت الأنشودة فأطبق الصمت على المكان، قبل أن يقول أكبر الكهنة للكاهن الأكبر:
-لماذا طلبتنا أيها المبجل "نبع رع"؟
-لا أحد هنا يجهل السبب.
همس كاهن شاب:
-هل هي الملكة؟
تنهد "نبع رع"، قبل أن يجيب:
-تمنيت ألا تمتد حياتي، لأشهد يوما نشكو فيه أفعال امرأة الفرعون العظيم.
جاء دور "كا رع" ليتحدث في بعض الغضب:
-وهل نفعل هذا وحدنا أيها المبجل، الكل يهمس ويشكو، الفلاحون في الأراضي، الصيادين في قلب النهر، العمال في المعابد والمقابر. إنها ابنة

"ست" التي دنست كل مقدس.
أغمض الكاهن الأكبر عينيه وكأنه يتذكر وهو يقول بصوت هامس:
-لقد خدعت "سخمت" الجميع بعد أن أسرتنا بجمالها القاتل، كذبت على الملك الشاب "نفر إير رع" وادعت أنها ملكة البربر، فتزوجها، كان علينا منعه حينها من الإقدام على أمر كهذا، لكننا لزمنا الصمت، والآن ندفع جميعا الثمن.
تحدث كاهن آخر في منتصف العمر، وقال:
-لو سمحتم لي لأخبرتكم بما يتهامس به الشعب. البعض رآها في الجبانات بعد المغيب تصحبها بنات آوى، والأمهات التي تلد يجدنها جوار المخدع وقد امتصت الدماء من أعناق الرضع قبل أن تلتهمهم، العذارى صرن يختنقن في نومهن، وخادمات القصر يهمسن لعشاقهن أن الملكة لا تستحم إلا بالدماء. أما حراس السجون فيقسمن أنهم يرونها في قلب الحجرات المغلقة على المجرمين والأسرى قبل أن تصير وحشا يلتهم هؤلاء البؤساء.
عاد الصمت ليغلف المكان، وفي ركنه المظلم المتواري خلفه دق قلب محمد شاهين في توتر، عن شيطانة أية يتحدث هؤلاء، هل تكون رومية من يقوم بكل هذا؟
عاد أحد الكهنة ليسأل:
-وماذا عن الملك، هل يعلم شيئا عن كل هذا؟
أجابه الكاهن الأعظم في أسف:
-الملك هو أول الضحايا، إنها لم تقتله كالآخرين بالطبع، لكنها ألقت على عينيه تعويذة ملعونة فصار لا يبصر شيئا من جرائمها، ولم يعد يهتم إلا بإرضائها.
-وماذا تقترح علينا أن نفعله، أيها المبجل "نبع رع"؟
-لنقوم بواجبنا يا خدم الإله، واجبنا الذي أقسمنا أمام الإله على القيام به، ألم نقسم على محاربة الشر وست وأعوانه، جميعنا فعلنا، والشعب بأكمله خائف منها كما ترون وينظر إليها بأعين دامية في انتظار أن نحميه

من هذا الشر العظيم. لو صمتنا على ما تقترفه من آثام فسوف يصيبنا
شرها يوما ما، وأخشى أن يعبدها البعض وقد رأوها قوى لا تقهر
-مرنا بما تراه صائبا وسنفعل.
قالها الكاهن الشاب في شيء من الغضب والحماس، فنظر إليه "نبع
رع" قبل أن يقول في تردد:
-الحل بسيط، لكن الثمن قد يكون أرواحنا جميعا، فالملك لن يصفح
حينها بلا شك، فهل أنتم مستعدون لمثل تلك التضحية العظيمة
-إذن فأنت ترى أن نقتلها.
هز الكاهن الأكبر رأسه بالإيجاب، فقال الكاهن العجوز "كا رع" وقد
ضرب الأرض بعصاه فتألقت بضوء فيروزي غريب:
-إنه واجبنا حقا، أنا معك أيها المبجل "نبع رع".
وانطلقت باقي الأصوات لتعلن موافقة الجميع، ثم قال الكاهن الأصغر
-هل أعددت حيلة ما لنفعلها يا سيدي، وهل نفعلها في القصر أم هنا
-لن نصل إليها في القصر، لكن لو فعلناها هنا فربما كانت هناك فرصة
انفتح الباب بغتة في تلك اللحظة لتظهر على بابه الملكة، كان جمالها
يتألق في الضوء خلف الباب، وانبعثت منها رائحتها الذكية العطرة
لتغمر الحجرة الواسعة، ورغم الزي الفرعوني الأنيق الذي يظهر الكثير
من جسدها وفتنتها ورغم العيون المغمورة بالكحل الكثيف، والشعر
المجدول في جدائل كثيرة صغيرة والتاج الذهبي فوق رأسها، إلا أن
محمد شاهين تعرفها على الفور.
إنها رومية بالفعل!
وخرج صوتها من فم ترتسم عليه ابتسامة قاتلة وهي تقول:
-ماذا أرى؟ كهنة رع العظيم يجتمعون في قدس الأقداس ليتآمروا على
الملكة زوجة الفرعون. ألا تعد هذه خيانة أيها المبجل " نبع رع"؟
نهض "نبع رع" من فوق الأرض وهو يشير إليها بعصاه في غضب:
-قفي بالخارج ولا تتقدمي أيتها الروح الملعونة، ولا تدنسي بقدمك
الآثمة قدس الأقداس وإلا أصابك غضب رع.

علت صرخات رهيبة تنبعث من خلفها في تلك اللحظة. كانت أصوات الكهنة الصغار وخدام المعبد، وكانت حيوانات بنات أوى والذئاب تدوي خارج قدس الأقداس وهي تفترس ضحاياها، بينما ارتسمت ابتسامة ساخرة على فم الملكة وهي تتقدم بقدميها داخل قدس الأقداس، وتقول باستخفاف:

-وماذا لو أخبرتك أنني لا أخشى رع هذا ولا أعبأ بغضبه.

هب باقي الكهنة من جلستهم وقد شهروا عصيهم في وجهها في تحفز، وقال أكبرهم "كا رع":

-لتحل عليك لعنته أيتها الملعونة إذن.

وضرب عصاه فصارت قطا أسود ضخم بعيون حمراء كالدم ارتفع برأسه حتى بلغ سقف الحجرة وهو يصدر مواء غاضبا ويطلق أنيابه في وجه الملكة في تحفز، تبعه باقي الكهنة وضربوا الأرض بعصيهم فصارت جميعها قططا ضخمة ملأت الحجرة، فرمقتها الملكة في استخفاف ثم قالت:

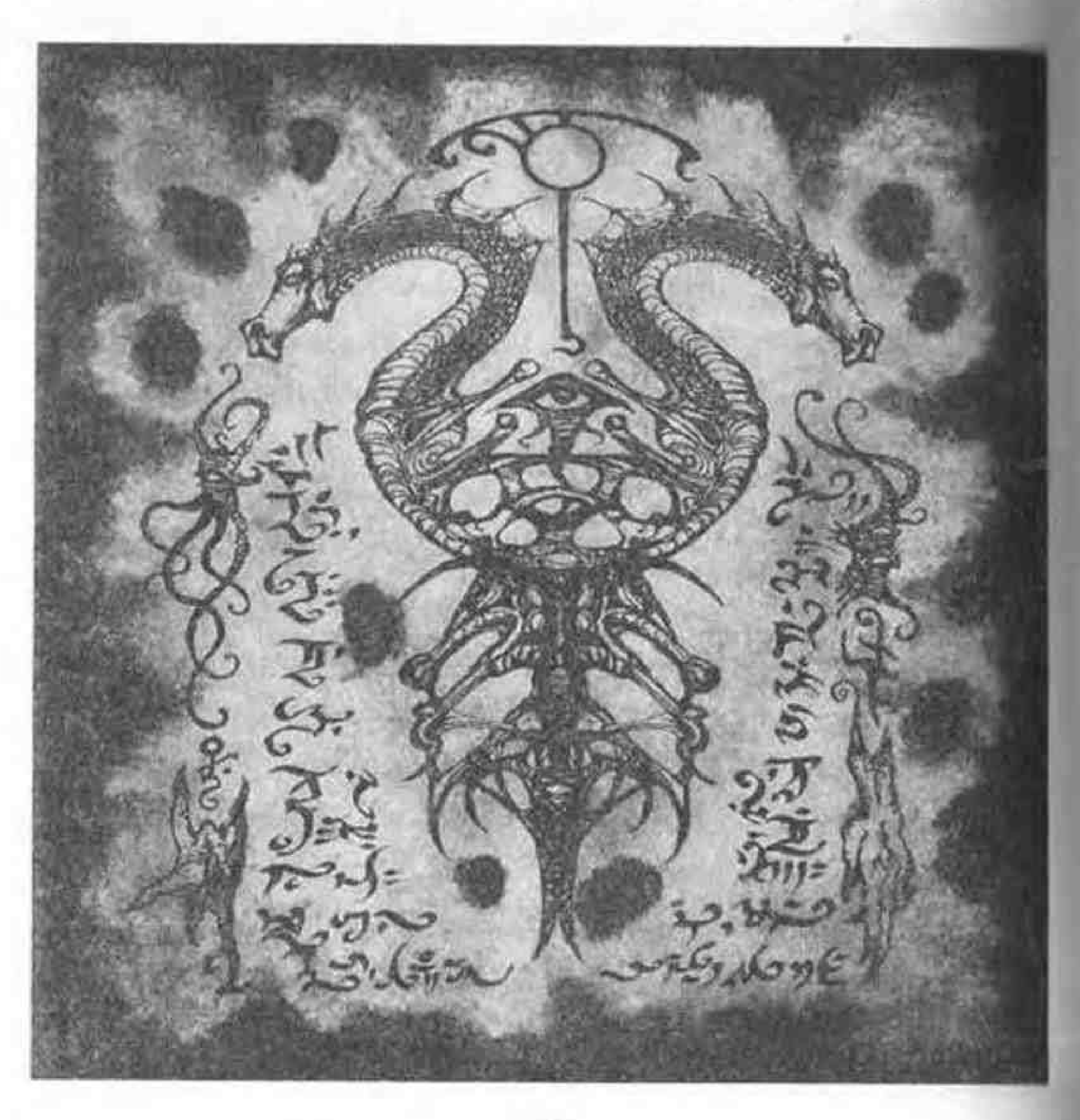
-عجبا. أهذا كل ما تستطيعون فعله يا كهنة رع العظام.

اندفعت نحوها القطط لتهاجمها في ضراوة وهي تبرز أنيابها العظيمة، في نفس اللحظة التي استطال فيها جسد رومية وهو يتحول لشيء آخر، وفي لحظة واحدة صارت أفعى أضخم بكثير من باقي القطط التي تهاجمها. أفعى لها رأسان على كل رأس فيهما قرنان صغيران بينما ينتهي الرأسان في جسد وذيل واحد، دارت معركة مخيفة بينها وبين باقي القطط، لكنها لم تستمر أكثر من دقيقتين، فبعدها راحت الأفعى تلتهم باقي القطط في شراهة. نظر إليها الكهنة في غير تصديق ورعب جم، أدركوا الآن أنهم أمام سحر لا قبل لهم به، وأطلقت الملكة التي اتخذت شكل الأفعى، لسانها المشقوق في وجوههم في نشوة، قبل أن تقول في صوت صار غليظا:

-والآن هل لديكم حيلة أخرى أيها الكهنة أم تعلنون هزيمتكم؟

رمق الكهنة بعضهم البعض في عجز، لكن "نبع رع" تقدم إليها وهو يهتف في غضب:
-لن يفلح سحرك أيتها الشيطانة، ولن تهزمي كهنة رع في معبده.
رفع بعدها ذراعيه عاليا باتساعهما، وهو يشير إلى التماثيل قبل أن يهتف:
-دمروها.
كانت للتماثيل رؤوس الحيوانات، برقت عيونها في ضوء لهبي مخيف ثم استدارت نحو الملكة التي مازالت في صورة أفعى، عادت الملكة لصورتها البشرية في تلك اللحظة وهي تقول:
-حتى هذه الحيلة البائسة لن تفلح أيها البشري.
ثم التفتت إلى التماثيل وهتفت:
-لا قتال.
انفجرت التماثيل جميعا في تلك اللحظة. وخلف الباب الخشبي لقاعة قدس الأقداس ظهرت الرؤوس المتوحشة للعشرات من الذئاب وبنات أوى والتماسيح، وقد تلوثت أفواهها بدماء ضحايا المعبد. وقالت "سخمت" في لامبالاة:
-اقتلوهم.
اندفعت الحيوانات في وحشية تمزق الكهنة السبعة في وحشية بينما كتم محمد شاهين أنفاسه في رعب حقيقي وهو يرى كيف راحت الحيوانات المفترسة، تنهش ضحاياها بلا رحمة وسيدتها تراقبها في جذل واستمتاع، قبل أن تلقي بنظرها نحو الركن المظلم الذي يقف فيه الراهب اليوناني ومحمد شاهين، هنا التمعت عيناها واتسعت ابتسامتها، لقد رأتهما مرة أخرى، شهق محمد شاهين في رعب ولم يتمالك نفسه، في نفس اللحظة التي جذبه فيها الراهب اليوناني وهو يهتف:
-حان وقت العودة.
و. .

ودفعة واحدة وجد محمد شاهين نفسه يستيقظ من نومه ويلهث في ذعر حقيقي، راح ينظر حوله للحظة وكأنما لا يدري أين يكون. ثم أدرك بعدها أنه مازال في حجرته، بمفرده، وقد اختفى الراهب اليوناني مرة أخرى. رمق الكتاب أمامه في ذعر ليراه مفتوحا على صورة لم تكن به من قبل، صورة امرأة وقد صارت أفعى. وحين دقق النظر أدرك أنها نفس الأفعى التي تحولت إليها رومية في الحلم.



(25)

لم يصدق محمد شاهين أن حلمه الغريب أو لنقل رحلته عبر الزمن قد استغرقت الليل كله، أدرك هذا حين انتبه إلى ساعة مكتبه التي أشارت لنحو السادسة وثلاث وعشرين دقيقة صباحا. العجيب أنه كان يشعر برغبة عارمة في النوم وإجهاد عنيف يطارد خلايا جسده وكأنه لم يحظ بالنوم لأيام طويلة. تحرك ببطء مغادرا حجرة مكتبه نحو حجرة نومه ليحظى ببضع ساعات أخرى من النوم رغم أنه من عشاق الاستيقاظ مبكرا، فكر في سبب لإجهاده العنيف هذا، هل ما رآه تم في يقظته ولم يكن حلما رغم أن جسده ظل في مكانه فوق المكتب، وهل تسبب الرحلة عبر الزمن البعيد مثل هذا التعب؟

ظهرت وداد خارجة من حجرتها بالطابق السفلي قبل أن يخطو أول خطواته فوق الدرج الداخلي، نظرت إليه بجزع وهي ترى أنه مازال بملابس الليلة الماضية وقالت:

-هل قضيت الليل كله في مكتبك؟

جاهد لينتزع ابتسامة من وجهه وهو يلتفت إليها قائلا:

-صباح الخير أولا يا وداد. أما عن إجابة سؤالك، فأجل، لقد قضيت بالمكتب طوال الليل أقرأ في بحث مهم.

-بحث مهم؟ لا يوجد شيء أكثر أهمية من صحتك يا دكتور، ألم تنظر للمرآة لترى كيف يبدو وجهك، عيناك حمراوان وجفونك مسودة منتفخة. أنت تقتل نفسك بتصرفاتك هذه.

-أعدك أن أهتم بصحتي المرة القادمة، لكن أتمنى لو تدعيني الآن لأظفر ببعض الراحة والنوم.

-وماذا عن الإفطار؟

-ليس الآن، فقط أرجو ألا توقظيني لأي سبب كان قبل الثانية عشرة ظهرا، من فضلك.

قالها وصعد دون أن ينتظر ردها. بدل ملابسه وألقى بجسده فوق الفراش قبل أن يشعر أن هناك شيء ما أسفل وسادته، مد كفه بحذر

يشعر بورقة سميكة أسفل أنامله. هب من الفراش كالملسوع ونزع الوسادة ليرى الورقة الجلدية المصنوعة من جلد مدبوغ. رمقها في شك لحظات قبل أن يمد يده نحوها بحذر ويرفعها نحو عينيه. من الوهلة الأولى أدرك مما صنعت تلك الورقة. من الجلد البشري، تماما مثل كتاب اللعنات، أدارها ليرى المكتوب فيها وهو يغالب تقززه ثم قرأ:

"صديقي الكهل الوسيم، ألا تعلم أن تلك الرحلات الزمنية التي تقوم بها مع كاهنك الأحمق خطيرة للغاية، لقد رأيتك في المرتين، ولم أشأ إيذاءك في أي منهما، لكني لا أعدك بنفس الشيء لو قمت بالأمر في المرة الثالثة، إن كاهنك الأحمق أضعف من أن يحميك أو يحمي نفسه، أنت بنفسك رأيت كيف قتلته مرتين، والحق أنني قمت بهذا مرات لا تحصى، كن عاقلا وكف عن محاولاتك الحمقاء في تتبعي، والآن ما رأيك لو أخبرتك أني أود أن ألقاك اليوم، سأنتظرك حيث ترغب في اللقاء، ولا حاجة لأن لتخبرني عن المكان، فقط اذهب إلى المكان الذي تحبه بعد عصر اليوم، وليكن في نحو الخامسة أو السادسة مساء، وستجدني بانتظارك، فإلى الموعد"

حاشية، لا تتأخر في التخلص من الرسالة فور قراءتها في الحمام، أنت تعرف لماذا" .

ورغم رهبته اندفع بالرسالة نحو الحمام وألقاها في الحوض فإذا بها تبدأ في الذوبان والتحلل على الفور قبل أن تصير سائلا لزجا تنبعث منه رائحة مقيتة، رمقها في نفور، قبل أن يفتح صنبور الماء ويلقي في الحوض بكمية كبيرة من سائل الديتول المطهر ليُذهب الرائحة.

عاد إلى الفراش وهو غير مصدق أنها قد بلغت حجرة نومه هذه المرة وها هي تترك له رسالة لتخبره أنها تعرف ما يقوم به وتنصحه بألا يكرره. بل وتدعوه للقائها وكأنما امرأة عاشقة تدعوا رجلها لقضاء وقت ممتع. بالطبع يدرك أنها لا تقوده إلى مصيدة ما بدعوتها تلك، فهي قادرة على الوصول إليه وقتما تشاء ولا حاجة بها لـ "اللف أو الدوران" لتنال منه، إذن لماذا تدعوه وماذا تريد منه حقا وهل يلبي دعوتها. أسئلة أرقته

لدقائق قبل أن تذهب مع النوم الذي أتى في النهاية.
في تمام الثانية عشرة طرقت وداد الباب قبل أن تدخل وتوقظه، فرك عينيه في إنهاك ومازال عقله يشتهي بضع ساعات أخرى من النوم، لكنها قالت:
-رجل الشرطة المدعو فؤاد بالأسفل ينتظرك منذ ساعتين، أخبرته أنك لن تستيقظ قبل الثانية عشرة ففضل الانتظار.
-حسنا، دقائق وسأهبط إليه.
اغتسل في عجالة ثم ارتدى ملابسه وهبط. وجد فؤاد يجلس فوق مقعده في نفاد صبر وتوتر وهو يدخن إحدى سجائره بينما امتلأت منفضة السجائر عن آخرها بأعقاب السجائر، فعاجله قائلا:
-مرحبا يا فؤاد، أعتذر عن التأخر، لكنني لم أحظ بالنوم ليلة أمس.
سأله فؤاد في قلق:
-هل واجهت أية متاعب؟
-ليس بالضبط، لكن ماذا عنك، أشعر أن لديك جديد ما.
أنهى فؤاد سيجارته بنفس عميق رشفه منها، وهو يجيب:
-لقد هاجمت صافي، زوجتي الثانية، من حسن الحظ أنني وصلت في الوقت المناسب وإلا وجدتها مقتولة. لكنها ظلت في ذعر جم طوال الليل.
-تبا، لقد زارتك في منزل زوجتك الأولى أول أمس، ثم عادت في الليلة الماضية لتهاجم زوجتك الثانية. هذا يعني أنها كالعادة تعرف كل شيء عنك، وأنها تعرف خطواتك. لكن أخبرني ماذا عن زوجتك الأولى أو ابنتك، هل هما بخير.
-الحمد لله هما بخير، لقد ذهبت إليهما في الصباح قبل أن آتي إليك، لأطمئن عليهما. فقط تصر الفتاة على أنها ظلت تحلم بامرأة جميلة تلعب معها طوال الليل.
-وماذا عن زوجتك الثانية، ماذا حدث لها.
قص فؤاد عليه ما واجهته صافي قبل أن يقول:

لقد جعلتها تعود لبيت أهلها كي لا تكون بمفردها ثانية، كما نصحتها بسماع القرآن الكريم طوال الوقت.
- حسنا فعلت.
تمتم فؤاد في توتر ثم غمغم:
- ألا ترى أننا نتخبط في الظلام يا دكتور. فحتى هذه اللحظة لا ندري حقيقة تلك المرأة اللعينة التي تهاجمنا، ولا أين تعيش ولا كيف نواجهها، كما لا نعلم ضابط الشرطة أو وكيل النيابة اللذين شاركا في التحقيق الأول. ومازال أمامنا الدكتور مصطفى الذي يحيا في الإسكندرية ولم نذهب إليه حتى الآن.
- لو شئت الحق لأخبرتك أنني أخشى أن نكون من يعجل بموتهم بالبحث عنهم، لو تذكر، فالدكتور نعيم كان مازال به رمق من الحياة حين وصلنا إليه، أي أنها قتلته قبل أن نصل إليه مباشرة.
- هذا لا يعني أن نكف عن عملنا، في مثل تلك الأمور الحتمية تعلمت أن أؤدي واجبي مهما تكن النتائج التي هي في النهاية مشيئة الله كي لا أشعر بالندم يوما على تقصيري في القيام بواجبي.
- ونعم بالله. حسنا، ليس أمامنا غير الذهاب إلى الدكتور مصطفى.
- لا أعتقد أن اليوم مناسبا للقيام برحلة كهذه، الأمطار صارت سيولا في طريق الإسكندرية الصحراوي وهناك جزء من الطريق قد انهار وقد منعوا السير فيه.
- وماذا عن القطار؟
- كل رحلاته هو الآخر معطلة حتى الصباح، لكنني حجزت مقعدين في قطار السادسة صباح الغد المتجه للإسكندرية، إنه القطار المميز وسوف يصل بنا إلى هناك في نحو الثامنة وعشر دقائق.
- حسنا، لنذهب بالقطار ولندعو الله أن تمهلنا رومية بعض الوقت ولا تقتله هذا اليوم.
انصرف فؤاد بعدها فأمر محمد شاهين وداد أن تعد الطعام له، وفي تمام الخامسة حسم تردده وقرر الذهاب للقائها، وضع مصحفه

الصغير في جيبه للحماية، فطالما أفلحت تلك الطريقة مع الكثير من الشياطين التي واجهها، وتأنق كعادته فارتدى بذلة إيطالية أنيقة، وسكب على جسده أحد عطوره الثمينة، ثم اتجه إلى فندق جراند حياة. وهناك صعد مباشرة إلى المطعم الدوار، حيث قاده أحد المشرفين إلى طاولة قرب الجدار الزجاجي، قدم له قائمة الطعام فأخبره محمد شاهين أن ينتظر بعض الوقت. كان المشهد جميلا لليل القاهرة المظلم مبكرا هذا اليوم والمثقل بالسحب العملاقة وقطرات خفيفة من المطر تنزلق على الجدار الزجاجي، يدور هذا المطعم حول محوره 360 درجة كل نحو خمس وسبعين دقيقة، وهذا يوفر مشهدا رائعا للضيوف. مضت بضع دقائق دون أن تظهر رومية، فتساءل محمد شاهين هل تأتي حقا؟ لكن تساؤله لم يطل فبعد أقل من دقيقة كانت تخطو نحوه بخطوات وئيدة فاتنة، جحظت عيناه في تلك اللحظة من هول فتنتها، كانت ترتدي فستانا أزرق طويلا ذا ذراع واحد، وقد انسابت شعرها الأسود حول وجهها كشلال من ليل بلا نجوم، تعلقت كل العيون بها، الرجال والنساء على السواء، كانت أجمل امرأة في العالم في هذه اللحظة، وفي تلك اللحظة نسي محمد شاهين حقيقتها تماما، لنقل أن فتنتها قد أسكرته تماما فغاب عقله، بلغت المنضدة التي يجلس عليها وفغر ثغرها عن ابتسامة تذهل العقول، وقالت ببطء:

-ألن تنهض لتحيتي؟

نهض على الفور وأزاح لها المقعد المقابل له وهو يقول:

-أعتذر. لكن فتنتك تذهب بالألباب.

جلست في رضا ورمقته وهو يجلس في ارتباك وقالت في صوت رخيم:

-أنت الآخر وسيم للغاية هذا اليوم،

حاول تمالك نفسه وهو ينظر حوله إلى العيون المعلقة به في حسد وفضول، وغمغم:

-أشكرك.

كان عطرها قويا للغاية هذه المرة، مثير وغامض وخاص، عطر من

المستحيل أن تشمه يوما من امرأة أخرى، ورغم هذا تنفست بعمق ثم قالت:
-عطر للغاية هذا العطر الذي تستخدمه، أخبرني ما اسمه؟
وما أن كاد يجيبها حتى هتفت بسرعه:
-لا لا تقل وانتظر، دعني أخمن. هل هو "Parfums de Marly "
Kalan Eau De Parfum ؟ .. أجل إنه هو بلا شك.
ابتسم بشيء من الزهو وقد أدركت نوع عطره الفخم بينما مدت أنفها نحوه وهي تشم الأريج المنبعث منه في نشوة وأردفت:
-عطر مميز برائحة زهور البرتقال، وأخشاب اللافندر، اختيار موفق لرجل مميز. هل تعلم ما يروقني فيك، أناقتك وتهذيبك. قليل من جنسكم هذا من يهتمون بتلك الأمور في هذا الزمن.
ردته كلمة جنسكم لصوابه على الفور، وإن ظل قلبه يدق في قوة، تذكر الآن من تكون، وكيف تختفي خلف هذا القناع الفاتن روح شريرة أكثر خطرا من الشياطين. فقال بحزم:
-هذا يكفي يا سيدتي، لن تخدعني فتنتك أو هذا الكلام المعسول عن حقيقتك
أجابته في سخرية وبساطة:
-ومن قال أنني أرغب في خداعك؟ أنت تعلم بالفعل من أكون، لكن ماذا لو تناسينا ولو للحظات قصار تلك الحقائق المزعجة وفكرنا في هذا الوقت اللطيف الذي نقضيه معا، أنت تجلس إلى جوار أجمل امرأة شهدها العالم يا دكتور. أم أنك لا تراني كذلك؟
ابتلع ريقه بصعوبة جمة، وهو يجاهد كي لا يضعف أمام فتنتها، وقال:
-ماذا تريدين مني؟
التقطت قائمة الطعام من أمامه وهي تجيب:
-لنقل في البداية أنني أرغب في تناول العشاء، دعني أرى أي طعام نباتي يقدمونه، لا يحتوي على اللحوم.
بدا قولها طريفا للغاية، فوجد محمد شاهين نفسه يضحك بشدة، ثم

انتبه للعيون التي ترمقه فكتم ضحكته وعاد ليلتفت إلى رومية التي ظلت تنظر إليه بعينيها الواسعتين دون أن تفارق ابتسامتها الساحرة فمها ثم قال:

-معذرة، الأمر أكبر مني، لا أصدق أنك لا تتناولين اللحوم.

-لم أقل أنني لا أتناول اللحوم، فقط أنا لا آكل اللحوم الحيوانية، أعتقد أنك تعرف نوعي المفضل من اللحوم.

-يمكنني التخمين.

قالها ببساطة ثم انتبه إلى النادل، الذي تقدم نحوهما، اختارت رومية وجبة نباتية واكتفى هو بشوربة وسلطة، وشريحة لحم نصف مطهوة، ابتعد النادل فقال لها:

-والآن ماذا تريدين مني؟

-أنت.

أجابت ببساطة وهي تشير بسبابتها إليه، ففقد قلبه انتظامه، أبعد عينيه عن عينيها وهو يشعر أنها تذيب حرصه وتعقله، وقال:

-وماذا يمكنني أن أقدمه لك، هل نتزوج مثلا.

-وما المانع لو شئت، المشكلة أنني الوحيدة من جنسي التي تحيا فوق سطح هذه الأرض، وهذا يعني أن خياراتي في انتقاء رفيق لي محدودة للغاية، ولهذا ليس أمامي غير اختيار رفيق لي من البشر.

-وماذا لو قبلت، هل يعني هذا ألا تقتليني وأن تكفي عن قتل المزيد من ضحاياك.

-هذا يعتمد عليك.

جاء النادل بالطعام، فتشاغل محمد شاهين بتناوله وهو يجاهد نفسه كي لا يقع في شراكها، إن نقطة ضعفه الوحيدة طوال عمره هي النساء الفاتنات، ورومية ليست مجرد امرأة فاتنة بل إحدى الحوريات. انتهيا من الطعام، فأشارت رومية، إلى قاعة تتوسط المكان مخصصة للرقص وهي تقول:

-تلك الموسيقى رائعة وتصلح لرقصة رومانسية، ما رأيك لو نرقص.

وقبل أن يعترض كانت قد قامت، وجذبته برفق من ذراعه فنهض معها، أحاط خصرها الضئيل بكلا كفيه بينما تعلقت هي بعنقه وغاب رأسها في صدره، كان هذا أكبر من أن يحتمله أي رجل عاقل أو حتى مجنون، كان عطرها يتسلل منها مباشرة إلى خلايا عقله فيذيبها، كان نقاؤها وجاذبيتها يذيبان قلبه الذي اشتعل في تلك اللحظة وجدا وهياما وصبا، نسي تماما من تكون، كل ما جال بخاطره في تلك اللحظة هو أنه قد صار أسير فتنتها. بينما أدركت هي ما يجول في خاطره فهمست في أذنه:

- هل تعلم، ما زلت فاتنا رغم تلك السنوات العشر التي أضيفت لعمرك.

لم يجب بينما تعلقت العيون كلها بهما، كانا فاتنين في رقصتهما، فاتنين في ملامحهما، ورغم فارق السن الواضح الآن بينهما إلا أن أحدا من رواد المكان لم يشعر بأي تنافر في هذا، بل ولم يجرؤ أحد على مشاركتهما قاعة الرقص وكأنها صارت حكرا لهما، فمن ذا الذي يقبل أن يدخل في منافسة مع اثنين في جمالهما، أما العازفون فقد شعروا بنشوة لا حد لها، حتى أنهم عزفوا موسيقاهم بحلاوة وكمال لم يفعلوه من قبل، بدا الكون من حولهما وكأنه يغرد في نشوة وفرحة من أجلهما.

انتهيا من الرقص فقالت رومية:

- ما رأيك لو نكمل الليل في مكان آخر.

قالتها وغمزت بعينيها، لكنه لم يعترض، في الواقع كل ما كان يشعر به في تلك اللحظة أنه في حلم، حلم جميل يتمنى ألا ينتهي، كانت هي من قادت سيارته. وكالحلم وجد نفسه في النهاية معها في شقة أنيقة تطل على النيل. جلس أمامها كمراهق عاشق بينما استأذنته لحظات لتبدل ملابسها، وحين عادت كاد قلبه يفارق صدره من هذا الفستان الأسود القصير الذي اختارته. ثم قالت له وهي تمر بسبابتها على وجهه:

- والآن دعنا نصلح ما أفسده عبثك مع حجرة الأسرار وسحرها السخيف. ليس من العدل أن يفقد رجل مثلك عشر سنوات من شبابه مرة واحدة.

ثم قادته للمرآة وهي تكمل:
-والآن انظر.
نظر في المرآة فهاله وجهه وقد ارتد لأكثر من عشر سنوات كاملة للخلف. صار وجهه يحمل ملامح رجل في نهاية عقده الأربعين بالكاد، رمقها في امتنان فقالت وهي تقوده لحجرة النوم:
-هكذا أفضل.

(26)

استغرق الأمر بضع ثوان ليدرك أن هذا الرنين الذي يسمعه ليس جزءا من حلمه، بل كان رنين منبه هاتفه يوقظه، فتح عينيه ليرى الظلام، احتاج الأمر للحظات أخرى ليعرف أنه لا ينام في حجرة نومه، بل ولا ينام في فيللته كلها. ودفعة واحدة عادت لذاكرته أحداث الليلة الماضية كلها.

لقد قضى الليل هنا برفقة رومية!

نظر حوله في غير تصديق وهو يتمنى أن يكون كل هذا حلم ثقيل، وعلى الضوء الخافت المنبعث من شاشة هاتفه المحمول أوقد الأباجورة المجاورة للفراش فبانت معالم الغرفة، كان يرقد على فراش وثير للغاية دون ملابسه، الحجرة نفسها كانت أنيقة للغاية متناسقة الألوان ومصممة على الطراز الحديث. نظر حوله فلم يجد رومية ولا حتى أي أثر يشير لوجودها في الغرفة كملابس مثلا أو أغراض، هل تكون في غرفة أخرى بالشقة، أم أنها غادرت المكان. نظر في هاتفه ليرى أن الساعة الخامسة والنصف صباحا. نهض ليبحث عن ملابسه وهو يشعر بصداع عنيف يمزق رأسه، ومازال عقله مشوشا. كانت ملابسه مكومة على مقعد صغير أمام "التسريحة"، اتجه إليها في بعض الإعياء وآلام حادة تهاجم كل مفاصله، وكأنه قضى ليله في عمل شاق، ثم بدأ في ارتداء ملابسه الداخلية حين رأى ورقة مطوية على التسريحة بين أدوات المكياج وزجاجات العطر الكثيرة التي تملأها. رمقها في خوف، قبل أن

يفتحها بيد مرتعشة.

عزيزي محمد شاهين، كانت ليلة مذهلة رائعة، وكما توقعت لم تخيب ظني، وكنت رجلا تجيد ما تفعله، أعتقد أن الأمر بيننا قد ينجح في النهاية، لقد ذهبت وأنت نائم لأمر حتمي وإن كنت أتمنى أن أظل بجوارك حتى تستيقظ لأمنحك جائزة أخرى تسعدك. لكن أعدك بالتعويض في وقت لاحق. لقد ضبطت منبه هاتفك على الساعة الخامسة والنصف كي لا تنسى موعدك مع فؤاد، هناك قطار السادسة صباحا في انتظاركما! في وقت آخر كنت لأخبرك أن تلك الرحلة لا فائدة منها، لكن من أجل الساعات الرائعة الماضية فأنا أعدك بفرصة لإنقاذ ذلك البشري، فقط لتصلا إليه في الوقت المناسب".

نظر في شاشة الهاتف ثانية في هلع ليرى أنها الخامسة وخمس وثلاثين دقيقة، ربما يتأخر عن موعد فؤاد في محطة قطار مصر وهو لا يدري أين هو وهل الطريق إليها يستغرق أكثر من الوقت المتبقي، أم لا، ارتدى ملابسه في عجالة وسره أنه وجد مفاتيح سيارته في جيب بنطاله، غادر الغرفة فواجهته شقة أنيقة جيدة الأثاث، لازال لا يذكر أنه رآها من قبل، هل سحرته رومية بالأمس ليأتي ويقضي ليلته معها، أم أنه جمالها ما خلب لبه؟

غادر الشقة وأغلق الباب خلفه ثم استدار للدرج المظلم فوجد رجلا عجوزا يصعد الدرج ببطء وهو يرفع طرف جلبابه، بينما بدت قدمه وحذاؤه ملطخين بالوحل جراء المطر الذي ما زال يهطل بغزارة. نظر إليه الرجل في دهشة حقيقة ثم قال:

-من أنت وماذا تفعل هنا؟

ارتبك محمد شاهين إحراجا وهو لا يدري ما يقوله فاستطرد الرجل بريبة:

-ماذا كنت تفعل في الشقة المهجورة يا أستاذ هل كنت تخبئ شيئا ما؟

-شقة مهجورة؟!

نظر خلفه، ولم يكن هناك الباب الذي أغلقه خلفه للتو، وجد مكان

الباب مجرد إطار من الطوب العاري بينما كانت الشقة مظلمة وإن بدا واضحا أنها "على الطوب"، بلا أي أثاث أو حتى إنارة، وأنه لم يسكنها أحد قط. ورغم حيرته والدوار الذي يشعر به إلا أنه أدرك أن عليه التحرك بسرعة كي لا يفتضح أمره، الرجل العجوز يرمقه بشك، وحكايته لو قصها عليه لن يصدقها، لذا فالفرار من المكان بسرعة كان القرار السليم. اندفع بسرعة بجوار الرجل العجوز وهبط مهرولا ليغادر المبنى كله، بينما سمع الرجل العجوز يصرخ فيه:

-انتظر يا هذا. ماذا كنت تفعل هنا؟ هل أنت لص؟

كانت السماء تمطر بغزارة بينما ملأت الشارع برك المياه الموحلة، ومن الوهلة الأولى أدرك أنه في حارة ضيقة في حارة شعبية، مازالت رومية تسخر منه كما يرى. نظر حوله فوجد سيارته مصفوفة بمهارة بجوار أحد الأبنية، اتجه إليها مسرعا، ودلفها دون أن يعبأ بتنظيف حذائه الملوث بماء المطر ثم انطلق ليغادر المكان بلا إبطاء، لقد اتهمه الرجل العجوز باللصوصية وربما استيقظ أحد شباب العمارة المتحمسين وطارده. بلغ الطريق الرئيسي ونظر إلى ساعة يده التي ارتداها فوجدها تشير لنحو الخامسة وسبع وأربعين دقيقة. توقف على جانب الطريق الخالي ثم فتح برنامج تحديد المواقع ليعلم أين هو بالضبط وكيف يصل لمحطة مصر بسرعة. من حسن حظه كان قريبا منها ولا يبتعد بأكثر من ربع ساعة، انطلق على الفور بسرعة كبيرة للغاية رغم الأرض الزلقة، لكن الشوارع الفارغة في الصباح ساعدته، رن هاتفه، فحول المكالمة لسماعات السيارة الداخلية وأجاب:

-صباح الخير يا فؤاد.

-أين أنت يا دكتور، القطار على وشك التحرك ولم تظهر بعد.

كان صوت فؤاد قادما عبر السماعات يشوبه مزيج من التوتر ونفاد الصبر، اجتازت السيارة في تلك اللحظة بركة عميقة من مياه المطر، فتطايرت موجات عالية من الماء حول السيارة، ومحمد شاهين يجيب:

-أعتذر عن التأخر، دقائق خمس وأكون أمامك، فقط حاول أن تؤخره

ولو بضع دقائق، أنت رجل شرطة وأنتم تجيدون عمل مثل تلك الأشياء، وسأحاول العثور على مكان لصف السيارة بسرعة.

- لا تقلق بشأن السيارة، فقط دعها وبداخلها المفتاح أمام باب المحطة وسأبعث بأحد رجال الشرطة ليذهب بها إلى مكان آمن. لكن لا تتأخر أرجوك، لا أدري إن كنت سأفلح في تأخير إقلاع القطار بضع دقائق أم لا.

وبعد أربع دقائق، ظهرت محطة قطارات مصر من بعيد، لم يكن هناك أي زحام، فقط عدد قليل من المسافرين وبعض الباعة الجائلين الذين احتموا بمباني المحطة من المطر الغزير، بلغ الباب الرئيسي وكما أمره فؤاد أطفأ المحرك وترك المفتاح في السيارة، وانطلق نحو الرصيف مسرعا، وهو يدعو الله أن يجدها رجل الشرطة أولا وليس أحد اللصوص، بالطبع كانت فكرة حمقاء أن يدع سيارة فارهة كهذه وبداخلها المفتاح أمام محطة قطار تعج طوال الوقت باللصوص، لكن ما العمل، فالساعة في يده كانت تشير لتمام السادسة في تلك اللحظة ولا وقت أمامه للانتظار أو التوقف ليتأكد من مصير السيارة. بلغ بداية الرصيف فسأل أحد المشرفين عن قطار الإسكندرية، فأجابه وهو يفسح الطريق له:

- إنه ذلك الواقف هناك، لكن أسرع يا أستاذ، قد يتحرك القطار في أية لحظة.

راح يعدو بكل قواه، وحمد الله في تلك اللحظة على الشباب الذي أعادته له رومية منذ ساعات، أصدر القطار من بعيد صافرة معلنا استعداده للرحيل، بينما كان المطر يهطل بغزارة فوق رأسه في تلك البقعة العارية من الرصيف. رأى فؤاد في تلك اللحظة بجوار عربة القطار الأخيرة، اتجه إليه وفي أقل من دقيقة كان أمامه، لم يدعه فؤاد يلتقط أنفاسه، وأمسك بذراعه وهو يرمقه في شيء من التعجب والدهشة وهو يهتف:

- وصلت في الوقت المناسب، دعنا ندخل القطار أولا.

ثم دلفا إلى عربة القطار الأخيرة في نفس اللحظة التي بدأ فيها القطار في
التحرك. توقف محمد شاهين في مؤخرة العربة ليلتقط أنفاسه، وصدره
يعلو ويهبط بلا انقطاع، وماء المطر الذي بلل ملابسه يقطر منها وفمه
يزفر بخارا باردا. كان فؤاد يتأمله في تلك اللحظة وإن لاذ بالصمت، غادر
القطار المحطة تماما وبدأت سرعته في الازدياد، ثم قال فؤاد:
-تبدو أصغر عمرا بكثير، أهذا صحيح أم أنني أتوهم.
-أنت مصيب، سأخبرك بكل شيء، لكن قل لي في البداية. هل أنت
متأكد أن رجل الأمن الذي أرسلته للسيارة سيعرفها وسيحافظ عليها
أدهشه أن تكون السيارة أولى اهتماماته، فضحك وهو يقول:
-لا تقلق، أحد أمناء الشرطة العاملين هنا أعرفه، عملنا سويا بعض
الوقت، ووعدني بالاعتناء بالسيارة حتى نعود، كما أن سيارتك مميزة
للغاية، هل تتخيل كم سيارة رانج روفر قد تتواجد أمام باب المحطة في
تلك اللحظة، حتما هي واحدة فقط، فكيف يخطئها؟
-أتمنى أن يجيد التعامل معها وألا يفسد شيئا فيها، لكن أين هي
مقاعدنا؟
-ليس في هذه العربة، إنها بالأمام.
تحركا بين صفوف المقاعد في بطء واجتازا أربع عربات قبل أن يصلا
إلى مقعديهما، كانت العربة شبه خالية لكنهما وجدا في مكانهما شابا
نحيفا في مقتبل العمر، يرتدي معطفا جلديا وبنطلون جينز مبلل وحذاء
مطر طويل ملوث، جلس الشاب في وضع استرخاء وهو يدخن، بينما
وضع حذاءه الملوث بالوحل على المقعد المقابل له، رمقه فؤاد في
تحفز، قبل أن يقول:
-هذان المقعدان لنا.
رمقه الشاب في استخفاف وابتسامة لزجة ترتسم على شفتيه قبل أن
يجيب:
-أنا من جاء للعربة أولا، ولهذا هما لي، اختارا مقعدين آخرين.
-وماذا لو كنت أصر على هذا المكان؟

نفث الشاب دخان فمه نحو فؤاد وهو يجيب باستخفاف:

سيكون عليك إذن حملي عنوة ووضعي في مكان آخر.

استعار فؤاد ابتسامة باهتة لوجهه، ثم مال نحوه قليلا في بطء والشاب يرمقه في سخرية وفي لمح البصر هوى بكفه على وجه الشاب في لطمة قوية أطارت السيجارة من فمه لترتطم بالجدار الحديدي وترتد لتسقط أسفل قدميه، هب الشاب من مكانه، في غضب وهو يطوح بيده نحو فؤاد لكن فؤاد قابله بلكمة قوية في صدره أتبعها بركلة في بطنه ليرتطم الشاب بجدار القطار والمقعد قبل أن يهوي أرضا وقد تفجر الدم من فمه، تراجع محمد شاهين للخلف منذ البداية، ولم يفكر في التدخل، الشاب رقيع لزج، ومثل تلك النوعيات لا ترتدع إلا ببعض القوة والعنف، لو كان من يحدثه رجلا عجوزا أو ضعيفا أو امرأة لسخر منهما أو أهانهما وربما اعتدى عليهم، كان يؤمن أن علاج مثل هؤلاء الأوغاد هو الشرطة.

نهض بعض الركاب وفكر بعضهم في التدخل للفصل بين المتشاجرين لكن فؤاد قال في صرامة وهو يرمق الشاب الذي يستعد للنهوض وهو يطلق سبة بذيئة من فمه:

لا أحد يتدخل، هذا أمر خاص بالشرطة.

اتسعت عينا الشاب في جزع وذعر جم، وانكمش أسفل المقعد وهو يهوي مرددا:

الرحمة يا باشا، أنا آسف، لم أكن أعرف، أقسم بالله لم أكن أعرف أن الباشا من الشرطة.

ظهر رجل أمن في تلك اللحظة قادما من عربة أخرى، عرفه فؤاد بنفسه، ثم قال:

لدينا شاب اقترف جرائم عدة، محاولة الاعتداء على رجل شرطة وهناك جريمة سب وقذف، وكذلك التدخين داخل القطار. هل نسيت شيئا يا دكتور؟

كلا. أعتقد أن هذا يكفي.

جذب رجل الأمن الشاب من ملابسه في غلظة والشاب ينشج ويردد
-أقسم بالله لم أكن أعرف، سامحني يا باشا، سامحني، ولن أكررها مرة أخرى.
أخرج رجل الشرطة قيدا معدنيا من طيات ملابسه واستعد ليقيد الشاب، لكن فؤاد أشار إليه أن ينتظر وهو يقول:
-ليس قبل أن ينظف المكان الذي لوثه.
ثم أشار للمقاعد المبللة والملوثة بالطين والوحل وهو يقول:
-هل ترغب في أن نجلس عليها وهي هكذا.
فهم الشاب مقصده فخلع الجاكت الجلدي وببطانته المصنوعة من الفرو راح ينظف المقاعد من الوحل والماء في نشاط وسرعة، وحين انتهى، قال فؤاد لرجل الأمن:
-إنه لك.
قيد رجل الشرطة الشاب وقبل أن يتحرك، همس فؤاد في أذنه ببضع كلمات، ثم ذهب الشرطي مع الشاب الذي مازال يبكي وينشج، كان محمد شاهين يغالب ضحكه وهو يقول:
-كنت قاسيا جدا، لكن لو شئت رأيي فهو يستحق.
-أمثال هذا الوغد يحتاجون لمثل هذا العلاج من وقت لآخر. كما أنني كنت بحاجة لبعض النشاط هذا الصباح.
-وماذا عن التهم، أعتقد أنه سيقضي بضعة أعوام في السجن لو نفذت تهديدك.
- لا داع لهذا، لقد أخبرت الشرطي أن يدعه في محطة الإسكندرية، لقد نال عقابه بالفعل، والذعر الذي سوف يشعر به لنحو الساعتين حتى نصل يكفي، لا أعتقد أنه سيعاود وقاحته ثانية.
-أما أنا فأشك أنه سيركب القطار مرة أخرى.
أخرج علبة سجائره من جيب معطفه ودس إحدى اللفافات في فمه وهو يقول:
-هذا أفضل.

ألم تقل منذ لحظات أن التدخين ممنوع.

ومن قد يجرؤ على الاعتراض، لن أمضي ساعتين داخل القطار دون التدخين.

وماذا عني؟

يمكنك التدخين لو شئت، لكن قل لي، كيف استعدت شبابك ثانية، إنك تبدو أصغر عمرا مما رأيتك عليه أول مرة. أي سحر هذا الذي تمارسه يا دكتور؟

أخرج محمد شاهين غليونه، وأشعله بقداحته وهو يجيب ببطء:

أنا لا أقوم بالسحر يا حضرة الرائد، إنها هي من فعلت هذا، رومية.

اختنق حلق فؤاد بدخان سيجارته من الدهشة، فسعل بقوة قبل أن يهتف:

ماذا؟ هلا وضحت ما تقصده.

جذب محمد شاهين نفسا عميقا من دخان غليونه ثم زفره ليجيب وهو ينظر مباشرة إلى عيني فؤاد:

لقد قابلتها بالأمس.

وارتعشت السيجارة في فم فؤاد في ذهول.

(27)

على مقعده خلف النافذة الزجاجية المطلة على البحر الثائر بشدة في تلك اللحظة جلس الدكتور مصطفى يرمق هذا الكون المجنون من حوله في شرود. كرجل اسكندراني المنشأ كان يعرف جيدا نوات الإسكندرية ومواعيدها وأيها عنيف وأيها خفيف. كانت هذه النوة هي نوة قاسم كما يطلق عليها الصيادون ويقولون أن تسميتها بهذه الاسم لأن أحد أبناء واحد من كبار الصيادين وكان يدعى قاسم قد غرق فيها. ومن بين أكثر من 16 نوة كانت نوة قاسم أخطر نوات العام كله حيث تهاجم الإسكندرية رياح جنوبية غربية ويثور البحر ويسوء الطقس بشدة ويبلغ فيها ارتفاع الموج العاصف عدة أمتار.

لكن هذا العام كان مختلفا، كانت النوة ثائرة كما لم يشهدها من قبل،
البحر مظلم غاضب مرتفع الموج والسماء مظلمة تعج بالسحب
الرمادية وتلقي على الأرض سيولا لا تنقطع من الأمطار، والرياح اشتدت
حتى بلغت حد العاصفة، والبرد كالزمهرير. جلس خلف النافذة المطلة
على البحر وحيدا، يراقب الطقس في شرود وهو يتمنى ألا تطول النوة
كي لا يضطر للخروج للشارع لابتياع الطعام أو الدواء مثلا. من حسن
الحظ أن زوجته تركته منذ 3 أيام تاركة خلفها ثلاجة بها ما يكفي من
الطعام لنحو خمسة أو ستة أيام كاملة، كما أن دواءه ما زال يكفيه لنحو
الأسبوع تقريبا، هو إذن آمن في شقته ولا حاجة به لمغادرتها شرط ألا
تطول تلك النوة الرهيبة أكثر من اللزوم. راح يرتشف مشروبا من الكاكاو
الساخن وهو يفكر كيف آل به الحال ليحيا وحيدا هكذا، وكيف انقلبت
حياته رأسا على عقب منذ أسبوع واحد فقط.

كان يحيا في تلك الشقة منذ نحو عشرة أعوام مع زوجته التي تصغره
بنحو عشرة أعوام بمفرديهما بعد أن فارقهما الأبناء، الابن الأكبر عصام
طبيب القلب هاجر مع زوجته وأبناءه إلى كندا قبل عشرين عاما واستقر
بها، ولحقت سوزان ابنته الوسطى بزوجها الطبيب العامل في دبي حيث
يعمل منذ نحو ثلاثين عاما، بينما فضل ابنه الأصغر المهندس محمود
الهجرة إلى ألمانيا وتزوج من امرأة ألمانية وحصل على الجنسية الألمانية
وصار يعدها وطنه الحقيقي.

شق لسان من البرق صفحة السماء وارتجت جدران منزله بعدها من
صوت الرعد الذي هدر فقطعت حبل أفكاره للحظة، فغمغم في توتر:

-اللطف يا أرحم الرحمين.

ثم واصل ارتشاف كوب الكاكاو وهو يفكر. لم يكن ممكنا منع الأبناء من
السعي خلف مستقبل أفضل، الأيام تبدلت كثيرا ولم يعد الوطن الذي
عاشه في شبابه وكهولته هو نفسه الوطن الذي يحيا فيه أبناؤه في
مقتبل حياتهم. صارت مصر خانقة مخنوقة ولم تعد المكان الرحب
الذي يؤمن الحياة الكريمة لأبنائه، اختار الأبناء الهجرة، ولأنه كان قد

تجاوز الستين من عمره حينها فقد اختار أن يظل بمصر حتى الموت، رافضا أن يلحق بأبنائه في شتاتهم الاختياري، اكتفى منهم بالخطابات الطويلة والمكالمات التلفونية القصيرة والزيارات المتباعدة في البداية، ثم تقدمت وسائل الاتصالات فصار بإمكانه الاتصال بهم عبر برامج المحادثات عبر النت ورؤيتهم ورؤية أبنائهم مرة واحدة كل أسبوع على الأقل. صار الوضع أفضل وإن ظل يضايقه أنهم لا يأتون إلى مصر إلا كل عامين أو ثلاثة أعوام.

زوجته طيبة، ولأنها في الأصل ابنة عمه وقد تزوجا عن حب، فلم تكن الحياة سيئة، لقد ارتضيا أن يكملا حياتهما معا حتى نهاية العمر الذي اقترب منه بشدة، وإن أوصاها بالسفر إلى أحد الأبناء والإقامة معه لو مات قبلها، كي لا تقضي عمرها وحيدة من بعده. قررا وهو على مشارف السبعين من عمره وهي في مقتبل عامها الستين، أن يقضيا شهر عسل من جديد، زارا الأقصر وتجولا بين جدران معبدي الأقصر والكرنك ووادي الملوك، وفي أسوان التقطا عشرات الصور في معابد فيلة ثم زارا السد العالي والجزيرة النباتية. بعدها صارت الحياة مختلفة، يخرجان سويا ليجلسا على الكورنيش، يتناولان الطعام بالخارج، يذهبا إلى السينما حين يكون هناك فيلم أجنبي رومانسي ليشاهداه سويا، ويجلسان على المقاهي في المساء ليتبادلا حديثا هامسا كالعشاق.

ولأنهما يفتقدان للأبناء والأحفاد فقد اتجها لتربية الحيوانات والطيور، كان يهوى العصافير الملونة منذ صغره فابتاع عدة أقفاص بها أزواج من العصافير الملونة الجميلة التي تزقزق طوال الوقت، وصار يُعنى بتنظيف أقفاصها وملء سلال طعامها بالحبوب طوال الوقت، بينما اختارت زوجته تربية القطط فاشترت قطتين صغيرتين سرعان ما نميتا وصارتا بالغتين جميلتين، أسمتهما مشمشة وكيتي، كما كانت تهوى السلاحف فابتاعت واحدة، كان يسعدها تأملها وهي تسير في جنبات المكان ببطء وتؤده، قبل أن تعيدها للحمام ثانية، حيث صار البانيو مسكنها. فكرا سويا في تربية كلب ما، فالكلاب في الواقع خير رفيق

للمسنين وأكثر وفاء من باقي الحيوانات، لكن نصيحة جاءتهما من صديق جعلتهما يصرفا النظر عن تربية كلب ما، وخاصة حين أخبرهما بصعوبة تعليمه أصول النظافة، وتلك الرائحة السخيفة التي قد تعلق بالأثاث والمفروشات جراء تربية الكلاب والتي تحتاج لمجهود عنيف لإزالتها.

كانت الحياة رتيبة حلوة حتى نحو عشرة أيام قبل الآن، حيث بدأت الأحداث الغريبة أو لنقل المخيفة في البيت. في البداية أرقت الكوابيس نومه، في المرة الأولى وجد نفسه في مقبرة، ملقى في مقبرة غريبة والضباب يغمر المكان من حوله فلا يرى غير شواهد القبور المقبضة، بينما كانت أول جثة قام بتشريحها في حياته تقف فوق رأسه بلونها البني المخيف وهي تحمل جاروفا ضخما وتهيل التراب فوق جسده وكأنها ترغب في دفنه حيا، كان يشعر بذعر لا حد له، وهو يجاهد للصراخ لطلب النجدة، لكن فمه ظل مغلقا والصرخة معلقة في حلقه ترفض أن تغادره، ردمت الجثة جسده كله، وبلغ الثرى عنقه وفمه وأنفه، شعر بمذاقه في فمه ورائحته الرطبة في أنفه، ولم يبق جزء مكشوف من جسده غير عينيه، كان يشعر بالاختناق في تلك اللحظة وحين أهالت الجثة كومة أخرى من التراب فوقه وأظلمت الدنيا في عينيه وهو يختنق شعر بهزة عنيفة في جسده قبل أن يفيق، هب من نومه صارخا ليرى زوجته جالسة بجواره وهي ترمقه في قلق، راح يلهث في عنف وهو يملأ صدره بالهواء بينما زوجته تحيط كتفه الضامرة بذراعيها وتقول:

-هون عليك يا حبيبي ولا تخف، إنه كابوس وقد ذهب.

وحين سعل بعدها في كف يده خرج من فمه الكثير من الثرى الندي الرطب، الثرى الذي كانت الجثة تهيله فوق رأسه في الحلم، ورغم توتره حمد الله أن الضوء في الغرفة ضعيف وأن زوجته لم تلحظ هذا الثرى، فأخبرها أنه ذاهب إلى الحمام ليقضي حاجته وهناك أدرك في ذعر أن الثرى يغمر ملابسه كلها وكأنما غادر القبر لتوه، كان مرعوبا، ما الذي حلم به؟! لكن ملابسه الملوثة بالثرى أكدت له أن ما جرى ليس حلما

بالتأكيد. كان واقعا أنقذته منه زوجته، بدل ملابسه ووضعها في الغسالة الكهربائية وارتدى غيرها وقد قرر ألا يخبر زوجته بما حدث له. في الصباح استغل غيابها في الحمام لينفض الفراش من التراب العالق به قبل أن يخرج إلى الشرفة حيث اعتاد أن يجلس ليراقب طيوره، بدل الماء لها ووضع الطعام وغسل سلة الفضلات، ثم جلس أمامها في شرود وهو يستعيد كابوس الليل المخيف محاولا إيجاد تفسير لما حدث. ثم انتبه إلى صوت زوجته الصارخ وهي تقول:

مصطفى، ما الذي يحدث لطيورك.

وجد زوجا من الذكور قابعين في ركن من أركان القفص الحديدي في سكون، بينما راحت إناثهما تنهشان جسديهما بمنقاريهما الحاد في قسوة، دون أن يبدي الذكور أي ردة فعل أو مقاومة، وكأنما غابا عن الوعي وإن كانت عيونهما مفتوحة ترمش، بينما راحت باقي العصافير في الأقفاص الأخرى ترفرف وتصيح في هياج كبير. تطلع الدكتور مصطفى في ذعر إلى منقار إحدى الإناث والذي أحدث جرحا عميقا في صدر الطائر زوجها ثم غاب رأسها كله داخل الصدر الدامي لزوجها، قبل أن يخرج منقارها بقلبه الذي ما زال ينبض، وتبدأ في التهامه في وحشية، أما الأنثى الأخرى فقد كانت قد نزعت أحد جناحي ذكرها في نفس اللحظة وألقته بعيدا ثم عادت لتواصل تمزيق الطائر المسكين، كان قلب الدكتور مصطفى يدق في عنف في تلك اللحظة، وبدا جسده متجمدا في عجز قبل أن تصرخ زوجته لتخرجه من جموده:

مصطفى افعل شيئا لتلك الطيور اللعينة، أشعر بالخوف.

فتح القفص الأول بسرعة ومد ذراعه نحو الأنثى الأولى ليبعدها عن أشلاء زوجها، لكنها اتجهت نحو يده الممتدة ومزقت بعض الجلد بمنقارها في عنف، فصرخ من الألم وهو يخرج يده بسرعة من القفص ويغلقه خلفه وقد تفجر الدم من جلده، ثم دفع زوجته للداخل وهو يقول:

دعينا نبتعد الآن.

لكن زوجته صاحت في ذعر:
-ما الذي دهاها يا مصطفى، هل أصابها مرض ما أم أنها قد جنت، بالله عليك ألقها في مكان ما، لقد صرت أخاف منها، لا تدعها في البيت لحظة واحدة،
ثم انتبهت لذراعه التي تقطر دما فأردفت في جزع وهي تحيطها بكفها وتضغط على موضع الجرح لتكتم النزيف:
-يا إلهي، أنت تنزف بشدة، لقد أصابك الطائر إصابة بالغة، هل تؤلمك يا حبيبي، أنا آسفة، دعني أهتم بالجرح.
في المساء جلس على الفراش وأحداث اليوم كله تخيفه، مازال الكابوس الأخير يرعبه وهو يخشى أن يعود إلى نفس الكابوس لو نام ثانية، لقد كانت الجثة تدفنه وهو حي ولولا زوجته لمات بلا شك، الثرى الذي وجده في حلقه وملابسه يشهد أنه لم يكن حلما، كان حقيقة مخيفة، كانت زوجته في تلك اللحظة في الحمام، حين انطلق صراخها فجأة.
هب من الفراش بغتة فأصابه دوار عنيف وأظلمت الدنيا في رأسه، كان يعلم أن هذا نتيجة هبوط الدم المفاجئ لأنه نهض دفعة واحدة من وضع الرقود، لكن لم يكن هناك وقت للتفكير في هذا التفسير وزوجته مازالت تصرخ. تحرك في خطوات غير متزنة حتى بلغ باب الحمام المفتوح وهناك وجد زوجته واقفة في ركن الحمام، وهي تحيط فمها بكفها وعيناها دامعتان في ذعر. ذهب إليها وضمها بين ذراعيه وقد أفاق قليلا من دواره وهو يهمس:
-ماذا حدث يا حبيبي، لماذا تصرخين؟
راحت تنشج في صدره وهي تدفعه ليغادرا الحمام وفي حجرتهما راحت تنتحب وهي تقول:
-لقد ظننت أنه أنت في البداية، كنت أقضي حاجتي، وكما تعلم فأنا لا أحب إغلاق باب الحمام تماما وأنا داخله، سمعت الخطوات بالخارج فاعتقدت أنها قدميك، ثم أظلمت الردهة تمام ووجدت الباب يتحرك بمفرده للداخل والخارج، اعتقدت أنك تمزح معي وترغب في إخافتي،

صحت فيك: "توقف عن هذا العبث الطفولي السخيف يا مصطفى، لا يليق بك إخافتي وأنا أقضي حاجتي"، لكن الباب ظل يتحرك للأمام والخلف وهو يصدر صريرا مخيفا، شعرت بالرعب فاغتسلت بسرعة ونهضت لأسوي ملابسي لأجد رأسا مخيفا يبرز من خلف الباب وهو ينظر إلي.
ثم دفنت رأسها في صدره، وازداد نحيبها وراحت تردد:
كان الرأس مخيفا، وكانت العينان سوداوين تماما وكأنهما محترقتان، وأسنانه متساقطة، لكنني رغم هذا كنت أعرف صاحب الرأس، إنها سامية، أجل، كان رأس سامية أختي التي ماتت محترقة.
راحت بعدها تردد أن البيت صار مسكونا، فوعدها باصطحاب أحد الشيوخ في الصباح ليقرأ فيه القرآن.
مضى بعض الوقت قبل أن تستسلم زوجته للنوم، وبعدها بوقت قصير كان قد لحق بها. وفي الحلم هذه المرة، كان في معبد وثني، وضوء لهبي أحمر يغمر المكان، ورجال سود عراة الأجساد برؤوس كبيرة ملساء بلا ملامح يحيطون به. كان أمام مذبح حجري، وخلفه وقفت امرأة في لباس كاهنة وشعرها يتطاير خلفها كشلال من ليل بهيم. كان يشعر أنه يعرف تلك المرأة، أجل إنه يعرفها لكنه ما زال لا يتذكر من تكون، ثم اقترب من المذبح ليرى زوجته راقدة عليه عارية ومقيدة فوقه بالحبال وهي ترمقه في ذعر، بينما مدت الكاهنة نحوه خنجرا حجريا وهي تقول:
-قدم قربانك أيها البشري، لتعيش.
ورغم ذعره ومقاومته وجد كفه تمتد لتحمل الخنجر من الكاهنة ثم ترتفع لأعلى ثم تهوي نحو قلب زوجته. و ..
استيقظ في نفس اللحظة وهو يزوم، كان يلهث كالعادة والعرق يتفصد من جسده بأكمله رغم برودة الجو. ثم انتبه إلى زوجته التي تجلس بعينين مذعورتين إلى الأمام. نظر حيث تنظر ليرى مرآة التسريحة الكبيرة، كان ضوء أحمر لهبي ينبعث منها، ومن خلف المرآة رأى نفسه في نفس المعبد الوثني الذي حلم به قبل لحظات، ورأى نفس الرجال

السود الذين لا ملامح لهم ونفس الكاهنة اللعينة تطالبه أن يدنو منها
وعلى المذبح كانت زوجته عارية، في تلك اللحظة لم يحتمل فراغ
يصرخ وشاركته زوجته الصراخ، وهي تدفن وجهها في صدره بينما راحت
الصورة تذوب في المرآة ليختفي كل شيء فيها، وكان آخر ما اختفى وجه
الكاهنة الفاتنة وهي ترمقه في صرامة.
في تلك اللحظة أضاء مصباح في رأسه ليذكره بمن تكون هذه المرأة،
إنها الجثة الخامسة اللعينة، إنها رومية.
بينما صرخت زوجته:
-إنهم الجان يا محمود، أجل هم الجان، أرجوك دعنا نغادر هذا المكان،
دعنا نرحل.
ورغم الذعر الذي يعصف به ضمها إلى صدره وهو يقول:
-لا تخافي يا حبيبتي، لن يصيبك مكروه، سوف أجد حلا لكل هذا في
الصباح.
لكنه كان يعرف أن الجان لا شأن لهم بما يحدث، الأمر كما يتذكر أخطار
بكثير. وكالسيل راحت الذكريات تتداعى على رأسه، عمال المشرحة
والدكتور نعيم، البلدة الغريبة التي سرق منها العمال الجثة الملعونة
والمرأة العجوز التي حكت الحكاية، وذلك الطقس المرعب الذي أعادوا
فيه تلك الشيطانة لسباتها الطويل. لكنه ما زال يذكر تهديدها بالعودة،
فهل تكون قد عادت حقا؟
قضيا ما تبقى من الليل في الصالة وقد أشعلا أضواء البيت كله وقام
بتشغيل القرآن الكريم من هاتفه المحمول. لكنهما لم يعاودا النوم إلا
حين انبثق الصباح المطير، فناما مكانهما، استيقظا على صوت مواء
إحدى القطتين، تتبعا الصوت في توتر وقد بدا مستغيثا ومتألما، ليصلا
إلى الحمام، دفع الدكتور مصطفى الباب بحذر ليرى منظرا غريبا مخيفا،
كان رأس القطة يخرج من مقدمة درقة السلحفاة بينما خرجت أقدامها
الأربع من فتحات الأقدام في الدرقة ومن الخلف كان الذيل يتحرك في
ثورة بلا توقف.

ى أمرا عجيبا، أين ذهبت السلحفاة صاحبة الدرقة وكيف دخلت
القطة بجسدها داخل الدرقة لتحل محلها.
ت زوجته في رعب، والقطة تموء في يأس وعجز وقد عجز جسدها
عن حمل الدرقة الثقيلة، ثم قالت زوجته:
عمل شيئا يا مصطفى أرجوك، خلص تلك المسكينة من شركها
الهلاك.
حاول بالفعل لكن بلا نجاح، فأرقد القطة على الأرض في ضيق قبل أن
باهه إلى صوت العصافير المزقزق في هياج، فقال لزوجته، انتظريني
هنا ولا تخرجي.
اتجه إلى الشرفة ليجد العصفورتين اللتين قتلتا زوجيهما بالأمس في
نفس واحد مع ضحية جديدة تجاهد للهرب منهما. كانت الضحية هي
السلحفاة التي فارقت درقتها، وكانت العصفورتان تنهشاها في ضراوة
وهي عاجزة عن الدفاع عن نفسها، وباقي العصافير تتحرك في هياج
وجنون.
فكر الدكتور مصطفى في تخليص السلحفاة قبل أن يتذكر ما أصاب
له بالأمس فأحجم وهو يغادر الشرفة في عجز وألم، هذا البيت قد
أصابه الجنون، فكر في مغادرة البيت لكن الشوارع المغمورة بماء المطر
وقفت عائقا أمامه، وحين عاد إلى زوجته، تذكر الشيخ مؤمن، إمام
الجامع العجوز الذي يقطن في نفس البناية، لماذا لا يدعوه ويسأله
المشورة، أليس في القرآن ما يهدئ القلوب ويطرد الشياطين، لم يجرؤ
على ترك زوجته بمفردها في البيت، فهبطا سويا للطابق الأول حيث
يعيش الشيخ مؤمن وطرقا بابه قبل أن يفتح لهما ويدعوهما للدخول.
أخبره الدكتور مصطفى بما حدث فصعد الرجل معهما للشقة، وراح
يدور فيها ببطء وهو يتأمل الأركان والجدران قبل أن يقول:
-لا أرى أي شيء غير طبيعي، ربما باستثناء تلك القطة التي في درقة
السلحفاة. أعتذر لو كانت خبرتي بمثل تلك الأمور ضئيلة للغاية.
-لكننا لا نختلق ما قصصناه عليك يا شيخ مؤمن.

قالتها الزوجة في هلع، فأسرع يجيب:
-معاذ الله أن أتهمكما بالكذب، أنا فقط كما قلت لا أعرف الكثير عن عالم الجان والشياطين، لكني أعرف شيئا مهما، الشياطين تفر من سماع القرآن فلماذا لا نجرب هذا.
قالها وراح يردد بصوت مرتفع آيات القرآن الكريم وهو يتحرك بلا توقف في كل أنحاء الشقة وأركانها ويده تلمس الجدران، انتهى بعد نحو الساعة فقال قبل أن ينصرف:
-نصيحتي أن تشغلا القرآن في كل ركن، شغلا التليفزيون والراديو وهواتفكما المحمولة في كل ركن من الشقة طوال الوقت، وحين تتوقف الأمطار سوف أحضر بنفسي من يفهم في تلك الأمور عله يفيدنا.
فعلا مثلما أمر، ومضى بعض الوقت قبل أن تشعر الزوجة ببعض الأمان فتتذكر واجباتها، إنها لم تعد الطعام بعد لزوجها.
ذهبت للمطبخ وراحت تعد دجاجة مشوية محشوة بالأرز، لفت الدجاجة في ورق الألمونيوم ووضعتها في صينية داخل الفرن. أخرجتها بعد ساعة ووضعتها في غلافها في صدر المائدة، وحين امتدت يد الدكتور مصطفي بالشوكة لتفض ورق الألومنيوم ارتدت يده في عنف وهو يشعر بغثيان لا حد له فانطلق بسرعة نحو الحمام ليفرغ ما في جوفه، لكن قدميه لم تقدرا على حمله، فسقط في منتصف الردهة وهو يقيء في عنف. كانت زوجته في المطبخ في تلك اللحظة تحضر باقي الطعام، شعرت بالجلبة فاتجهت لغرفة الطعام بسرعة وهناك رأت ما أرعب زوجها حتى الموت، كانت الدجاجة المشوية قد ذهبت وحلت محلها القطة المحبوسة داخل الدرقة، كانت القطة قد تم شيها بالكامل وقد احترق فراؤها وجحظت عيناها في ألم وذعر بينما تدلى لسانها خارج فمها وقد نضج هو الآخر.
لم تتمالك الزوجة نفسها وفقدت وعيها على الفور.
كانت أحداثا ملعونة، وكان الطقس سيئ ولا مكان هناك في الشارع لأي سيارة أجرة أو غيرها، لم يدر الدكتور مصطفى إلى أين قد يذهب مع

زوجته، بل وكيف يغادر والشوارع غارقة هكذا. كانت زوجته ترتجف وقد تدثرت بالغطاء في ذعر لا حد له وقد فقدت قدرتها على النطق تقريبا، كان يعلم أنهما لن يحتملا مثل هذا الرعب طويلا وأن الذعر سيقتل أحدهما أو كليهما في أية لحظة بسكة قلبية أو جلطة مميتة. لكنه ظل عاجزا عن فعل شيء ما. لينتظر للصباح فعسى أن يتبدل الطقس فيغادرا الشقة بلا رجعة.

قررا المبيت في الصالة وقد أضاءا كل الأنوار وشغلا القرآن في التليفزيون. كان الطقس باردا والسماء مضطربة والجو كئيبا، ولم يتأخر النوم عنهما وخاصة بعد يوم عصيب.

استيقظت الزوجة بغتة لتدرك أن هناك شيء ما ليس صحيحا. كانت الأضواء كلها مطفأة إلا من ضوء شبحي يتسلل من خصاص النافذة، وكان التليفزيون صامتا كالموتى، وقد توقف صوت القرآن عن التردد في جنبات البيت، وحين لمع البرق بالخارج تسلل بعض ضوئه عبر النافذة، لترى أن هناك امرأة تقف في الظلام فوق رأسها وتراقبها في صمت. حاولت الصراخ لكن قبضة خفية أطبقت على فيها فكتمت الصرخة داخله بينما هزت المرأة رأسها بقوة وهي تشير بإصبعها نحو فمها وكأنما تأمرها بالصمت، راحت عيناها تسترقان النظر في الظلام لتتبين ملامح المرأة المخيفة بلا جدوى، وفي اللحظة التالية وجدت جسدها يرتفع عن الفراش ويتجه نحو السقف. تمنت الموت في تلك اللحظة لكن الموت ظل بعيدا، تمنت أن تفقد وعيها، لكن عقلها ظل مستيقظا، تمنت لو تصرخ لتجذب انتباه زوجها الراقد بجوارها عله ينقذها فلم تطاوعها حنجرتها، في النهاية وجدت نفسها ملتصقة بظهرها للسقف وعيناها موجهة نحو فراش زوجها الراقد في سلام والمرأة المخيفة مازالت تستتر بالظلام بجوار الفراش، أدركت أنهما ليسا بالصالة حيث ناما، بل في حجرة نومهما، كيف انتقلا إليها وكيف لم يشعرا بهذا ومن هذه المرأة؟ كلها أسئلة بلا إجابة.

انحنت المرأة المخيفة نحو الفراش ثم رفعت الغطاء ورقدت إلى جوار

زوجها وهي تحضنه من الخلف وتهمس في أذنه بشيء ما، كانت عيناها قد اعتادت الظلام واستطاعت أن ترى ما يحدث، وهي تبكي في عجز ورعب.

في تلك اللحظة كان الدكتور مصطفى في حلم عجيب، شعر أنه عاد شابا، وأن الدماء عادت للتدفق ثانية في أوردته الضامرة المتيبسة، وما بين الحلم واليقظة انساب عبر عقله نداء زوجته وهي تدعوه لها، كان الأمر غريبا، فهو لم يقربها منذ نحو خمسة أعوام، فلماذا يشعر الآن بمثل تلك النشوة والرغبة. التفت إلى تلك المرأة التي اعتقد أنها زوجته، فانسابت إلى أنفه رائحة مثيرة أججت مشاعره، راح يقبلها في نشوة وجنون، راح يحتضنها في عنف، ثم بدأ الجنون. كان عقله غائبا بالفعل في نشوته حين هدر البرق بقوة هزت جدران البيت فانتبه، كان يرقد على ظهره في تلك اللحظة ووجهه نحو السقف بينما رقدت تلك المرأة الغريبة فوقه، رأى زوجته المعلقة في السقف وهي ترمقه بذعر، ثم نظر إلى المرأة التي بين أحضانه فلم ير غير وجه أسود ورائحة شواء عنيفة تنبعث منه، صرخ في رعب لا حد له وهو يتراجع بظهره فوق الفراش ليجد نفسه ملقى أسفل الفراش، بينما ارتفعت من أعماق تلك المرأة المخيفة ضحكة صاخبة مرعبة مجنونة، راح جسده يرتجف في رعب، وشعر بقدمي تلك المرأة وهي تدور حول الفراش متجهة نحوه، وحين صارت أمامه، سطع الرق ليرى على ضوئه وجهها المحترق ويعرفها، كانت أخت زوجته وكان هذا أكثر مما يحتمله ففقد وعيه.

حين استيقظ كانت زوجته فاقدة للوعي إلى جواره وقد شحب وجهها، بينما كان جسده عاريا، تذكر ما مر به في الليلة الماضية فعاد إليه ذعره، انتبه إلى أن الصباح قد أتى، وأن مثانته تصرخ في ألم. نهض بأقدام لينة كأعواد المكرونة، ثم اتجه للخارج، فسمع مواء القطة يأتي مستغيثا من شيء ما.

سار نحو الشرفة حيث ينبعث المواء، فوجد القطة في أحد أقفاص العصافير وحوله الكثير من ريش العصافير الملون والملطخ بالدماء.

شعر بالذعر وقد أدرك أن القطة قد التهمت كل العصافير، لكن السؤال كيف حدث هذا، فكل عصفورين كانا في قفص منعزل محكم الإغلاق، كيف دخلت القطة كل قفص والتهمت ما به من طيور، وكيف انتهى بها الحال محبوسة هكذا. لم يشأ إرعاب زوجته أكثر من هذا، فخلص القط من سجنه وذهب إلى الحمام وجلس يقضي حاجته وهو يبكي بشدة وهو يتساءل، لماذا يحدث له هذا، وما هي جريرته، وهل هي تلك الملعونة حقا.

استيقظت زوجته فأصرت على مغادرة الشقة في الحال حتى ولو نامت في الشارع، من حسن الحظ أن الشوارع اليوم كانت في حال أفضل وقد عادت إليها حركة المرور، قررت زوجته الذهاب للإقامة مع أخيها، ثم دعته إلى أن يذهب معها لكنه كان مصرا على ألا يغادر البيت. في النهاية رحلت وتركته.

سمع حينها الصوت الأنثوي الهامس في أذنه:

-هذا أفضل، لو ظلت هنا أو ذهبت معها لماتت معك. تصرف حكيم منك أيها البشري.

كان في تلك اللحظة قد أيقن بالهلاك، وأن رومية قد عادت لتنتقم، إذن لماذا تموت زوجته معه، لتعيش هي ويموت هو، في النهاية ليس الموت لمن في مثل عمره بالشيء المستبعد.

مضت الليلة الماضية بلا متاعب وها هو في شرفته يراقب الجو الثائر من حوله وهو يجتر ذكرياته، حين شعر بها بجواره، أنبأه عطرها المثير بها فالتفت في بطء واستسلام، هذه المرة لم يكن الخوف هو المسيطر عليه، بل رغبته في الخلاص، كانت تراقبه مبتسمة في فتنة لا حد له، وهي تمسك في يدها هاتفا أنيقا باهظ الثمن. قالت له:

-ها قد التقينا ثانية.

قال في يأس:

-أنا مستعد.

حركت شاشة هاتفها نحوه فرأى صور تتحرك في إيقاع رتيب. ارتجف

قلبه حين أدك أنها صور أبنائه وأحفاده، وسمعها تقول:
-حياتك مقابل حياتهم، ستعرف الموت الآن وبأبشع طريقة تتخيلها كما تعلم، لكن لو نجوت فسيهلك أحدهم بطريقة أبشع، والآن ماذا تختار؟ حياتك أم حياة أحدهم؟
سالت الدموع من عينيه وهو يقول:
-لا تقتربي من أي منهم أرجوك. اقتليني ألف مرة ولا تؤذيهم.
نهضت بابتسامة مشرقة وأحاطت وجهه بكفيها الباردتين وهي تهمس في وجهه:
-لن أمسهم ما دمت طفلا مطيعا.
ثم قبلت جبهته برقة قبل أن تمتد كفيها ليغلقا عينيه، وحين أبعدت كفيها وجد نفسه عاريا راقدا على محفة تشريح في منتصف بيته، كانت رومية بعيدة عن بصره في مكان ما، لكنه سمعها تقول:
-هل فكرت يوما، ما الذي تشعر به الجثث وأنت تقوم بتشريحها وتمزيق أوصالها. هل سألت نفسك إن كانت تشعر بمبضعك، ربما حان الوقت لتعرف الإجابة، لكن الجسد الذي سنقوم بتشريحه اليوم لن يكون ميتا، بل سيكون حيا، خمن من يكون، ثم انظر ماذا أحضرت لك.
ومن خلفها برز جثمان يعرفه جيدا، كانت أول جثة يقوم بتشريحها في حياته كلها، كانت واقفة في جمود وفي يدها مبضع جراحي. بينما واصلت رومية وهي تفسح الطريق للجثة لتقترب منه:
-لستما بحاجة للتعارف كما أظن. والآن لأدعكما لتواصلا تجربتكما الشيقة.
وتحركت الجثة نحوه بلا تردد ثم دفعت المشرط الحاد نحو جلده.

(28)

كان من العسير أن يخبر محمد شاهين فؤاد بكل ما حدث له بالأمس، لن يقول له أنه قابلها وأنه رغم ذعره الشديد من مواجهتها في البداية وجدها تخبره بأنه يروقها ليجد نفسه بعد قليل من لقائه بها وقد

لب نحوها بشدة وراح قلبه المسن يدق بعنف، لكن ليس رعبا هذه المرأة، بل نشوة واشتياقا ورغبة. حكاية تليق بفيلم عربي سخيف قديم، حين يقابل البطل عدوا فيقع في حبائله. لكن هذا هو ما حدث. هناك شيء ما استيقظ في قلبه، دون إرادته بل وضد رغبته في الواقع، هل كانت فتنتها وأنوثتها الكاملة هي ما أشعل وجده، أم كان سحرا مارسته عليه وتعويذة شريرة ربطت بها قلبه، وهل حقا هو يروقها كما تزعم، أنها تعبث به كعادتها؟

الغريب أنه لا يشعر بأي غضاضة في أن يكون كل ما يمر مجرد تعويذة أصيلة أصابته أو عبث تمارسه تلك الشيطانة، ليكن ما يكون، فكل ما يتمناه في تلك اللحظة أن يراها ثانية حتى لو كان في هذا هلاكه.

بالطبع لن يحكي لفؤاد تلك المشاعر المتناقضة الغريبة التي يشعر بها، لذا سيلجأ لأقدم خطيئة في تاريخ البشرية؛ ليخترع فرية أو كذبة صغيرة.

لذا قال:

-حدث هذا بالأمس، كنت أتناول عشاءي في أحد المطاعم فوجدتها أمامي بغتة.

-وماذا كانت تريد؟

قالها فؤاد وهو يشعل لفافة أخرى.

-لم تقل الكثير، لكنها أخبرتني أنها تعلم بخطة اليوم لنا في الذهاب للدكتور مصطفي، وأنها ستمنحنا فرصة إنقاذه لو وصلنا إليه في الوقت المناسب.

-وهل صدقتها؟

ابتسم الدكتور محمد شاهين:

-وحتى لو كانت تكذب هل يغير هذا من الواقع شيئا، ولأننا نمارس اللعبة بقواعدها فليس أمامنا غير التشبث بأي أمل ولو صغير، لقد قالت أنها ستمنحنا فرصة لإنقاذ الدكتور مصطفى، فلماذا لا نحاول إنقاذه ونتمنى أن تكون صادقة في وعدها؟

-من يدري!

-وماذا عن شبابك الذي أعادته لك، ألا ترى أن هذا مريب قليلا؟
حاول محمد شاهين التماسك وعينيه في عيني فؤاد، مستغلا براعته كطبيب نفسي وهو يجيب:
-لا أدري ماذا فعلت بي، لكنها قالت لي وهي تنصرف أنها ستمنحني هدية ما، وحين عدت لداري ونظرت في المرآة، ورأيت كيف عدت لشبابي، علمت أنها حتما من فعلت هذا، لكنني لا أدري تفسير هذا، ربما فعلت هذا كطعم قبل أن تهلكني بشبابي مثلا.
نظر إليه فؤاد في شك، أفصحت خلجاته أنه لا يصدق كثيرا ما قاله محمد شاهين، لكنه كتم شكوكه في أعماقه، وهو يتراجع بظهره للخلف وفمه ينفث دخان سيجارته بعمق وتفكير، ارتج القطار بقوة في تلك اللحظة متزامنا مع ومضة البرق التي سطعت في السماء، فارتجف للحظة وكل مخاوفه من البرق تعود ثانية، قبل أن يقول:
-أليس غريبا أنني لا أعلم أي شيء عن تلك اللعينة التي تطاردني حتى هذه اللحظة رغم أنها هددتني بابنتي وكادت أن تفتك بزوجتي؟ لقد قلت لي أنها إحدى الكائنات القديمة ..
-لا نطلق عليهم الكائنات، بل الآحاد القديمة أو الكيانات القديمة.
-سمها ما شئت، لكن أخبرني ما كنه تلك الأشياء ولماذا أخبرتني من قبل أنها أكثر شرا من الشياطين، المفترض أن الوزارة طالبتني بالتعاون معك في هذا اللغز بصفتك خبيرا، لكن سامحني لو أخبرتك أنني لا أشعر بأنك تقدم لي أية فائدة، فلا أنت أخبرتني من تكون تلك الشيطانة ولا كيف نعثر عليها، كما أنك تردد دوما أنك لا تعلم كيف تواجها، رغم أنك فعلت هذا من قبل كما تزعم.
-أنت محق في التشكيك في جدوى مساعدتي، لكن صدقني لو أخبرتك أن الأمر ليس سهلا، ربما كنت خبيرا في التعامل مع الحوادث الخارقة الغامضة، وربما كانت لدي خبرات عدة في التعامل مع الجان والشياطين، لكننا هنا نتحدث عن شيء أكثر قدما وغموضا، وخبرات تعامل البشر معها محدودة، ولم تترك خلفها غير القليل من الحقائق

والكثير من المبالغات أو الادعاءات.
-إذن لنبدأ من البداية، أخبرني ما تعرفه عن تلك الكيانات القديمة.
-دعنا نتحدث أولا عن شاعر يمني مجهول يُطلق عليه عبد الله الحظرد، ظهر في فترة حكم الأمويين، الرجل شغف بالسحر وراح يتتبع كما زعم آثار العماليق والجبابرة، يقولون أنه عاش نحو عشرة أعوام في صحراء الربع الخالي، حيث تواصل مع الجن والشياطين والمردة، ويقال أنه تعلم السحر منهم وأسرار استنطاق الموتى وأنهم أخبروه بالجنس الأكثر قوة من البشر والشياطين، وأنه يطلق عليهم الآحاد القديمة. بعدها زعم عبد الله الحظرد أنه نجح في التواصل مع بعض تلك الكيانات القديمة، بل ويقال أنه عبد سادتهم مثل كثوللو، ويوث وسوثوث.
-أنت تتحدث عن مشعوذ أو ساحر وليس بشاعر.
-بل كان ألعن، المهم أنه في نهاية عمره عاد إلى دمشق وراح يؤلف أخطر كتاب ظهر في القرون الوسطى، أطلق عليه "العزيف".
-يا له من اسم، لكن ما الذي يعنيه هذا؟
-يقال أنها نسبة لأصوات الجن في الصحاري والبقاع الخالية، وأعتقد أنه سماه كذلك ليشير إلى أن كتابه قائم على معارف وعلوم استمدها من قوى غير بشرية.
-وهذا الكتاب كان كتاب سحر؟
-ليس بالضبط، إنه أقرب لكتب التاريخ حيث يحكي أحداث الماضي، لكنه كذلك يتحدث عن طقوس وتعاويذ سحرية لاستجواب جثث الموتى والأرواح القديمة لمعرفة أحداث الماضي الغابر والاتصال بتلك الآحاد القديمة، كما أنه راح يذكر تاريخا كاملا لهم، لقد راح يؤكد أنهم الجنس الأقدم من البشر والجان والشياطين، وأنهم السادة الحقيقيون في هذه الأرض، إنهم كائنات تحيا فيما وراء العالم، بل وزعم أن بعضهم اتصل بالبشر وأنجب منهم ذرية من المسوخ والشياطين. وأن بعضهم ما زال يحيا بيننا حتى هذه اللحظة، ثم أطلق نبوءته المشؤومة، وهي

أنهم سيرثون الأرض ومن عليها في نهاية الأمر، بعد أن يحولوا الأرض كلها إلى خراب.
-يا لرحمة الله، هذا خيال مريض للغاية. لكن هل تعتقد أن هذا الكلام قد يصبح حقيقة؟
-أخشى أن تكون النهاية كما تنبأ بها عبد الله الحظرد، لاحظ أن الكتب السماوية جميعا والكثير من الأساطير تتحدث عن أن نهاية العالم ستكون بنهاية البشر وتحوله إلى خرائب وسكناه بالشياطين، إذن نحن أمام تحريف بصورة ما لتلك النبوءة.
-وماذا عن ذلك الشاعر الملعون، ما الذي حل به.
تذكر محمد شاهين ذلك الحلم العجيب الذي حلمه، لكنه واصل قص الحكاية كما دونتها الكتب وليس كما رآها:
-كما ذكر ابن خلكان المؤرخ في القرن الثالث عشر، فقد مات أو اختفى عام 738 حيث اختطف من قبل كيان غريب وحشي مخيف التهمه في وضح النهار، ويقال أن الكتاب الذي كتبه كان سبب هلاكه. لكن دعنا من الحظرد، ولنتحدث عما هو أهم، كتابه المزعوم "العزيف"، يقولون أنه كان كتابا ضخما تبلغ عدد صفاحاته نحو 900 صفحة، لقد اختفى الكتاب بغتة مع موت عبد الله الحظرد، لاحظ أنه لا توجد وثيقة أو مخطوطة عربية واحدة تتحدث عن الكتاب رغم شغف العرب الكبير بالتدوين في تلك الفترة المشرقة من الحضارة الإسلامية، ربما كان هذا بسبب كراهيتهم لعلوم السحر وربما لأن الكتاب قد اختفى قبل أن يصلهم خبره.
-أعتقد أن الكتاب بعدها قد ظهر ثانية.
-أنت محق، عاد الكتاب للظهور ثانية عبر ترجمته إلى اللغة الإغريقية عبر شخص مجهول يدعى ثيودر فيلاتاس، ويقولون أنه من منحه الاسم الرهيب، نيكرونوميكون وهي تعني "أسماء الموتى"، يقولون أن البعض قد استخدم الكتاب في فعل أمور شنيعة لذا فقد حرمه البطريك مايكل الأول في العام 1050م، كما كان الحرمان الكنسي والتعذيب

والقتل عقوبة من يملك نسخة من الكتاب، ثم جاء أولاس ورمياس ليترجمه إلى اللاتينية، فبلغ الأمر الكنيسة ثانية ليأمر البابا جريجوري التاسع بإحراق كلتا النسختين الإغريقية واللاتينية من الكتاب وإحراق من يفكر في امتلاك الكتاب.

-وكأنك تتحدث يا دكتور عن محاكم التفتيش.

-أجل، لاحظ أن تلك الفترة هي الحقبة الذهبية لمحاكم التفتيش الرهيبة، المهم أن الكتاب وكما هو متوقع لم يختف رغم تلك الإجراءات، فقد ظهرت النسخة الإغريقية ثانية في إيطاليا في القرن السادس عشر، كما يتحدثون عن أن النسخة اللاتينية ظهرت في ألمانيا في القرن الخامس عشر وفي إسبانيا في القرن السابع عشر. هناك كذلك أقاويل تتحدث عن ترجمة الكتاب للعبرية في عام 1664 بواسطة ناثان غزة وهو كما يقولون، أحد أقوى المشعوذين في تلك الحقبة وقد سمى الكتاب بـ سفر "هاشاري حاداث" أي كتاب بوابات المعرفة.

-إن اليهود مغرمون بحشر أنوفهم في كل أمر جدلي.

-هذا دأبهم، لا تنس أن الكثير من تعاليمهم المستمدة من الكابالا قائمة على السحر.

-وأين هو الكتاب الآن؟

-لا أحد يدري، يقولون أن هناك نسخة منه في مكتبة الفاتيكان، بالطبع هناك عشرات النسخ المتداولة موجودة عبر النت، لكن أعتقد أن جميعها مزيفة.

-وكيف عرفت كل هذا طالما الكتاب سري وغير متداول.

-سيدهشك أن تعلم أن أغلب هذا التاريخ جاء عبر أعظم كاتب رعب في التاريخ، لافكرافت، هذا الرجل ظل يؤكد طوال الوقت أن الكتاب حقيقي، وكانت أغلب قصصه تدور في فلك تلك الكيانات القديمة، يقولون أنه عرف كل تلك المعلومات عبر زوجته التي كانت زوجة هوديني من قبله.

-هل تعني ذلك الساحر المشهور؟

-هو ذاته، يقولون أنه هو الآخر كان يحلم بالظفر بذلك الكتاب وأنه تتبع أخباره بهمة، وربما قص شيئا من طموحه على زوجته التي نقلت الخبر بعد ذلك إلى زوجها الجديد.

-قصة مثيرة بالفعل. لكن ما هو رأيك في كل هذا؟ وهل ترى أن الكتاب حقيقي فعلا؟

-في رأيي أن هذا أغلبه هراء، والقليل منه حقيقة.

-وكتاب العزيف أو النيكرنوميكون؟

-كتاب مزعوم لا أصل له.

بالطبع لم يخبره بكتاب اللعنات، الكتاب الأصلي الذي ربما وصل خبره للبعض فاصطنع اسما مزيفا له، وحاول إلباسه نفس التأثير والتاريخ المزعوم. تعلم محمد شاهين في السنوات الأخيرة أن هناك من الأسرار ما لا يجوز إفشاؤه لأي مخلوق آخر، بل لا ينبغي الحديث عنها حتى مع النفس، وكتاب اللعنات أحد تلك الأسرار الكبرى المجهولة التي ينبغي أن تظل كذلك.

مضت ساعتان رتيبتان حتى وصل القطار محطة مصر، بالإسكندرية، كانت المحطة غارقة في أمطار غزيرة إلى حد السيل، كان الرصيف شبه خاو، لكن الأرض انشقت عن شارب ضخم في وجه رجل أقل ضخامة، مخبر كما تخيل المخبرون كل كتاب ورسامي الأرض، لم يدر محمد شاهين كيف تعرفهما لكنه تقدم نحوهما وركز بصره على فؤاد وهو يقول:

-فؤاد باشا كما أعتقد.

-بشحمه ولحمه.

-بسطويسي عكاره يا باشا، مخبر في قسم شرق. السيارة بانتظارك بالخارج يا فندم، أخبرني محمد باشا أبو البيه، أن أقلك من المحطة وأن أصحبك حيث تريد.

-أشكرك.

أسرع الاثنان خلفه وقد أغرقتهم الأمطار تماما. وغمغم محمد شاهين

وهو يرمق السماء المكفهرة:
ويقولون أن القاهرة تمطر، لو ذهبوا للإسكندرية لعرفوا معنى الأمطار الحقة.
ضم فؤاد ياقتي معطفه حول عنقه وهو يغمغم:
لا فرق يا دكتور، فكلا المدينتين تعاني في المطر من الوحل والغرق.
يا لك من رومانسي.
بلغوا سيارة بيجو 504 عتيقة موديل 79 زرقاء اللون، دخلها بسطويسي وهو يغمغم:
تفضلا بالركوب.
غمغم محمد شاهين في شك:
هل تعتقد أن هذه السيارة قد تعمل.
ضع في بطنك "بطيخه صيفية" يا سيدي، أدعوها "سكينة"، وهي لم تخذلني قط. انتظر لتراها وهي تنهب الطريق نهبا وتسبق "أجدع" سيارة حديثة.
ركب فؤاد بجوار بسطويسي وركب محمد شاهين في الخلف، ثم انهمك بسطويسي في تشغيل السيارة، بدأت تقرقر دون أن يلوح في الأفق أنها قد تنهض من سباتها، نظر فؤاد إلى محمد شاهين وكأنه يقول: "نقيت فيها"، فابتسم محمد شاهين منتصرا وكأنه يقول: "ألم أقل لكم، هذا الديناصور مستحيل أن ينهض من سباته"، بينما تصبب العرق من وجه بسطويسي وهو يحاول للمرة العاشرة تدويرها وهو يردد:
-هيا يا "سكينة" لا تخذليني أمام الباشوات".
ثم أطلق سبة بذيئة معتادة في مثل تلك الأمور، وهو ينتظر أن تأتي بنتيجة كالعادة، لكن السيارة أبت أن تستجيب، فنظر بسطويسي إلى فؤاد في خجل وقد تهدل شاربه الضخم على وجهه في انكسار، وغمغم:
-معذرة يا باشا، يبدو أن البطارية قد فرغت من البرد.
-وماذا سنفعل الآن؟
أجابه محمد شاهين ساخرا:

-سندفعها بالطبع. ظننت هذا واضحا.
وابتسم بسطويسي في خجل مؤكدا تخمين الدكتور محمد شاهين.

(29)

فجأة اندفع بسطويسي عبر الباب الذي هشمه بكتفه، ليتكوم على الأرض في نفس اللحظة الذي قفز فيها من فوق جسده فؤاد وخلفه محمد شاهين للداخل والأول يهتف:
-دكتور مصطفى. هل أنت هنا. هل أنت بخير؟
كانوا قد بلغوا المكان الذي يسكن فيه الدكتور مصطفى بعناء شديد، في البداية انقطعت أنفاسهما من دفع السيارة حتى استجاب محركها، بعدها كانت هناك الرحلة الرهيبة في شوارع غمرتها المياه تماما وحولتها لبحيرات عظمى، كان السير عبرها مخاطرة مهولة، واضطروا لعبور أنفاق أغرقتها المياه حتى أن المياه تسربت عبر الشبابيك المغلقة لتبلل ملابسهم ومقاعدهم، بينما ازداد غضب السماء من فوقهم فراحت تبرق وترعد وهي تصب سيولها في عنف، وكأنها غاضبة منهم، معترضة على رحلتهم المهلكة وترغب في تعطيلهم، لكنهم بلغوا وجهتهم في النهاية بفضل بسطويسي الذي يعرف كل بيت في المكان حيث تقع دائرة نفوذه ومقر عمله. ارتقوا إلى الطابق الثاني مباشرة حيث شقة الدكتور مصطفى، طرق فؤاد الباب عدة مرات متصاعدة القوة، ولما لم يستجب الدكتور مصطفى لم يكن هناك من حل أمامهم غير كسر الباب، في تلك اللحظة أتى دور بسطويسي بشاربه الكبير وجسده الضخم كأجساد الغوريلا، فلم يحتمل الباب غير ضربة واحدة من كتفه ليتهشم مزلاجه.
لم يجبهم الدكتور مصطفى، فاندفع فؤاد نحو الممر الضيق المؤدي للحجرات الداخلية، كانت حجرة نوم الدكتور مصطفى هي الوحيدة المغلقة، ومرة ثانية جاء دور بسطويسي للقيام بدوره الذي يستهويه، كسر الأبواب. فتلك المغامرات الصغيرة تظهر للجميع قوته المذهلة،

والتي تجلب نظرات الإعجاب والرضا في عيون رفاقه ورؤسائه، كانت الغرفة حالكة الظلمة، بحث فؤاد عن مكان رز الإضاءة على الحائط وهو يتعجب من ذلك الظلام الذي لم يتأثر بالضوء القادم من الردهة فلم يتبدد ولو قليلا، في نفس اللحظة التي أضاء فيها الدكتور محمد ضوء هاتفه المحمول وهو يهمس:

-دكتور مصطفى، هل أنت بالداخل.

فجأة صرخ الدكتور مصطفى من قلب الظلام في غضب وثورة:

-ابتعدوا، اذهبوا من هنا، ودعوني وشأني.

واشتعل المصباح الكهربائي فجأة. كان الدكتور مصطفى راقدا على فراشه مقيدا وأمامه جثة عارية متغضنة الجلد تنبعث منها رائحة فورمالين خانقة. لكن الرهيب أنها كانت تحمل مبضعا حادا للتشريح في يدها وتنحني نحو صدر الدكتور مصطفى وكأنها تبغي القيام بتشريحه حيا.

صرخ بسطويسي في رعب حقيقي:

-ما هذا، إنها جثة؟!

ثم اندفع للباب في فزع جم ومازال يصرخ وكأنه يبغي الهرب، لكنه اصطدم بحاجز خفي في مكان الباب، ليرتد جسده في عنف ويهوي على الأرض كجلمود صخر، لكنه نهض بسرعة وعاد يصرخ:

-كلا. أخرجوني من هنا، لا أريد أن أموت. أخرجوووني.

بينما أخرج فؤاد مسدسه وهو يقول في توتر:

-رباه ليس ثانية.

لكن الدكتور مصطفى صرخ فيهم ومازال ثائرا:

-كلا. اذهبوا، دعوه يكمل عمله وارحلوا. أنتم لا تعلمون شيئا. ارحلوا ودعوني وشأني.

تجمد الدكتور محمد شاهين في مكانه وهو ينقل بصره بين الجثة التي مازالت واقفة توليهم ظهرها والدكتور مصطفى الراقد أمامها عاريا، في استسلام مريب، وهو يطالبهم بالرحيل. اختلطت رائحة الفورمالين

الشنيعة برائحة عطرية مميزة، رائحة رومية، إذن كانت هنا منذ لحظات بلا شك.
قال الدكتور محمد شاهين مهدئا:
-مهلا يا دكتور مصطفى، إنه أنا، الدكتور محمد شاهين أستاذ الطب النفسي، ألا تذكرني، نحن هنا لإنقاذك.
-أعلم من تكون، لكن اذهب بالله عليك، لا أريد من أحد إنقاذي، دعوني وشأني، أنتم لا تفهمون شيئا، اذهبوا بالله عليكم. اذهبووووا.
واصل بسطويسي الصراخ في رعب حقيقي لا يتناسب أبدا مع شاربه الكبير وجسده الضخم وملامحه الغليظة الصارمة المخيفة، زحف نحو الحائط والتصق به وكأنما يرغب في الذوبان فيه أو التسلل عبره هربا، في نفس الوقت الذي هتف فؤاد في الجثة:
-ابتعد عنه أيها الشيء اللعين.
هنا التفتت الجثة نحوهم في حركة متصلبة ميكانيكية، وراحت ترمقهم بعيون باهتة مسودة لا ترمش. وقد صارت المدية في يدها المتيبسة مصوبة نحوهم، حبس الجميع أنفاسهم وهمس محمد شاهين وعينيه معلقة بالجثة:
-حذار يا فؤاد. إنها جثة محفوظة بالفورمالين.
رد عليه فؤاد ويده ممتدة بسلاحه الناري نحو الجثة:
-وكيف أتت إلى هنا؟
همس محمد شاهين:
-وهل تسأل؟!
كانت الإجابة معروفه له دون أن يسأل، مضت لحظات من الترقب قبل أن تتحرك الجثة نحو فؤاد بغتة وكأنها أدركت أنه أخطر الموجودين، شهق بسطويسي قبل أن يكتم فمه بكفه الغليظ، في نفس اللحظة التي تراجع فؤاد للحظة وهو يردد:
-لا تتقدم يا هذا، توقف مكانك.
لكن الجثة واصلت التحرك، هنا لم يتمالك فؤاد نفسه وراح يطلق

رصاصات مسدسه نحو الجثة في سخاء، ارتدت الجثة للخلف ثم هوت على الأرض، وقبل أن يتنفس الجميع الصعداء كانت تستعد للنهوض ثانية فصرخ فؤاد في حنق وهو يبدل خزينة مسدسه:

-ألا يموت هذا الشيء اللعين.

أجابه محمد شاهين في توتر وهو يخشى أن تفشل رصاصات فؤاد في إيقاف الجثة ويضطر لمواجهتها في صراع جسدي:

-إنه ميت بالفعل، حاول أن تصيب الرأس

كانت فكره مرعبة أن يتصارع مع جثة باردة متيبسة، بينما اتخذ فؤاد وضع التنفيذ وقبل أن تنهض الجثة راح يطلق رصاصاته كلها نحو رأسها، تناثرت أجزاء الجمجمة والمخ في كل مكان، لكن الغريب أن الجثة التي انفجر رأسها ووجهها تماما، وبعد أن سقطت عادت مرة أخرى للتحرك وبدأت في النهوض، فصرخ بسطويسي فيهم:

-اقتلوا هذا الشيطان، لا تدعوه يقلتني، اقتله يا فؤاد باشا بالله عليك.

كان جبنه الذي يتناقض بشدة مع ضخامته غريبا، لكن أحدا لم ينتبه له في تلك اللحظة، فقط تراجع فؤاد ومحمد شاهين للخلف أمام الجثة التي صارت بلا رأس وقد وقفت الآن في مواجهتهم، وغمغم فؤاد:

-هل من اقتراح للقضاء على هذا الشيء؟

لو كان هناك مصدر نيران قوي لربما أفلح الأمر كما حدث في المشرحة، لذا راح عقل محمد شاهين يجاهد للبحث عن مخرج قبل أن ينتبه للقدمين، فقال بسرعة:

-صوب رصاصتك نحو قدميها، والركبة تحديدا.

أدرك فؤاد مقصده فأطلق نحو كل ركبة إحدى رصاصاته، هذه المرة هوت الجثة وقد فقدت قدرتها على المشي، وحين حاولت الاتجاه نحوهم بجذعها، معتمدة على ذراعيها أطلق فؤاد نيرانه نحو الكوعين، هذه المرة همد الجسد تماما، فزفر فؤاد في توتر:

-يا إلهي، ظننت للحظة أن هذا الكابوس لن ينتهي.

بينما انتبه محمد شاهين للدكتور مصطفى الذي سكنت حركته تماما،

فاندفع نحو فراشه وهو يخشى أن يكون قد فارق الحياة من أثر الرعب
بسكتة قلبية مثلا وقال في جزع:
-كلا. ليس الدكتور مصطفى.
وضع أنامله بسرعة على رقبته ليتأكد من نبضه، كان شريانه السباتي
ينبض في انتظام، لكن في ضعف. وسمع فؤاد يقول من خلفة:
-هل مات؟
-لا. إنه فاقد للوعي.
قالها وشرع في إفاقته على الفور، بعد نحو عشر ثوان صدر تأوه ضعيف
من شفتي الرجل المسن قبل أن يفتح عينيه بغتة وينظر حوله في غير
فهم، وابتسم محمد شاهين في وجهه وقال وهو يغطي جسده العاري
تماما بغطاء ثقيل:
-حمد الله على سلامتك يا دكتور مصطفى.
رمقه الرجل في حيرة، وردد:
-سلامتي؟!!
ثم استعاد ذاكرته بعدها دفعة واحدة وانتبه لنفسه، فصرخ فيهم في
غضب وجزع:
-ماذا فعلتم أيها التعساء، لماذا لم تتركوني لأموت، لماذا أنقذتموني؟
-قال له فؤاد هذه المرة:
-هون عليك يا سيدي، لقد ذهب الخطر الآن.
لكن الدكتور مصطفي راح ينشج في حزن جم:
-أنتم لا تفهون شيئا، تلك اللعينة ستقتل أبنائي لو لم أمت، دعها تقتلني
بالله عليكم، ارحلوا عني،
ثم راح يصرخ وهو يرمق سقف الحجرة بعيون جاحظة:
-أنا هنا. هيا اقتليني. اقتليني أنا لكن ليس أبنائي.
تعاون فؤاد ومحمد شاهين على كبح ثورته وقد أدركا أن الرجل يعاني من
ضغط عصبي رهيب، كان من الجلي أن رومية قد زارته وقد هددته
بحياة أولاده إن لم يضحي بحياته، قاومهم الرجل وهو يصرخ في

وجوههم مطالبا إياهم بالرحيل، وبجهد رهيب أبقياه بمكانه، ثم انهارت مقاومة الرجل مرة واحدة وراح ينتحب في صوت مرتفع، لم يتحدث أي منهم ولو بهمسة وتركاه ليفرغ توتره في فيض عيونه، وبعد أن هدأ قليلا قال فؤاد:

-دعونا أولا نغادر هذا المكان اللعين.

قالها واتجه نحو فجوة الباب التي تظهر الشقة من ورائها، لكن جسده ارتد عنها بعنف فور أن بلغها وكأنه يصطدم بحاجز خفي من زجاج يعوق خروجهم، سال الدم من أنفه وقال وهو على الأرض:

-أي عبث شيطاني هذا.

تقدم محمد شاهين نحو الباب ثم توقف أمامه، مد ذراعه عبره فعبر الذراع بلا أدنى مقاومة، أعاد ذراعه لمكانه ومد قدمه اليمنى عبره فعبرته كالذراع، هنا جرب في حذر أن يعبر بجسده، لكن وكما حدث لفؤاد ارتد جسده وقد اصطدم بالحاجز الخفي. كان شيئا عجيبا، وقال فؤاد وقد نهض تماما:

-والآن كيف سنخرج.

وقبل أن يفكر حتى محمد شاهين في الإجابة غرقت الحجرة في العتمة، كان أقوى ظلام دامس رأوه في حياتهم، ظلام أشبه بالظلام الأول الذي غلف الكون في بدء الخليفة، ظلام لا يلوثه شعاع ضوء واحد، الغريب أن النوافذ الزجاجية المطلة على الخارج اسودت كذلك وكأن ضوء النهار بالخارج استحال إلى ليل دامس. شهق فؤاد، بينما ترددت صراخات بسطويسي مرة أخرى وهو يقول:

-كلا. كلا. أضيئوا تلك الأضواء اللعينة، أنا لا أحب الظلام.

ولم يحتمل محمد شاهين كل هذا الجبن فصرخ فيه:

-كف عن جبنك هذا ولو للحظة وابتلع لسانك يا هذا واصمت.

لكن بسطويسي صرخ ثانية:

-ااااااااااااااااااااااااااااه

لم تكن صرخة خوف هذه المرة، بل كانت صرخة ألم لا يحتمل، صرخة جمدت الدم في عروق الجميع، لم تدم الصرخة أكثر من لحظة واحدة ثم صمت الرجل تماما، هنا قال فؤاد في صوت أقرب للهمس:

-بسطويسي، هل أنت بخير، لماذا صمتّ يا رجل؟

ثم تقدم خطوة واحدة في حذر في الظلام نحوه، قبل أن يسمع الدكتور محمد شاهين وهو يهتف محذرا:

-إياك أن تتقدم نحوه، ليس قبل أن يعود الضوء ونعرف ما الذي أصابه

تجمد فؤاد في مكانه على الفور، بينما غمغم الدكتور مصطفى في صوت واهن:

-لماذا أطفأتم النور.

بدا وكأن الرجل في عالم آخر ولا يدري ما يدور حوله، لكن صوت محمد شاهين عاد ليتردد في المكان في كلمات غامضة لها وقع مخيف وبصوت جهوري ملأ الظلام:

Pugna tenebris، sanctae expeditionem flamma.

Hoc est realis tenebris

Non credis eum

Non est verum

Non credis eum

Non est verum

oculos nostros arcerent

Pugna tenebris، sanctae expeditionem flamma

Pugna tenebris، sanctae expeditionem flamma

ومع آخر كلماته ذهب الظلام عن عيونهم فجأة، فقال فؤاد في دهشة:

-ماذا كنت تقول، وكيف عاد الضوء؟

-إنها تعويذة قديمة لجلب الضوء في الأماكن المظلمة، رددتها وأنا غير

يتأكد من أنها ستفلح، لحسن الحظ أنها نجحت.
ثم بتر حديثه حين انتبه لمكان بسطويسي فقال في رعب:
- بسطويسي.
اتجهت العيون كلها حيث ينظر. وفي نفس البقعة التي كان بها بسطويسي كان جسده قد التحم بالجدار، وعلى وجهه نظرة رعب هائلة، عيناه جاحظتان تنظران للفراغ في نظرة مرعبة، لمس محمد شاهين وجهه ثم أبعد يديه كالملسوع، كان جسده قد صار صلبا كالحجر وكأنما استمد من الحائط الذي اختفى أغلب جسده فيه نفس تكوينه الإسمنتي الصلب. فقط ما بقي من جسده محتفظا بآدميته كان شاربه الضخم الذي ابتلع أغلب وجهه طوال عمره.
دار فؤاد حوله وقال في أسى:
- اللعنة، ماذا أصابه.
نظر محمد شاهين إلى نافذة الغرفة الزجاجية المطلة على البحر، وهو يجيب:
- علينا الخروج من هنا في الحال لو شئنا البقاء أحياء كي لا نلحق به.
التفت الجميع للنافذة، فرغم الجو العاصف بالخارج والأمطار الغزيرة كان هناك سرب هائل من طيور النورس البحرية يدور حول النافذة في دائرة ضخمة. وبينما دب الخوف في نفوسهم من هذا المشهد الغامض أدرك الجميع أن تلك الطيور ستهاجمهم بعد قليل. فقال فؤاد:
- أخرجنا بالله عليك يا دكتور محمد، اعتصر عقلك وفتش عن أي حيلة سحرية لعينة تساعدنا في الخروج من هذا المكان.
ولم يكد يتم قوله حتى بدأ الهجوم. راحت أسراب النوارس تهاجم النافذة في عنف، في مشهد أعاد لعقل الجميع المشهد المخيف من فيلم هيتشكوك المرعب، (الطيور)، نهاية بشعة هي أن تموت ممزقا بمناقير الطيور، وكم هو مرعب أن تشعر بمناقيرها وهي تفجر مقلتيك قبل أن تجذبهما للخارج وأنت لازلت حيا، لذا استل فؤاد مسدسه ثانية وهو يرمق النافذة في قلق وقال:

-افعل شيئا يا دكتور محمد.

حاول محمد شاهين التركيز وعزل عقله عن الخطر المحدق بهم، بل يدور حول فتحة الباب وكأنما يبحث عن ثغرة خفية ما، قبل أن يحسم أمره وغمغم:

-أتعشم أن يفلح هذا.

وأخرج من جيبه قطعة من الطبشور الأحمر، وبدأ يرسم في الفراغ حيث يوجد الباب، في البداية رسم مفتاحا، والغريب أن الرسم ظهر في الفراغ بضوء أحمر كهرماني، لم ينتبه الدكتور مصطفى وفؤاد لما حدث، فعيونهم كانت معلقة بالنافذة الزجاجية التي تهاجمها الطيور في ضراوة، مصدرة صوت اصطدام مرعب، بدأت النافذة في التشقق، وبعد لحظات أخرى نجح أحد الطيور في صنع ثقب فيها بمنقاره الطويل فصاح الدكتور مصطفى.

-انظر. أحدها يخترق الزجاج، لن تصمد النافذة طويلا.

كان فؤاد يعلم هذا، وفي سره دعا الله أن يخرجهم من تلك الورطة وأن يفلح محمد شاهين في مسعاه. ظهر ثقب ثان، ثم ثقب ثالث، قبل أن ينهار جزء من النافذة ويبرز من خلفه رأس أحد النوارس وهو يجاهد لعبور النافذة، كان من الحماقة أن يطلق فؤاد عليه الرصاص، فطلقة غير صائبة كفيلة بانهيار النافذة تماما في لحظة واحدة وأن تمنح الفرصة لدخول مئات الطيور في لحظات، راح الطائر يجاهد لينفذ بجسده من الثقب الضيق، لكن أحد جناحيه تمزق بغتة في صوت مخيف بينما نفذ باقي جسد الطائر إلى الداخل تاركا جناحه المبتور ليسد الفتحة التي خرج منها.

هوى الطائر على الأرض وهو يصرخ، ويخبط الهواء بجناحه الباقي، لم ينتظر فؤاد واتجه نحوه وهوى بحذائه الضخم على رأسه فهشمه تماما. شهق الدكتور مصطفى من هول المنظر، وانتفض جسد الطائر المقتول لثوان، قبل أن تهمد حركته تماما، بينم راحت الطيور في الخارج تمزق الجناح المبتور في شراهة كي تزيله من مكانه.

وعلى الباب انتهى محمد شاهين من رسم مفتاح خامس بالطبشور، بعدها راح يوصلها ببعضها ليرسم نجمة خماسية، وفي منتصفها رسم عين واسعة راحت مقلتها تتوهج ببريق موجس. رسم مفتاحا صغيرا في النهاية أسفل النجمة فتوهجت الخطوط كلها لثانية ثم اختفت تماما، اندفع محمد شاهين لعبر فتحة الباب فعبرها، هنا صرخ في رفيقيه:
أسرعا.
ودون تفكير اندفع الاثنان نحو الباب في نفس اللحظة التي انهارت فيها النافذة واندفعت الطيور لتملأ الحجرة، نجح محمد شاهين في إغلاق باب الحجرة الخشبي في الوقت المناسب، وخلف الباب المغلق انهار الثلاثة وهم يلهثون في قوة، بينما راحت الطيور من الداخل ترتطم بالباب في قسوة. وكأنما تحاول اقتحامه هو الآخر. ومن أعماقه قال فؤاد في خوف حقيقي:
رباه، أي جحيم هذا الذي نعيشه.

(30)

مضى الكثير من الوقت دون أن يتحرك أحدهم من مكانه، فقط كان هناك صوت الأنفاس اللاهثة المرتجفة، والصراخ المكتوم لطيور النورس داخل الغرفة المغلقة، وأصوات ارتطامها بالباب الذي ظل يتردد لوقت طويل قبل أن ينتهي مرة واحدة. تبادل محمد شاهين وفؤاد النظر وقال الأخير:
-هل رحلت؟
أرهف محمد شاهين السمع واقترب بحذر بأذنه من الباب، قبل أن يغمغم:
-أعتقد أن الأمر قد انتهى.
كان ضوء الردهة القصيرة ضعيفا، فرفع فؤاد بصره نحو السقف ليرى إن كانت هناك لمبات ضوء أخرى فيشعلها، لكن كانت هناك لمبة واحدة من النوع الموفر للطاقة تبعث ضوء أبيض شبحي، فكر في أنها

ربما كانت تحتاج للتغير، ثم أخرج من جيبه علبة السجائر واستعد ليشعل واحدة وهو يقول:
-وماذا عن الخارج، هل تنتظرنا لتهاجمنا في العراء لو غادرنا المنزل؟
كان خاطرا مرعبا، حاول محمد شاهين تجاهله، وهو يجيب:
-ومن يعلم، لن نعرف إجابة سؤالك إلا حين نكون بالخارج.
ثم انتبه إلى الدكتور مصطفى فقال بقلق:
-هل أنت بخير يا دكتور مصطفى؟
كان الرجل العجوز منكمشا حول نفسه وقد جذب البطانية بقوة حول جسده وراح يرتجف، لم يدر محمد شاهين هل كان هذا بسبب الرعب الذي مر به أم أنه البرد، اقترب منه وربت على ظهره الضامر، فنظر إليه الدكتور مصطفى في نظرة حائرة قبل أن يقول:
-أشعر بالبرد.
هب فؤاد من جلسته وقال وهو ينظر حوله:
-من الخطأ أن نتركك عاريا هكذا بلا ملابس كل هذا الوقت رغم البرد، لكن أين تحتفظ بملابسك يا سيدي؟
أشار الرجل بإصبع مرتجف نحو باب الحجرة المغلق دون أن يتكلم، فحول فؤاد نظره للغرفة التي حملت لهم الموت قبل دقائق في توتر، وهو ينفث دخان سيجارته، وقال:
-ألا تحتفظ ببعض الملابس في مكان آخر؟
هز الرجل رأسه بالنفي وما زال يرتجف وأسنانه تصطك ببعضها في قوة، فقال فؤاد مفكرا وهو يحدث نفسه:
-من الخطر محاولة دخول غرفة النوم ثانية، ربما كانت الطيور بالداخل وربما كان صمتها خدعة، لكن ماذا لو كانت هناك بعض الملابس المتسخة في المغسلة مثلا، سيكون العثور عليها شيئا أكثر أمنا.
قالها وغادر الردهة بحثا عن مكان المغسلة، اختفى للحظات ثم تصاعد صوت أقدامه وهو يعود، رمقهما في إحباط، وقال:
-لا شيء.

نهض محمد شاهين وقال:
-لا بأس، سأدخل الغرفة أنا، لأحضر ملابسه، لكن اعتن به حتى أعود.
تقلصت خلجات فؤاد في ضيق، وخجل، وقد رفض كبرياؤه أن يجازف رجل مدني أكبر منه سنا، بينما يمكث هو بجوار رجل عجوز ليرعاه كما تفعل الممرضات، لذا قال في حزم.
-كلا يا دكتور محمد، هذا دوري أنا، أنا رجل الشرطة هنا، وواجبي حمايتكم حتى لو كلفني الأمر حياتي نفسها.
قالها وألقى بعقب السيجارة على الأرض العارية، ودهسها بقدمه، ثم استل سلاحه وبحذر اقترب من باب الغرفة، أدار مقبضها ببط ثم دفعها في حذر، قبل أن يدخل برأسه أولا، كانت الحجرة باردة للغاية وقد تسلل الهواء البارد بالخارج إليها عبر النافذة المكسورة، لكن لا وجود لطيور النورس بها، فقط أربعة منها كانت ملقاة على الأرض وقد نفقت، زفر في ارتياح ودخل الغرفة بعد أغلق الباب خلفه، لمح جسد بسطويسي المتحجر والممتزج بالجدار، كانت هناك بعض الحفر الصغيرة على وجهه وإحدى عينيه، رمقه في أسف حقيقي، وردد:
-سامحني يا رجل، أنا من جئت بك إلى هنا لتهلك.
ثم حاول انتزاع نفسه من شجونه، واتجه إلى الدولاب الخشبي، فتح بابه الأول فوجد به بعض الملابس الداخلية المرتبة للزوجين، التقط الخاصة بالدكتور مصطفى ثم فتح الباب الثاني، كانت ملابس خاصة بزوجة الرجل، أغلق الباب واتجه للثالث، كانت تخص الرجل بالفعل، انتقى قميصا بأكمام وبنطالا من الصوف وبلوفر ثقيل، وكلسونا بنيا، ثم أغلق الباب واستدار.
وقع بصره أولا على جسد بسطويسي، كان شاربه الضخم يتحرك صعودا ونزولا على وجهه المتحجر بينما عادت الحياة لعينه الوحيدة وهي ترمقه في نظرة متوعدة، وقد راح الدم ينهمر من الحفر التي أحدثتها الطيور، تقلصت أحشاء فؤاد في توتر، وهو يخشى أن يفاجئه جثمان الرجل بالخروج من الجدار ومهاجمته، كان شيئا مرعبا، ثم انتبه

إلى حركة أخرى بالحجرة من حوله، كانت الطيور النافقة والتي كانت أجسادها هامدة منذ لحظات، تحرك أجنحتها وكأنما دبت فيها الحياة، ولأنه سئم تلك الأمور، فقد توقع الخطوة القادمة، سوف تهاجمه الطيور، لم يكن هناك وقت لاختبار الشجاعة أو الانتظار، لذا اندفع كالبرق نحو الباب، وداس بقدمه أحد الطيور فهشم عظامه، وفتح الباب ليندفع خارجه، ثم يغلق الباب خلفه بإحكام وهو يلهث.
نظر إليه محمد شاهين في قلق، وكأنما يسأله هل حدث شيء؟ لكن فؤاد ألقى بملابس الدكتور مصطفى على حجره وقال:
-ساعده من فضلك على ارتداء ملابسه.
قالها وأولاهما ظهره وهو يشعل سيجارة جديدة ويرشفها في عصبية وقلق. انتهى محمد شاهين من إلباس الرجل ملابسه، وساعده على النهوض وهو يسأله:
-هل لازلت تشعر بالبرد يا صديقي؟
تقلصت خلجات الدكتور مصطفى وهو يجيب:
-إنني بخير، أشكرك.
تحرك الثلاثة خارج الردهة واتجهوا إلى غرفة المعيشة، فجلس كل من محمد شاهين والدكتور مصطفى على مقعدين بينما وقف فؤاد وهو يدخن محدقا للخارج عبر النافذة الزجاجية الضخمة المطلة على البحر. كانت الأمطار تنهمر في غزارة كبيرة، بينما راح الموج الثائر يضرب أحجار الشاطئ بلا رحمة. كان الأفق كله مكسوا بالغيوم السوداء، ورغم أن الوقت كان مبكرا، إلا أن الجو بدا مظلما أقرب للمساء منه للصباح.
كان الدكتور مصطفى أول من تكلم:
-لقد أخطأتما بإنقاذي. لن أسامح نفسي لو حدث شيء لأبنائي.
تفجرت عيونه بالدموع، فقال الدكتور محمد شاهين.
-هون عليك يا صديقي، كل شيء سيكون بخير بإذن الله.
-أنت لا تعلم شيئا يا دكتور محمد، لقد كانت تلك اللعينة هنا، وقد أخبرتني أن موتي ثمن لحياة أبنائي، وها أنتم أنقذتموني، وأخشى أن تنفذ

تهديدها بإيذاء أبنائي.

أجابه فؤاد هذه المرة قائلا:

لا تقلق يا دكتور، لن تفعل شيئا من هذا، إنها تريدكم أنتم وليس أحد آخر، وأنا متأكد أنها لن تنفذ تهديدها.

رمقه الدكتور مصطفى في شك فحفر فؤاد في وجهه ملامح الثقة، وإن كان في داخله يشك في كلماته، فتلك اللعينة قوية للغاية ولا تفتقد للوحشية والقسوة، وربما كانت تذبح أبناء الرجل وأحفاده في هذه اللحظة نفسها، من يدري، لكن هذا لا يعني أبدا الرضوخ لتهديدها، ولو تكرر الأمر ألف مرة فلن يتردد لحظة في إنقاذ الرجل العجوز مهما كانت العواقب.

وقال الدكتور محمد شاهين:

هل تعلم أنك أول واحد يتم إنقاذه ممن هاجمتهم رومية؟

رمقه الدكتور مصطفى بعيون شبه مطفأة، وهو يقول:

شرف لم أتمناه يا دكتور، فما الذي قد أخسره بعد كل هذا العمر لو مت في أي لحظة.

ثم نظر الدكتور مصطفى حوله وكأنما يبحث عن شيء ما. قبل أن يغمغم:

هل لي في كوب من الماء؟

اتجه فؤاد مباشرة نحو المطبخ الذي عرف مكانه قبل دقائق وهو يجيب:

سأحضره أنا.

اختفى في المطبخ لبضع دقائق ثم عاد وفي يده صينية عليها ثلاثة أكواب من الماء وثلاثة فناجين من القهوة، قدمها لهما قائلا:

وجدت ماكينة صنع القهوة فظننت أننا جميعا بحاجة إليها.

تناول الدكتور محمد فنجانا من الصينية، وارتشف رشفة باستمتاع وهو يقول:

أحسنت.

ثم التفت نحو الدكتور مصطفى وقال:
-هل تحيا بمفردك يا دكتور؟
-كنت أحيا برفقة زوجتي حتى يوم واحد قبل الآن.
-وأين هي؟
-لم تحتمل ما يحدث في المنزل فذهبت للحياة مع أخيها.
سأله فؤاد هذه المرة:
-أعتقد أن لديك ما تقصه علينا يا دكتور مصطفى.
قص عليهما الدكتور مصطفى كل ما حدث، حكى لهما الأحداث المخيفة التي تمت في بيته، بدقة أوحت إليهما، أن الرجل ما زال يمتلك عقلا يقظا نشطا رغم عمره المديد. وقال الدكتور محمد شاهين:
-حمدا لله على سلامتك يا دكتور، لقد واجهت وقتا عصيبا بالفعل.
-وماذا عن الباقين؟
أدرك محمد شاهين ما يقصده، فأجاب في حزن:
-لقد مات الدكتور نعيم وقبله مات جمال عامل المشرحة. هل تذكره
-أجل، ذلك الفتى البدين الكسول.
-قتلتهما رومية كما تدل الشواهد.
-وكيف ماتا؟
-وهل يهم هذا. مهما فعلت بهما فقد انتهت معاناتهما للأبد، وربما كانوا في عالم أفضل الآن.
-صدقت، لكن ماذا عن الباقين، لا زال وعيدها يتردد في أذني رغم مرور كل تلك السنوات. لقد هددتنا بالموت بأقسى طريقة ممكنة.
-وقد فعلت بمن ظفرت به.
-ليرحمهم الله، بل ليرحمنا جميعا.
جاء دور فؤاد الذي يتابع حديثهما وفي يده آخر سيجارة مشتعلة، كانت الأخيرة في علبة سجائره، فقال وهو يميل نحو الدكتور مصطفى:
-بمناسبة الحديث عن الآخرين الذين اشتركوا في تلك التجربة الرهيبة قبل أعوام عند مواجهتها، نتمنى لو ظل عقلك يذكر من يكونون.

بالطبع أذكر الجميع، كان هناك الدكتور نعيم وأنا والدكتور محمد شاهين، وعاملين من عمال المشرحة، جمال ومنصور الذي مات كما أذكر في حادث قبل أعوام.

-الدكتور محمد يتذكر أنه كان معكم ضابط شرطة ووكيل نيابة، لكن من سوء الحظ أنه لا يذكر من يكونان، كما أنني لم أنجح في الوصول إلى هويتهما. نتمنى لو كنت تذكرهما فربما كانا في خطر هما الأخران.

ضيق الدكتور مصطفى من حاجبيه متذكرا، ثم التقط كوب مائه وشرب منه القليل قبل أن يقول:

-كان هناك رائد شرطة يدعى محمد. نعم كان اسمه محمد.

أشعل الجواب في رأس الدكتور محمد منطقة مظلمة في ذاكرته فقال على الفور:

-هذا صحيح، يا إلهي، لقد تذكرت، اسمه هو محمد وهدان. ووكيل النيابة كان يدعى وحيد بركات. يا للسماء، كيف نسيت اسميهما بتلك الطريقة.

رمقهما فؤاد في توتر ودهشة وارتعشت السيجارة في يده وهو يقول:

-هل أنتما متأكدان من اسميهما.

-هل تعرفهما؟

-لا أحد في جهازي الشرطة والقضاء يجهلهما، اللواء محمد وهدان كان مساعد وزير الداخلية لسنوات طويلة، والمستشار وحيد بركات كان المحامي العام الأول. يا إلهي، الأمر أخطر مما تعتقدان، لو حدث لأي من الرجلين سوء فستهتز مصر كلها.

قالها ثم التقط هاتفه وبحث بسرعة عن رقم فيه ثم اتصل. رد عليه الطرف الآخر بعد لحظات فقال على الفور:

-مرحبا يا علي، أريد منك خدمة عاجلة لها الأهمية القصوى .. كلا .. أنا لست في القاهرة .. أريد وسيلة اتصال باللواء محمد وهدان والمستشار وحيد بركات .. نعم إنهما من أقصد .. لا وقت للشرح .. أريد الرقم في الحال .. حسنا سأنتظرك .. أشكرك.

قالها وأنهى الاتصال، ثم اتصل برقم ثان، كان أحد زملاءه العاملين في مديرية أمن الإسكندرية، ذلك الضابط الذي أرسل له بسطويسي، أخبره في اقتضاب عما حدث وطلب منه إرسال بعض رجاله. أنهى اتصاله الثاني الثقيل على قلبه وهو يفكر في تلك اللحظات السيئة اللعينة التي بانتظاره وهو لا يدري كيف يخبر زملاءه من رجال الشرطة بكيفية موت بسطويسي وكيف تحول جسده إلى حجر، ثم تحرك نحو النافذة حيث ظهر البرق فارتجف للحظة قبل أن يفتش في جيبه عن علبة سجائره، ليتذكر أنه قد دخن آخر سيجارة قبل دقائق، كان من الجلي أن الدكتور مصطفى لا يدخن وأنه من المستبعد أن يعثر على بعض لفافات التبغ في هذا البيت، الأكثر سوءا هو أن أغلب أكشاك ومحلات بيع السجائر إن لم يكن جميعها سيكون مغلقا في هذا الطقس المريع، فمن هذا الأحمق الذي يجرؤ على الهبوط من منزله مع كل هذا البلل والبرد. زفر في ضيق وهو يدرك أن بانتظاره وقت عصيب دون سجائره، فألصق وجهه بالزجاج البارد وهو يراقب خيوط الماء المنزلقة على الناحية الأخرى من الزجاج بلا توقف وغمغم في صوت غير مسموع:

-اللعنة.

بينما التفت الدكتور محمد شاهين نحو الدكتور مصطفى الذي ساعدته القهوة والماء على استعادة بعض هدوئه وصفاء عقله فعاد اللون الأحمر لخديه وشفتيه الشاحبتين قليلا، وقال الأول:

-أعتقد أنه من الخطأ أن تبقى بمفردك يا صديقي القديم.

-لن أجازف بالذهاب إلى أخي زوجتي أو حتى أحد أبناء إخوتي، ليس وتلك الملعونة تتعقبني، لقد كادت أن تفتك بزوجتي وهي معي، فلن أذهب إلى أي مكان وأنا أحمل لعنتي في عنقي.

-ما رأيك لو تأتي معي.

سعل الدكتور مصطفى في قوة قبل أن يقول:

-وهل تقدر على حمايتي أيها العجوز أو حماية نفسك، أم هل نسيت أنها تتعقبك أنت الآخر.

لم أنس يا دكتور، لكن أن نواجه الموت سويا خير من أن نواجهه بمفردنا، أليس كذلك؟
دق هاتف فؤاد في تلك اللحظة، ففتحه في لهفة وهو يجيب:
-معك يا علي .. هذا رائع .. وأين يعيش .. أجل .. أعرف المكان .. هل تعلم إن كان يعيش بمفرده أم معه أحد ما .. أجل .. أجل .. وماذا عن رقم المستشار وحيد بركات .. ابذل قصارى جهدك يا علي أرجوك .. الأمر خطير .. حسنا .. أعطني رقم اللواء محمد وهدان..
قالها وراح يضغط على شاشة هاتفه الرقم الذي يمليه عليه رجل الشرطة الآخر وحين انتهى قال:
-أشكرك يا علي لكن لا تنس .. أريد رقم المستشار وحيد الآن.
اتصل بعدها برقم هاتف منزل اللواء محمد وهدان .. دق الهاتف مرات عدة قبل أن يأتيه صوت ما، فقال وهو يلتقط أنفاسه في إثارة:
-هل هذا منزل اللواء محمد وهدان؟
-أجل يا سيدي.
-معك الرائد فؤاد، هل يمكنني التحدث إلى سيادة اللواء؟
-لحظة من فضلك.
ثم سمع فؤاد صوت الهاتف الأرضي وهو يوضع على المنضدة في الجانب الآخر، ظل الصمت موجودا لنحو دقيقتين قبل أن يأتيه صوت غليظ قوي لرجل اعتاد طوال عمره على إلقاء الأوامر:
-من أنت؟
-معك سيادتك يا فندم الرائد فؤاد من مديرية أمن القاهرة؟
-وماذا تريد أيها الرائد؟
-إنه أمر يخص سيادتك يا فندم، قضية أعمل عليها، وأخشى أن أقول أن هناك خطر قد يهدد حياتك يا سيدي.
صمت اللواء محمد وهدان للحظة وكأنه يستوعب ما يقول قبل أن يجيب في بطء بصوت قاس للغاية:
-هل أنت بكامل عقلك أيها الرائد، وهل تعي جيدا من تتحدث إليه؟

-أعتذر لو أسأت التعبير يا فندم لكن ..
قاطعه اللواء محمد وهدان في غلظة:
-أولا لا شأن لي بأيٍّ من قضايا الداخلية منذ سنوات عدة، ثانيا لم يخلق بعد من يهدد اللواء محمد وهدان .. اسأل رؤسائك عمن أكون ليخبروك لو لم تكن تعلم، وأما ذلك التهديد المزعوم فإنه لن يمس شعرة واحدة في رأسي، أنا بانتظاره مع كلابي ومسدسي حتى لو كان الشيطان نفسه.
حاول فؤاد تمالك أعصابه لأقصى حد ممكن ليحتمل كل تلك العجرفة التي يعامله بها رجل الشرطة السابق، وهو يقول:
-لا أحد في الداخلية كلها يجهل من تكون يا سيدي، لكن أرجو أن تمنحني دقائق قليلة لأشرح لك.
-أمامك فقط دقيقتين لتخبرني بما لديك، والآن تحدث.
-القضية التي أعمل عليها قضية قديمة تمت أحداثها في أوائل سبعينات القرن الماضي.
ثم القط نفسا عميقا وهو يكمل:
-إنها عن جرائم القتل التي حدثت في مشرحة كلية الطب بجامعة عين شمس. تلك القضية التي كان المتهم فيها ذلك الكائن الشيطاني المدعو رومية.
وعبر الهاتف سمع شهقة كبيرة صدرت من فم اللواء محمد وهدان، ثم تلاها صمت تام لم يبدده إلا صوت أنفاس فؤاد الخافتة، طال الصمت فقال فؤاد في حذر:
-سيدي، هل مازلت هناك؟
وعبر الهاتف بدا صوت اللواء وهدان متوترا وقد فارقه الكثير من غلظته وهو يقول:
-أخبرني بالتفاصيل أيها الرائد.
في نفس اللحظة دق هاتف محمد شاهين المحمول، نظر إلى شاشته فلم يجد أي رقم أو اسم يشير إلى هوية المتصل، في تلك اللحظة عرف

من يكون، فقرب الهاتف من أذنه وهو يجيب:
-مرحبا.
-إذن فقد أنقذت صديقك كما أرى، أهنئك، لكن من المؤسف أن هذا لن يدوم طويلا، لقد منحته بضع ساعات أو أيام أخرى من الخوف، لكني سأهلكه في النهاية.
-ماذا تريدين الآن؟
-اعتقدت أنك قد اشتقت إلي بعد ليلة أمس الرائعة، ظننت أن سماعك لصوتي سيسعدك، يا لك قاس جاحد.
كانت تقولها بأقصى درجة من الدلال ووجد محمد شاهين قلبه يدق بشدة وعقله حائر في وصف مشاعره المرتبكة، إنه لا ينكر أنه كان يتوق رغم كل ما حدث لسماع صوتها، يبدو أنه في طريقه لفقدان عقله. تنهد بعمق وهو يحاول جمع شتات أفكاره وقال:
-ماذا تريدين؟
أطلقت ضحكة صاخبة ساخرة قبل أن تجيب:
-وماذا أريد منك، ما أريده أحصل عليه، أنت نفسك حصلت عليك حينما شئت، أليس كذلك؟
-من فضلك يا سيدتي توقفي ولو للحظة عن هذا العبث وأخبريني، ماذا تريدين منا.
-وماذا لو كنت أتصل لأقدم لك خدمة جديدة؟ ألا يستحق هذا أن تشكرني.
-حسنا، تحدثي.
-لنقل إنها لعبة، ماذا لو خيرتك بين حياة أحدهم وحياة وداد، مديرة منزلك التي تعشقك والتي خدمتك بإخلاص لا حد له لأكثر من أربعين عاما.
-لا شأن لك بوداد، إنها خارج نطاق عبثك أو انتقامك.
أطلقت رومية ضحكة جديدة تذيب القلوب قبل أن تواصل حديثها:
-قواعد اللعبة في يدي أيها البشري، وليس أمامك غير أن تتقيد بها.

والآن لأطرح عليك اللعبة، أمامك ثلاث ساعات لتصل إلى بيتك لتنقذ وداد أو تختار أن تذهب إلى منزل صديقك القديم المدعو محمد وهدان والذي يتصل به رجل الشرطة الآن ليحذره مني. اذهب إلى مكان منهما في الوقت المحدد ليعيش من تختاره، بينما يموت الآخر شر ميتة.
عاد غضب محمد شاهين ليطرد مشاعره الغريبة نحو رومية وقال من بين أسنانه:
- وما ذنب كل هؤلاء الأبرياء؟
-كف عن طرح أسئلة لا معنى لها أيها الرجل الوسيم، ولا تتردد في اتخاذ قرارك، الطرق زلقة خطرة، والوقت لن يكفي إلا للوصول لمكان واحد، وأنا كلي شغف لمعرفة اختيارك.
قالتها وأطلقت ضحكة أخيرة قبل أن تقطع الاتصال، شحب وجه محمد شاهين في نفس اللحظة التي انتهى فيها فؤاد من اتصاله مع محمد وهدان، فرمقه في توجس وهو يسأل:
-من كان معك على الهاتف.
نهض محمد شاهين وقال بصوت مبحوح:
-إنها رومية.
وبينما نظر إليه الاثنان في ذهول، أخبرهما بتهديدها ولعبتها الجديدة المميتة، فقال فؤاد:
-الأمر بسيط اذهب أنت إلى بيتك لتنقذ وداد وسأذهب أنا إلى فيلا اللواء محمد وهدان، من يدري ربما أفلحت في إنقاذه.
كان حلا معقولا لم يفكر فيه، لكن بقيت مشكلة واحدة فقال:
-وكيف نذهب كلينا وليس لدينا إلا تلك السيارة العتيقة التي جاءت بنا إلى هنا.
أجابه الدكتور مصطفى هذه المرة:
-هناك سيارتي، سنعود بها سويا إلى القاهرة،
كان حلا رائعا، فقال فؤاد:
-إذن دعونا نتحرك على الفور كي لا نضيع المزيد من الوقت.

لكن هاتفه أصدر رنينا في تلك اللحظة، كانت رسالة جديدة، تردد لحظة في فتحها قبل أن يغالب تردده ويفتحها، في الحال استحال لون وجهه إلى بياض يحاكي شحوب الموتى، وهو يردد:

- تلك اللعينة.

- ماذا في تلك الرسالة يا فؤاد؟

مد فؤاد ذراعه بالهاتف ليقرئا الرسالة:

"اللعبة بسيطة .. ريم أم محمد وهدان .. والآن ماذا تختار؟".

(31)

للمرة الأولى يشعر جسده الرياضي بالبرودة، فسرت في جسده قشعريرة كالثلج، لاحظ أن قلبه يدق في صدره بعنف، وحين نظر إلى يديه القويتين رغم سنه المتقدم وجدهما ترتعشان، جرب أن يصرخ في عبد الحفيظ خادمه مناديا، كي يأتيه بمعطف ثقيل، فخرجت الكلمة الأولى من فمه مرتجفة، فأغلق فمه على الفور ولم يكمل نداءه، كان عليه أن يعترف بالحقيقة.

إنه خائف.

وبأرجل أصابها وهن غريب تحرك اللواء محمد وهدان نحو الخزانة الصغيرة الموجودة في حجرة مكتبه، فتحها وأخرج منها كأسا وزجاجة شراب قوية، ثم جلس أمام طاولة خشبية صغيرة، وبالكاد نجح في فتح سدادة الزجاجة. أخطأت يده في البداية صب الشراب في الكاس فسقط بعضه على الطاولة، ثم رفع الكأس بتوتر وصبه في فمه مرة واحدة. هبط السائل اللاذع نحو حلقه فأصابه بقشعريرة أخرى، لكن وبعد لحظات سرى الدفء في جسده، صب كأس آخر، وكالأول شربه مرة واحدة فشعر أنه استعاد كثيرا من رباط جأشه. لم يكن معتادا على الشراب في الصباح الباكر أو حتى في النهار، لكن وقت عصيب كهذا بحاجة لما يجعله يهدأ أو حتى ينسى.

إذن فقد عادت تلك الشيطانة ثانية.

كان عليه أن يثق في حدسه وحاسته الأمنية منذ البداية.
كان عليه أن يدرك عودتها منذ بدأت الأحداث الغريبة في الحدوث قبل أيام.

في الوقت الحالي هو يعيش في فيلا كبيرة بالتجمع الخامس، أشبه بقصر صغير. كان يعيش بمفرده بعد أن ماتت زوجته قبل أربعة أعوام، لم يكن له أبناء، لأنه ببساطة لم ينجب. كانت فترة عصيبة تلك التي فقد فيها زوجته، فقد تلتها الثورة وأحداثها التي بدلت كثيرا من قواعد اللعبة، فذهبت بكل رجال الحرس القديم من رجال الداخلية، وجاءت بآخرين متعطشين للنفوذ والثروة والحكم.

كان أحد المحظوظين الذين أحيلوا على المعاش قبل عامين من الثورة، بعد أن ظل مساعدا لوزير الداخلية لنحو الخمسة عشر عاما، حتى أشرف على السبعين من عمره. حينها ورغم أنه كان في أوج نفوذه وصحته التي حرص على الحفاظ عليها بالرياضة والتدريب المستمر، إلا أنه كان ثعلبا كما اشتهر في أروقة الوزارة، كانت رياح التغير قادمة من بعيد، وكانت تنذر باقتلاع كل من يقف في طريقها وكسره، فاختار أن يكتفي بالتاريخ الكبير الذي صنعه في أروقتها كرجل أمن من الفئة الأولى. قدم التماسا إلى الوزير يسأله فيها عدم مد خدمته لعام آخر، ورغم المحاولات الحثيثة من الوزير وزملاءه وتلاميذه لحثه على العدول عن قراره إلا أنه أصر. بعد عامين أدرك كم كان ذكيا، وكم كان محظوظا، أدرك هذا حين رأى وزيره وزملاءه يساقون لمحاكمات يدرك أنها هزلية، من حسن حظه أن أحدا لم يذكر اسمه في التحقيقات، أو كان يذكره.

لكن مرض زوجته الذي اكتشفه بعد شهر واحد من خروجه من الشرطة أحال حياته لشقاء لا ينتهي، أصابها سرطان الثدي، ودخل معها تلك الدوامة اللعينة من الفحوصات والعمليات والعلاجات اللعينة، رأى بعينه كم تعاني، وراقب كيف سقط شعرها كله، ظلت تجاهد للحفاظ على بسمتها أمامه كي لا تفجعه بآلامها، كان جسدها يتحلل وفي وجهها

ابتسامة رضى غريبة، لا تذوب. أكثر من مرة دخل عليها الحجرة أو الحمام لتستقبله بابتسامة زائفة بينما كانت عيونها الدامعة تفضحها وهي تشير إلى نحيب طويل.
في النهاية أخبره الأطباء أنه لا جدوى من المحاولة. فالمرض اللعين قد أرسل ثانوياته إلى كل مكان ممكن، وأن خير ما يفعلونه هو شحن جسدها بالمسكنات حتى تلقى النهاية في سلام.
كانت أياما صعبة لعينة، وللمرة الأولى تذوق الشعور بالعجز. كانت تموت بجواره وهو غير قادر على التخفيف عنها. كانت امرأة طيبة، أدركت أنها لن تمنحه الأطفال فمنحته عمرها وأفاضت عليه بكل مشاعر الأمومة الجياشة في أعماقها. كانت له الزوجة الوفية والأم المحبة المتسامحة، كان يعلم جيدا أنها كثيرا ما كانت تعلم بأمر نزاوته ومغامراته النسائية التي كان يتورط فيها من حين لآخر، لكنها لم تلمح له ولو للحظة أنها تعلم، حتى حين تزوج بأخرى في السر ذات مرة وراح يتعلل بالعمل ليبيت أغلب الوقت خارج المنزل لم تحتج أو تعترض، وبعد أن انتهت العلاقة وقرر مصارحتها بالأمر، وضعت يدها حينها على فمه لتمنعه من الحديث وهي تقول بابتسامة مشرقة:
-ومن قال أنني لم أعلم ومنذ اليوم الأول؟ لكنني كنت مطمئنة أنك لن تذهب بعيدا وستعود إلى بيتك في النهاية، وها قد حدث ما انتظرته، فلماذا الكلام في أمر قد انتهى.
امرأة عظيمة بالفعل.
وحين ماتت، تبدل كل شيء فيه. وللمرة الأولى في حياته يقرب الشراب. واليوم وبعد أربعة أعوام صار الشراب أحد عاداته التي يحرص عليها. في الواقع لم يكن لينجح في النوم إلا بعد أن يسرف فيه حتى يفقد إحساسه بالعالم من حوله فيهوي على الفراش فاقدا للوعي أو نائما.
خادمه في الفيلّا هو أحد رجال قريته التي ينتمي إليها ويدعى عبد الحفيظ، حيث تشارك في أعمال البيت مع زوجته. بينما يقوم عامل ثان بالاعتناء بالحديقة وثالث بالاعتناء بحظيرة الكلاب الكبيرة والتي

تحوي عشرة كلاب بوليسية ضخمة، في غاية القوة والشراسة والذكاء، ولم لا تكون كذلك وهو قد انتقاها بنفسه من أفضل سلالات "الكلاب البوليسية" في الوزارة. كانت أعظم هواياته تربية الكلاب وإطعامها وتدريبها، ومع الوقت صار لا يشعر بالأمن إلا برفقتها. إنها الكائنات الوحيدة التي لن تخونه أو تبيعه، أو تتخلى عنه وقت الحاجة، إنهم الأصدقاء الوحيدون المستعدون للموت من أجله. كان لا ينام إلا وقد أطلق الكلاب العشرة في الحديقة لتحرسها من أي متطفل أو غريب طوال الليل، ورغم الحراسة الأمنية القوية التي أمدته بها الوزارة بحكم وظيفته السابقة إلا أنه كان يثق أكثر في كلابه.

كان قليل الأحلام في نومه، والمرات القليلة التي يرى فيها أحلاما تتحول إلى كوابيس توقظه من نومه مرعوبا، في البداية كان يرى زوجته الراحلة، كانت ترمقه في البداية بعتاب وألم، وحين تتحدث كانت تخبره أنه قد آلمها كثيرا دون أن يشعر، أنه لم يمنحها السعادة يوما، وأنه حتى حين مرضت لم يستطع التخفيف عن ألمها، العجيب أن لسانه يصير معقودا فلا يقدر على الدفاع عن نفسه أمامها أو الرد عليها، ثم تبدأ الصراخ وجسدها يتآكل ويتحلل أمام عينيه، لتقترب منه، يحاول الهرب فيجد أقدامه ملتصقة بالأرض وكأنما هي مثقلة بأطنان من الرمل، ثم تلمسه زوجته في صدره وهي تقول: "دورك قادم، ستتألم مثلما تألمت وستموت مثلما مت"،

ليجد أن جسده يبدأ التحلل من نفس البقعة التي لمستها أناملها الباردة المتآكلة، فيجاهد للصراخ حتى ينجح، وحين يفيق صارخا كان غريبا أن يجد ألما في نفس البقعة التي لمسته فيها زوجته في الحلم، ويجد كدمة زرقاء مائلة للسواد في صدره، كان يصاب بالرعب وهو يخشى أن تكون زوجته الراحلة قد نقلت إليه مرضها الخبيث كي يلاقي نفس نهايتها، تكرر الأمر ثلاث ليال، ليقرر أن يضع حدا لمخاوفه ففعل أمرين، ذهب أولا إلى مستشفى الشرطة حيث أجرى فحوصات كاملة لكل جسده ليوقن في النهاية أنه لا يعاني من أي شيء باستثناء مرض ضغط الدم

الذي يعالج منه بالفعل منذ سنين طويلة، بعدها أرسل في طلب "سعيدة الكودية" المرأة الوحيدة التي أثبتت للجميع أنها لا تمتهن الدجل، وأنها بالفعل خبيرة في أعمال السحر والشعوذة.
كان تعرفه بها غريبا، كانت هي من أرسل إليه قبل عشرين عاما وقد تم القبض عليها في قضية اشتغال بأعمال السحر والدجل. لا يدري لماذا قرر لقاءها رغم أن هذا لا يشبه طباعه، جاءوا بها إلى مكتبه في قيودها، امرأة عجوز ضامرة ترتدي عباءة سوداء من ذلك النوع الذي يرتديه الغجر، وتزين أكفها أساور ملونة رخيصة وعلى جبهتها وشم أخضر عبارة عن خط طولي على كلا جانبيه ثلاث نقاط فوق بعضها. وضع قدما فوق قدم وقال في شيء من الاستخفاف حينها:
-والآن بعد أن قابلتني. أتمنى أن يكون الأمر مهما ويستحق، وإلا..".
لم يكمل تهديده فقالت له بصوت حاد:
-هل يمكنك أن تطلب من رجلك هذا الانصراف.
كان طلبا غريبا، لكنه لم يشعر بأنها قد تحمل أي تهديد له فأمر أمين الشرطة الذي أتى بها بالانتظار خارج الحجرة، بعدها قالت له:
-رجل الشرطة الذي قبض علي يحمل على كتفه نجمتين، ستنطفئ هاتان النجمتان الليلة، أما عن قتلى الزاوية الحمراء فالجار قد فعل، ولا تنس أن تحترس من مكابح سيارتك، إنها لن تعمل اليوم، والآن دعني أعود لسجني وسأنتظر أن تطلبني ثانية.
قالتها ونهضت دون إذن واتجهت للباب وفتحته فاستقبلها أمين الشرطة الذي قادها لحبسها بينما كان اللواء محمد وهدان في قمة الدهشة والارتباك. وبعد يومين كان قد أرسل إليها ليطلق سراحها ويصير من أكثر المؤمنين بقدرتها وأكثر حماتها.
فالملازم الشاب الذي قبض عليها قبل أيام قتل في مطاردة مع بعض اللصوص في تلك الليلة، وأسرة الزاوية الحمراء التي وجدوها بالكامل مذبوحين، كانت قضية محيرة لنحو أكثر من شهر حينها دون أن يصل رجال الشرطة إلى خيط يقودهم للفاعل، لكن وكما قالت العجوز كان

الجار هو القاتل وحين استجوبه مرة أخرى مع بعض الضغط انهار واعترف في النهاية بارتكاب الجريمة، أما مكابح سيارته فرغم سخريته من كلام العجوز وقتها إلا أن دافعا خفيا دفعه لفحص المكابح، فطلب من أحد رجال صيانة السيارات فحص السيارة والمفاجأة أن المكابح كانت تالفة تماما.

وبعد أن راودته الأحلام بزوجته جاءته "سعيدة الكودية"، أخبرها بالمشكلة فقررت أن تتصل بروح زوجته الميتة لتعرف السبب، وبعد جلسة في الظلام راحت تصدر فيها أصواتا غريبة مرعبة رسمت على صدره بقلم غريب علامات أقرب إلى شخبطات طفل يتعلم الكتابة، لكن الغريب أن تلك الكتابات الغامضة لم تزيلها الماء ولا حتى بعد آلاف المرات من الاستحمام بعد تلك الواقعة، كما لم تزره زوجته في الحلم ثانية.

لكن عادت الكوابيس مرة أخرى لتطارده في نومه، هذه المرة كانت الكوابيس أكثر بشاعة وأكثر إرعابا، فهذه المرة كانت الكوابيس تتعلق بتلك القضية القديمة للغاية، قضية الجثة الخامسة. عادت تلك الشيطانة لتزوره في الحلم، وكم كانت زياراتها مخيفة مفزعة،

في اليوم الأول رأى جسده معلقا من قدميه في الهواء ورأسه لأسفل، والدخان يتصاعد بكثافة في المكان، وحين دقق النظر حوله وجد عشرات الجثث معلقة من حوله، ومن بينها جثمان زوجته، أراد الصراخ فخانته حنجرته، ومن أسفل منه استنشق أنفه تلك الرائحة العطرية المميزة التي لم ينسها رغم كل هذا الزمن، رائحة رومية، ثم ظهرت أسفل منه وهي تقول:

-ما رأيك في تلك المفاجأة الجميلة يا صديقي القديم،

ومن خلفها ظهرت الكلاب الضخمة، عشرة كلاب يعرفها جيدا. عشرة كلاب يربيها ويطعمها، كانت الكلاب تزمجر في شراسة وتحفز، وحين أشارت رومية بإصبعها لها تحركت الكلاب على الفور نحو الجثث لتنهشها من وجوهها ورؤوسها في ضراوة، حتى جسد زوجته نهشه كلب

منها، راح يراقب ما يحدث في رعب يكاد يقتله، وحين انتهت الكلاب من تمزيق كل الجثث من حوله وصار هو الوحيد المعلق الباقي اتسعت ابتسامة رومية وهي تهمس له، "والآن جاء دورك".

واندفعت الكلاب نحوه، لكنه نجح في تلك المرة في الصراخ، وحين أفاق من حلمه وهب من الفراش لاهثا في رعب أدرك أنه ليس بمفرده في الحجرة، كانت هناك عيون كثيرة تلمع في الظلام من حوله، ورائحة عطرية مميزة عالقة في الهواء.

كتم أنفاسه وعقله يجاهد كي لا يسقط في الغيبوبة، وحين أضاء ضوء الأباجورة المجاور للفراش وجد كلابه العشرة تحيط بالفراش وترمقه في كراهية ووحشية وقد كشرت عن أنيابها الحادة وتساقط اللعاب الكثيف من شدقيها، في تلك المرة شعر بالفزع من كلابه للمرة الأولى في حياته، انكمش حول نفسه في رعب، وراح يلهث، لكن الكلاب لم تفعل شيئا، فقد استدارت فجأة وانطلقت نحو باب الحجرة المفتوح وغادرت المكان. كانت واحدة من أكثر اللحظات رعبا في حياته كلها، حينها راحت الأسئلة المحيرة تعصف بعقله.

أولا هل تلك المرأة اللعينة التي رآها في الحلم هي حقا ذلك الكائن الشيطاني، وهل عادت فعلا أم أن الأمر مجرد كابوس استعاد فيه ذكرى قديمة مخيفة؟ كان السؤال الثاني هو ما الذي حدث لكلابه ولماذا قد تهاجمه؟ لا زال يذكر نظراتها المهددة المرعبة، ولأنه يدرك طبيعية تلك الحيوانات فإنه متأكد أنها كانت تستعد للهجوم عليه في الحجرة. أما السؤال الأكثر غرابة فهو كيف دخلت الفيلّا وهو الذي يغلقها بنفسه كل يوم ويتأكد من أقفالها بنفسه، وحتى لو نسي إغلاق الأبواب الخارجية للفيلّا، فماذا عن باب حجرته الذي لا ينام إلا وقد أحكم إغلاقه بالمفتاح، فهل نسي إغلاقه هو الآخر. إنها افتراضات مستحيلة أكثر من أن تحدث في أرض الواقع.

قضى الصباح متعكر المزاج ولهذا فقد سب عبد الحفيظ، وهدد زوجته هي الأخرى بالطرد، واستشاط غضبا حين تأخر عامل الحديقة عن

موعده في الصباح رغم أن الأمر لم يتعد بضع دقائق قليلة، كل هذا وهو يخشى أن يتوجه للكلاب، وكأنما يخاف أن تهاجمه فتؤكد مخاوفه.
قرب الظهيرة لم يحتمل التفكير فانطلق نحو حظيرة الكلاب، الأمر الذي أدهشه أنه وضع في جيبه مسدسه الخاص، فكرة حمقاء بلا شك، كان يعلم هذا، فلو هاجمته الكلاب فلن يجدي مسدس صغير كهذا مع عددهم الكبير، قد يقتل واحدا أو اثنين. لكن عشرة كلاب؟ هذا مستحيل بالطبع، وسيمزقه باقي الكلاب إربا قبل أن يظفر بالمزيد. ولأنه غير واثق من كلابه فقد اصطحب معه رجال الشرطة الثلاثة المكلفين بحراسة الفيلّا. دخل حظيرة الكلاب وقلبه ينتفض إثارة، لكن الكلاب قابلته بالترحاب المعتاد، راحت تهز ذيولها في سعادة وتنبح في صوت خفيض وهي تتمسح بكفه وقدميه. وابتسم في رضا شديد هذه المرة، لقد عادت الأمور لنصابها المعهود ومن الخير أن ينسى أحداث الليلة الماضية.
في المساء ذهب إلى النوم كعادته وقد حرص على الإسراف في تناول الخمر هذه المرة، أراد أن يشرب حتى يسقط على فراشه فاقدا للوعي عسى ألا تطارده تلك الأحلام السخيفة، لكن الكوابيس ظلت بانتظاره. كانت حديقة الفيلّا غارقة في الضباب، لكنه كان هناك يرمق السور المرتفع في ترقب، ومن أعلى السور ظهر رأس قبل أن يظهر بجواره رأس ثان. كان يعرف صاحبي الرأسان، أولهما قاتل شرس أشرف على القبض عليه قبل عقدين من الزمان وحكم عليه بالسجن المؤبد. والثاني مسجل خطر مخدرات نجح في الإيقاع به في شحنة مخدرات فحصل على حكم بالمؤبد مماثل. الاثنان كانا من القلة التي جرؤت على تهديده وهو في أوج سطوته ونفوذه بالانتقام، وهاهما الاثنان يتسلقان سور فيللته وقد وصلا إليه.
نظر حوله في قلق وهو يحاول أن ينادي رجال الحراسة فأبت حنجرته أن تطاوعه، تحسس جيبه بحثا عن سلاحه فلم يجده، فكر في الهرب لكن أطنان الرمل التي تلتصق بقدمه في الحلم كالعادة جمدته في مكانه،

ولم يكن هناك غير أن يقف بمكانه منتظرا فعلهما. هبط المجرمان من فوق السور واتجها إليه على الفور، كانا مسلحين، أحدهما بمسدس صغير والثاني بمطواة "قرن غزال" صغيرة مميتة، نظر إليهما بعجز حين التفا حوله وقال الأول الذي يحمل مسدسا:

-لقد أقسمنا على الانتقام ولم تصدق، وها نحن الآن أمامك يا سيادة اللواء.

بينما قال الثاني وهو يطلق ضحكة مخيفة أظهرت أسنانه المسودة القذرة:

-والآن لتختار ميتة.

ثم أشار بيده بعلامة المسدس وهو يصوب فوهته نحو رأسه مردفا:

-هل تفضل المسدس؟

وعاد ليضم أصابعه ويفرد إبهامه وهو يرسم على رقبته علامة الذبح وهو يكمل:

-أم تميل أكثر للأساليب القديمة.

في تلك اللحظة كان غير متأكد من أنه يحلم، كان خائفا منهما، وفي نفس الوقت غاضب من الباقين، أين رجال الشرطة وأين خدمه؟ بل والأهم، أين ذهبت الكلاب؟

وفي تلك اللحظة سمع النباح الأول الذي أثلج صدره، وتبعه نباح الأخريات، وفي لحظات بدأت الكلاب في القيام بواجبها فهجمت على المجرمين اللذين راحا يصرخان في ألم ورعب، حين بدأت الكلاب في تمزيق جسديهما في شراسة، هذه المرة عاد إليه صوته فوجد نفسه يصرخ:

-اقتلوهما. لا ترحموهما ومزقوهما تمزيقا، لا تبقوا على ذرة واحدة منهما.

ومن خلفه تصاعد العطر المثير، ثم سمع الصوت الدافئ يهمس في أذنه:

-ألا ترغب مشاركة كلابك الانتقام. أقدم ولا تخجل أيها الصديق القديم، لولا الكلاب لقتلوك، هيا شارك الكلاب حفلتهم المثيرة.

كان جنونا ما تطلبه، ورغم هذا وجد نفسه يندفع نحو أقرب المجرمين وينحني نحوه ثم يقبض بأسنانه وفكيه على فخذه في قوة حتى أدماه، وتذوق طعم الدماء في حلقه.

و..

أفاق من نومه مرة واحدة.

لكن مهلا.

إنه ليس في فراشه، إنه راقد في الحديقة المبللة بالمطر حول جثمان أحدهم وحوله الكلاب تنبح في ثورة وهي تلتهم هذا الجثمان وجثمان آخر لا يبعد عنه أكثر من أمتار ثلاث. احتاج ذهنه للحظات أخرى كي يدرك أن ما يسيل من فكه ليس لعابا أو حتى ماء المطر، وأن ما يلوكه في فمه كان قطعة من اللحم البشري!

بصق ما في فمه في جزع هائل، وبقدمه العارية راح يخوض مترنحا في الأرض الموحلة وهو ينادي على رجال الأمن. وحين ظهروا كان قابعا على الأرض وهو يفرغ ما في أحشائه وجسده يرتجف. بالطبع جاء رجال الشرطة بلا تأخير. وكان المثير أن القتيلين معروفين، والأكثر إثارة أنه من المفترض أن يكونا في سجنهما الآن، بل وكان الأكثر غرابة أن أحدهما مسجون في سجن الواحات، والآخر في سجن العقرب. وقد تم التأكد من أنهما كانا في زنزانتيهما هذا المساء. إذن كيف وجدوهما في الفيلّا؟ ترك اللواء كل هذه الأسئلة الحائرة لرجال الشرطة، إن دورهم هو تقديم الإجابات، رغم أنه يعلم حق اليقين أنهما لن يحصلا عليها. لقد جاءت بهما تلك الشيطانة، وهو متأكد من هذا. وفور أن رحل رجال الشرطة فكر في الشخص الوحيد الذي قد يفيده في أمر كهذا.

"سعيدة الكودية".

أرسل خادمه بسيارته ليجلبها، ورغم عمرها المتقدم جاءته دون إبطاء، قص عليها الحكاية فنهضت بتثاقل وراحت تتجول في البيت وهي تتحسس بكفها المعروق الجدران وتتشمم الهواء من حولها وكأنها تستجوب المكان عن أسراره، ذهبت إلى حظيرة الكلاب وإلى حجرة نومه

لم قبعت أمام "منقد" مشتعل داخله الخشب والفحم وألسنة النار تتراقص فيه معلنة عن سعادتها بأسرارها التي لن تبوح بها أبدا، راحت العجوز تلقي بالبخور فوق النار وهي تطلق التعاويذ والعزائم، وبعد قليل تكاثف الدخان بشدة فوق النار ثم رسم البخار وجها نحيفا ومخيفا، له قرنان شبحيان وعينان تتوهجان باللهب. رمقت "الكودية" الرأس الدخاني وهي تواصل إلقاء البخور العطري في النار قبل أن ينطلق من قلب النار صفير حاد كاد يصيب اللواء محمد وهدان الجالس فوق كرسيه أمامها بالصمم، ثم ترددت من قلب النار كلمة واحدة.

"ارحلي!".

وتبدد الدخان على الفور وانطفأت معه النار وقد استحالت أخشابها ووقودها إلى رماد.

رمق اللواء محمد الرماد بغير فهم وقلبه يكاد يفارق صدره من هول ما رآه وسمعه، ثم نظر إلى المرأة المسنة وقد تهدلت تجاعيد وجهها في يأس، وهي ترمقه في صمت موجس، فابتلع ريقه الجاف بصعوبة قبل أن يقول بصوت مبحوح:

-ماذا حدث؟

ظلت تنظر إليه دون أن تجيب، مما زاد من رعبه فصاح هذه المرة في عصبية:

-ماذا حدث يا سعيدة؟ ما الذي أخبرتك به عفاريتك أو شياطينك تلك. تكلمي فأعصابي لا تحتمل كل هذا التوتر.

هزت رأسها وهي تجيب:

- لأول مرة لا أدري ما يحدث يا محمد بيه. لكن ما تواجهه خطر لا تجسر حتى الشياطين على مواجهته.

-كفي عن إثارة رعبي أيتها العجوز اللعينة، وأنا الذي ظننت أنك قادرة بشعوذتك اللعينة تلك على حمايتي.

-قد لا أقدر على حمايتك، لكني لن أدعك يا بيه، أنا هنا معك، وليتحد مصيرنا معك.

ثم غمغمت في سرها كي لا يسمعها:
-ربما حان الوقت لتنتهي تلك الأيام السخيفة التي يعيشها المرء، لقد طال العمر أكثر مما ينبغي.
ثم غادرت المنزل لتحضر بعض الأغراض الغريبة، في هذا الوقت أنه مكالمة فؤاد والتي حرص خلالها على أن يبدو غير مباليا بما يواجهه وغير خائف، في النهاية لا زال يحرص على صورته القديمة في نفوس رجال الداخلية، لكن المكالمة أكدت كل الشكوك حول عودة تلك اللعينة، ولأول مرة شعر أنه لا أمل له في النجاة.
عادت سعيدة بأغراضها، فأمر الخادم وزوجته بالانصراف كما طلبت العجوز، ثم بدأت الساحرة عملها البغيض، أشعلت النار وألقت بالبخور الجاوي، فانتشرت سحب الدخان في المكان كله، ثم راحت تضع أسفل الجدران مسحوق ترابي، شك محمد وهدان أنه ثرى المقابر، قبل أن تخرج أربعة جماجم مخيفة متآكلة الحواف، وكان المخيف هو أن اثنين منها كانا لأطفال رضع كما يبدو، لكن واحدة من الجماجم كان لها قرنان على جانبي الرأس، تمنى محمد وهدان لو يسألها لمن تنتمي تلك الجمجمة وكيف حصلت عليها، لكنه في الواقع كان يخشى الإجابة أكثر مما يخشى رؤية تلك الأغراض المرعبة. وضعت الجماجم الأربع في صف واحد ثم راحت تغمس ريشتها في إناء فخاري ثم تخرجها وقد تلوثت بالدم لترسم به على الأرض عشرات الأشكال الغريبة والكلمات غير المقروءة.
أغلقت الفيلّا تماما عليهما، ورغم هذا راحت جدران الفيلّا تهتز من حين لآخر من صوت الرعد الرهيب الذي راح يضرب السماء بلا هوادة، والأمطار تزداد عنفا والرياح تعصف بكل شيء في طريقها، هل يشاركه العالم من حوله خوفه، أم تراه يتوهم. رأى العجوز وهي تلتصق بالحائط ومازالت الفرشاة الدموية في كفها الأيسر المرتعش وهي ترسم تعاويذها وتنشر سحرها، وفمها لا يتوقف عن الهمهمة بكلمات لا يفهمها.

ظلت نحو الساعتان ثم التفتت إليه العجوز، وقالت:
-هذا أقصى ما أقدر عليه، والآن تعال إلى جواري يا محمد بيه.
تحرك نحوها في توجس وجلس على الأرض العارية في قلب ثلاث دوائر من الدماء وفي مقدمتها أربعة جماجم بدت مرعبة للغاية وقد أشعلت في قلب واحدة منها شمعة حمراء، راحت تبعث من عيونها ضوء لهبي مرعب.
ورغم إحكام إغلاق الفيلّا، فقد راحت ألسنة اللهب تتراقص وكأنما تحركها تيارات خفية من الهواء. علمت العجوز ما سوف يحدث فراحت تئن بصوت متحشرج وهي تردد تعاويذها في سرها.
ومن أمام صف الجماجم ظهرت رومية بغتة وقد سبقها عطرها. كانت فاتنة كالحور، مثيرة كالخيال، مخيفة كأعتى الشياطين، رمقتهما بعينين واسعتين وابتسامة ساخرة قبل أن تردد:
-هل تأخرت عليكما؟
ارتجف محمد وهدان في ذعر هائل، لكنه حبسه في صدره الذي راح يرتج بفعل قلبه الثائر، بينما رمقتها سعيدة في ذعر وقد أدركت منذ اللحظة الأولى عبث ما قامت به، فكل تلك التعاويذ الدموية القادرة على إبعاد أقوى الجان والشياطين لم توقف تلك المخلوقة التي لا تعرف كنهها.
انحت رومية نحو الجماجم الأربعة فتدلى شعرها الطويل حول رأسها، وقالت:
-تعويذة لطيفة، وناجحة. أربعة جماجم واحدة منها لأحد أبناء بعلزبول.
ثم التقطت آخر جمجمة وأصغرهن، ورفعتها نحو وجهها وهي تطفئ ضوء الشمعة بداخلها بنفخة من فمها، واستطردت:
-العزيز "دهار" المسكين، كم كان لطيفا حين كان حيا، لكن العجيب أن تحصل بشرية مثلك على جمجمة ثمينة كهذه.
ثم التفتت إلى سعيدة وقالت:

-هل يضايقك لو استعرت رأس العزيز "دهار"؟
هتفت سعيدة في رعب:
-اذهبي إلى الجحيم أيتها الشيطانة.
هزت رومية رأسها بالنفي وهي تقول:
-لست أنا من سوف يرى الجحيم هذه الليلة يا سعيدة.
قالتها وازدادت ابتسامتها، وبرعب رأت سعيدة ومحمد وهدان ما يحدث في الجدران، لقد راحت كل الرسوم الدموية على الأرض والجدران في الذوبان، ولم يمض أكثر من دقيقة حتى تحولت كل تلك الطلاسم إلى مجرد لطخات لا معنى لها من الدماء. ثم سمعا رومية وهي تقول:
-والآن رحبي أيتها الجميلة سعيدة بأصدقائك القدامى.
ومن قلب الجدار، راحت أشكال مرعبة تتشكل، كان هناك نحو العشرة شياطين وجميعهم تعرفهم سعيدة الكودية حق المعرفة، فقد خدمتهم وخدموها لعقود كثيرة، لكن الذي جعلها تبلل نفسها هي نظرتهم المريعة، هذه المرة لم يأتوا من أجل مساعدتها، هذه المرة جاءوا للقضاء عليها، ولأنها تعرفهم جيداء فقد كانت تعلم جيدا كيف سيقتلونها بأشنع وسيلة ممكنة للقتل. ولهذا راحت تعوي وتنشج بصوت عال وتقول:
-الرحمة .. الرحمة.
تقدم نحوها الشياطين بأقدامهم النحيلة ذات الحوافر والشبيهة بأقدام الحيوانات، ورمية تقول:
-كلا، يا سعيدة .. هذا غير لائق. لا يجب أن يلقى المرء أصدقاءه القدامى بمثل هذا الخوف والصراخ.
لكن سعيدة ظلت تعوي في ذعر وهي تتراجع بظهرها للخلف، وكأنما تتمنى لو تهرب من مصيرها المرعب، أحاطت بيها الشياطين العشرة فاختفى جسدها تماما بين أجسادهم قبل أن تتحول كل الأجساد إلى دخان سرعان ما ذاب في فراغ الغرفة. راقب محمد وهدان ما يحدث

برعب ألجم فمه، تمنى لو يموت الآن لينتهي هذا العذاب، تمنى لو يفقد وعيه، لكن أي مما يشتهيه لم يحدث.
وأطبق الصمت على المكان. وبعينين جاحظتين نظر محمد وهدان إلى رومية، فقالت له:
-ها قد صرنا لوحدنا يا صديقي القديم، ألا توافقني الرأي أن هذا أفضل، لو كنت تعرفني لعلمت أنني لا أطيق الصحبة الغريبة، أو المتطفلين.
لكنه لم يجب، فقط راحت أنفاسه تتسارع في غير انتظام، فانحنت رومية نحوه وتسلل عطرها إلى أنفه وهي تهمس:
-كلا. كلا. هذا غير عادل، كيف يخاف المرء من امرأة فاتنة مثلي، يا لغرابة طباعكم أيها البشر. تمنيت لو توفر خوفك حتى تلقى أنت الآخر أصدقاءك.
وفي تلك اللحظة انتبه للزمجرة الخافتة القادمة من خلفه، التفت على الفور برعب ليصطدم وجهه بوجوه كلاب عشرة، قد كشرت عن أنيابها، وراحت تزمجر متوعدة. إنها كلابه، لكنها لم تأت الليلة لحمايته، بل ستفعل أمرا آخر لم يخطر له على بال قط. ومن خلفه قالت رومية في جذل:
والآن ما رأيك في هذه المفاجأة؟
ولم يرد عليها، فقد انقضت الكلاب العشرة في نفس اللحظة.
وبدأ الصراخ.

(32)

ابتسمت ريم وهي نائمة تحلم، ففي الحلم كانت تلهو في عالم جميل وعجيب، كانت الكلاب تتكلم ووجدت قطا يسير على قدمين، وهو يغني من أجلها. بينما رغبت طيور الكناري الملونة في اللعب معها، ثم قالت لها المرأة الجميلة التي تملك كل هذا العالم:
-يمكنك البقاء هنا للأبد لو شئت، فقط عليك تقديم هدية بسيطة من أجلي.

-لكني لا أملك أي شيء.
لكن الملكة الجميلة التي ترتدي فستانا ذا ألوان زاهية ومبهجة مالت نحوها وهمست:
-بل تملكين أثمن شيء في الوجود .. دماءك.
وحين استطالت أسنان الملكة الجميلة شعرت ريم بالخوف فاستيقظت.
كانت تلهث وراحت عيناها تدور في الظلام في قلق، قبل أن تتنهد في ارتياح:
-لقد كان حلما سيئا إذن كما تقول ماما.
سمعت صوتا يأتي من المقعد المجاور لفراشها وهو يقول:
-لكنه حلم جميل.
أجفلت، لكنها حين نظرت إلى صاحب الصوت وجدتها الملكة التي كانت في الحلم، كانت تبتسم في وجهها، لكن أسنانها كانت غير بارزة كما صارت في الحلم، انكمشت ريم في خوف، وعيناها لا تفارقان أسنان الملكة الجميلة، فاقتربت الأخيرة منها بوجهها، وهي تقول:
-هل تخافين مني؟
أومأت ريم بالإيجاب، فهزت الملكة الجميلة رأسها في أسف وقطبت جبينها وهي تقول:
-هذا يحزنني، رغم أني قد جئت كي أقدم لك الهدايا الجميلة.
ثم أشارت إلى أرض الغرفة وقالت:
-انظري، أليس هذا جميلا.
وعلى أرض الغرفة راحت كل الدمى التي تملكها في التحرك والرقص وكأنها حية، بينما قام الدب الكبير بغناء أغنية جميلة تهواها ريم، مصحوبا بموسيقى تنبعث من مكان غامض. كان هناك منزل صغير من البلاستيك ذو حديقة فيها بيت كلب ضئيل وكل سكانه أقزام مصنوعون من البلاستيك، كان هدية عيد ميلادها الرابع من أبيها، وكانت كثيرا ما تلعب به، تحرك الدمى بداخله، وتخرج الكلب من بيته أو تعيده إليه

بعد أن تطعمه طعاما وهميا. أضيء البيت ودبت الحياة في دمى الأقزام البلاستيكية فراحت تتحرك بداخل حجراته في حيوية، بينما نبح كلبها الصغير للغاية بصوت رفيع. تغلب الفضول على الخوف في نفس ريم، ووجدت نفسها تنظر إلى هذا العالم المبهج من فوق الفراش بانبهار، ووجدت الملكة الجميلة تجلس إلى جوارها وهي تهمس في أذنها:

-والآن ما رأيك؟

-إنه جميل.

قالتها ريم في حماس، فاتسعت ابتسامة الملكة، وقالت:

-يمكنها أن تظل هكذا للأبد، لو شئت.

-نعم، أريدها هكذا.

-وماذا تقدمين للملكة الطيبة في المقابل؟

تذكرت ريم الحلم في الحال فنظرت للملكة في قلق وتأملت أسنانها، لكن الأسنان ظلت صغيرة وغير بارزة، فقالت:

-لا أعلم.

-لن أطلب الكثير أيتها الصغيرة الحلوة. يكفيني بعض الدماء.

وأمام عيني ريم استطالت الأسنان من فم المرأة الحلوة وصارت مدببة بأكملها واقتربت أكثر منها وهي تقول:

-فقط لا تخافي مني.

لكنها كانت تخاف بالفعل، ولهذا صرخت.

ثم فُتح الباب.

قبل دقائق استيقظت هايا من النوم على كابوس مخيف، كانت في صحراء جرداء مظلمة برفقة ريم، وكانت تتحرك فيها بإعياء وهي لا تدري كيف أتت إلى هنا، لكنها ظلت تجذب ابنتها التي تتبعها صارخة وهي تهرب من عدو مجهول، وحين توقفت فجأة كي تلتقط بعض أنفاسها، وجدت ظلا ضخما لكائن رهيب يهبط من فوق رأسها من الأفق المظلم ويختطف ريم بمخالبه ويجذبها لأعلى، راحت تنظر للأفق المظلم في رعب وخوف رهيب وهي تصرخ:

-رييييييييم.
ثم استيقظت، كان فؤادها ينتفض في رعب حقيقي، ثم هبت من فراشها مندفعة نحو غرفة ريم، لكنها ما أن اقتربت من الغرفة حتى سمعت أصواتا غريبة تنبعث من الغرفة، ميزت منها صوت موسيقى وأغنية أطفال تحبها ريم، وأصوات أخرى أقل حدة لم تتبينها، ازداد رعبها وهي لا تدري ماذا يحدث في غرفة الطفلة، لكن ما زاد رعبها أكثر كان ذلك الضوء الأحمر المخيف الذي ظهر بغتة من أسفل الباب المغلق، هذه المرة تغلب خوفها على ابنتها على كل مشاعر أخرى، فاندفعت نحو الباب وفتحته في نفس اللحظة التي صرخت فيها ريم.
كانت الغرفة مظلمة، وقد تلاشت الأصوات كلها فجأة، لكن ريم ظلت تصرخ، اندفعت هايا نحو الفراش رغم الظلام، حتى أن فخذها ارتطم بقائم الفراش بقوة مريعة، لكنها لم تشعر به، واحتضنت الفتاة المذعورة وهي تهتف:
-رويدا يا حبيبتي، أنا هنا، فلا تخافي.
لكن ريم ظلت تنتفض في صدرها وهي تهتف باكية:
-تلك المرأة، لقد أرادت أن تأكلني بأسنانها الكبيرة، إنها مخيفة يا ماما. أنا خائفة.

راحت تربت على ظهرها، وهي تقول محاولة تهدئتها:
-لا تخافي يا حبيبتي، ماما هنا ولن يؤذيك أي أحد.
ثم مدت ذراعها نحو مفتاح الإضاءة المجاور للفراش وأضاءت الحجرة، كانت الألعاب كلها مبعثرة على الأرض في غير انتظام، كما كان البيت الصغير ملقى بإهمال في أحد الأركان، ما تذكره "هايا" أن الحجرة كانت منظمة تماما قبل نوم ريم بالأمس، فهل استيقظت مثلا في الليل ولعبت بألعابها، وهل فعلت هذا في الظلام؟ كان الأمر مريبا، لكن الأكثر رعبا هو تلك الرائحة العطرية القوية التي يعبق بها هواء الغرفة، رائحة عطر أنثوي قوي، أفضل عطر لو شاءت الدقة، لكن من أين أتى؟
رفعت الفتاة رأسها عن صدر أمها وقالت:

-ابحثي عنها يا أمي، أخشى أن تكون مختبئة أسفل الفراش أو داخل الخزانة.
تذكرت هايا الأصوات الغامضة التي سمعتها قبل قليل، وذلك الضوء الأحمر المخيف الذي جاء من عقب باب حجرة ريم، والآن تلك الرائحة العطرية مجهولة المصدر، وقبل كل هذا تحذير زوجها فؤاد من أن تدع ريم تنام بمفردها. الأمر خطير بلا شك.
همست لابنتها مشيرة لها بالصمت ثم نهضت حاملة إياها واستعدت لتغادر الغرفة في سكون، تأوهت من ألم فخذها الرهيب، لكنها تحاملت على نفسها وكتمت صوت ألمها وهي تتحرك ببطء نحو الباب وهي تخشى أن تندفع ذراع فجأة من أسفل الفراش لتمسك بقدمها وتعيق خروجها، أو يندفع شيء ما من الخزانة، نحوهما،
لكن شيئا من هذا لم يحدث، غادرت الغرفة وأغلقت الباب خلفها، ثم أنزلت ابنتها إلى الأرض وهي تغمض عينيها بألم، قبل أن تتحرك بعرج نحو حجرة نوم أبويها وتطرقها في قوة.
ظهرت أمها أولا، ثم ظهر أبوها خلفها، وهو يقول:
-ما الذي يحدث يا هايا؟
-هناك أحد ما في حجرة ريم.
كانت ريم قد اندفعت لأحضان جدتها، ورفعت صوتها قائلة:
-إنها امرأة سيئة تريد أن تأكلني بأسنانها يا تيتا.
رمقهما أبوها في دهشة، لكن الرعب والألم على محيا ابنته، كان أبلغ من أي تساؤل أو استنكار، فساعدها لتدخل غرفته وتبعته زوجته وهي تحمل ريم، ثم فتح درج الكومود وأخرج منه مسدسه، وقال:
-انتظرن هنا ولا تفتحن الباب لأي شخص حتى أعود.
قالت هايا في خوف:
-وماذا ستفعل؟
-سأفتش البيت بالطبع.

مضت نحو النصف ساعة قبل أن يعود أبوها ثانية، وقال لهن فور أن دخل:
-لا أحد هناك، فتشت الفيلّا كلها والحديقة مع رجال الحراسة ولم نعثر على أي شخص دخيل.
لكن ريم قالت في عناد:
-كلا. تلك المرأة المخيفة موجودة، لقد رأيتها يا "جدو". ريم لا تكذب.
ابتسم في وجهها قائلا:
-لو ظهرت ثانية فسيقتلها جدو بمسدسه هذا.
-أجل يا جدو، أريدها أن تموت.
ربت عليها الجد في حنو لبعض الوقت، ثم التفت إلى ابنته وقال:
-أريدك لحظة في الخارج يا هايا. هل تستطيعين السير؟
-سأحاول.
نهضت بألم وهي تخشى الآن أن تكون مصابة بكسر في عظمة الفخذ، ساعدها أبوها على الحركة للخارج ثم أجلسها على أقرب مقعد، وقال لها:
-ما الذي بك وبابنتك، ولماذا جاء بكما فؤاد إلى هنا؟
-لا أدري، لكني أخشى .. أخشى ..
ثم راحت تنتحب، فقال لها أبوها في توتر:
تخشين ماذا يا هايا، أخبريني ولا تخافي.
-أخشى أن تكون ريم "ملبوسة".
تراجع في ذهول وقلق، ليست ابنته القوية من يتحدث بكل هذا الخوف والقلق، وليست بالمرأة التي قد تتحدث بالترهات والخرافات بلا دليل، قولها هذا لا يعني إلا أن الأمر خطير، لذا قال لها في حزم:
-وأين زوجك من كل هذا، وماذا يفعل، سوف أتصل به.
بعد ساعتين كان فؤاد بالمنزل، انطلق كالسهم نحو ريم فاحتضنها في حنان رغم ملابسه المبللة، ثم انتبه إلى زوجته الجالسة في ألم فقال لها:

-لماذا تتألمين ولماذا تربطين فخذك هكذا، هل أصبت؟
رمقته في لامبالاة قبل أن تقول:
-وهل هذا يهمك؟ لكن لا تقلق، أنا بخير. هذا بالطبع لو كنت تقلق.
ليس الآن أرجوك، ليس وأنا هكذا وليس ونحن في حضرة أبيك وأمك، قال هذا في سره، لكنه لم يعقب على كلامها، ثم انتبه إلى حماه الذي قال له في حزم:
-دع ريم لجدتها واتبعني لحجرة المكتب يا فؤاد.
وفي حجرة المكتب جلس حماه خلف مكتبه وقال:
-والآن أريد أن أعرف بالضبط ما تلك القضية الغامضة التي تعمل عليها، وما شأن هايا وريم بها.
رمقه فؤاد في توتر، ثم أشعل سيجارة جديدة متجاهلا كراهية حماه للتدخين أمامه وقال:
-هل تذكر قضية نجع الموتى؟
-قرأت ما ذكر في ملفها، وبالكاد يمكنني تصديق تلك الأحداث الغريبة التي جرت، لكن الشهود جميعا اتفقوا على نفس الرواية.
-القضية التي أعمل بها الآن أكثر خطورة.
ثم صمت للحظة وهو يرمق العينين القويتين الميتتين لحماه، الرجل القوي في الداخلية كلها وأردف:
-هذه المرة أطارد شيطانا.
ثم قص عليه كل ما حدث، وحين انتهى رن هاتفه، أجاب على محدثه بكلمات مقتضبة قبل أن يقول:
-حسنا، سوف آتي حالا.
ثم التفت إلى حماه وقال:
-وها قد قتل اللواء محمد وهدان بوحشية.
بدا التأثر على وجه حماه، ثم قال في حزم:
-اذهب أيها الرائد وقم بواجبك، أما أنا فسأعرف كيف أعتني بابنتي وحفيدتي.

وصل فؤاد إلى فيلا اللواء محمد وهدان في أقل من نصف ساعة، كان الوحل في كل مكان في أرضية الشقة من أثر العشرات من رجال الشرطة والنيابة ورجال المختبر الجنائي وطبيبين شرعيين، كان هناك أكثر من لواء بالمكان نظرا لأهمية القتيل، وفور أن ظهر فؤاد، اتجه إليه أحدهم وقال:

-كنت آخر من اتصل به، أليس كذلك أيها الرائد؟

-كنت أحذره.

قالها فؤاد وهو يرمق الأرض الغارقة في الدماء والمليئة بالرموز العجيبة وقد أحاط رجال البحث الجنائي كل هذا بدوائر من الطبشور الأحمر.

-هذا يعني أنك تعلم لماذا مات؟

تنهد فؤاد وهو غير مستعد للشرح ثانية، جو الفيلّا كان مقبضا للغاية يثير نفوره بشدة وخاصة مع رائحة الدماء الصدئة التي ملأت أنفه، لذا قال:

-هل لي أن أسأل، كيف مات يا سيدي؟

-إنها كلابه العشرة، لقد وصلت النجدة التي طلبتها له لتجد الكلاب وهي تنهش في جثمانه، بالطبع لم ينتظر الرجال طويلا وأطلقوا على الكلاب رصاص مسدساتهم. إنها هناك لو كنت قد لاحظت.

نظر حيث يشير، كانت أجساد الكلاب العشرة ممزقة بشدة بفعل الرصاص الذي أطلقه رجال الشرطة نحوها بسخاء، ثم سمع اللواء يسأله:

-هل كنت تعلم أن كلابه قد تهاجمه؟

-لا يا سيدي،

-ولا سر تلك الرموز والتعاويذ المرسومة على الجدران والأرض بالدماء؟

-لا يا سيدي.

-هذا غريب، لماذا كنت تحذره إذن ولماذا أرسلت رجال الشرطة إلى هنا؟

لم يكن هناك ما يقوله، لذا اكتفى بالقول:

إنها قضية قديمة عمل عليها سيادة اللواء رحمه الله.
-وما شأن القضية بالكلاب التي قتلته، هل تعلم يا فؤاد، تلك الكلاب كان هو من رباها بنفسه منذ كانت صغيرة، هل تصدق أن تتشارك في قتله في النهاية هكذا؟
أراد أن يخبره أنه صار مستعدا لتصديق أي شيء بعد كل ما رآه، لكنه لم يقل هذا، فقط استأذنه قبل أن يتصل بالدكتور محمد شاهين قائلا:
-لقد قُتل اللواء محمد وهدان يا دكتور. للأسف لم نتمكن من إنقاذه.
-يا للخسارة، رغم أني كنت أتوقع هذا، لكن هل يمكنك المجيء إلي. أريدك هنا في فيلتي الآن.

(33)

توالت الذكريات في ذاكرة الدكتور محمد شاهين، فلأكثر من أربعين عاما ظلت وداد تقوم بخدمته والعناية به، وواجهت معه الكثير من المغامرات الرهيبة، وكادت أن تتعرض للموت أو الحرق بسببه أكثر من مرة. ورغم هذا لم تفارقه ولم تهرب من خدمته. بالطبع لم تكن أي امرأة غيرها لتمكث معه طويلا، لكنها كانت تحبه، ولهذا أفنت عمرها كله بجواره. كان من المستحيل بعد كل هذا الحب والإخلاص أن يدع رومية تفتك بها أو تقتلها كي ينجح في إنقاذ رجل لا يعرفه كثيرا، لقد خيرته رومية بين حياة وداد وحياة اللواء محمد وهدان، ولأنه يعلم أن رومية لا تمزح ولا تلقي بالتهديدات الجوفاء، فقد اختارها على الفور، ولهذا ها هو ينهب الأرض نهبا بأقصى سرعة ممكنة رغم الأمطار الغزيرة، في سيارة الدكتور مصطفى الذي جلس إلى جواره صامتا واجما. الغريب أنه لا يشعر بالنفور مما تفعله، وكأن عقله لا يرغب في تصديق أنها مخلوق وحشي لا يتورع عن سفك الدماء والقتل بأبشع وسيلة ممكنة.
هل هو الحب حقا؟

وهل يقع المرء في حب مخلوق يرعبه حتى الموت؟ ثم متى عرفها جيدا، حتى يتاح له الوقت كي يعشقها، ما يحيره أن الجميلات ظللن يحمن حوله كالفراشات طوال عمره دون أن تسحره يوما فتنتهن أو يُذهب عقله جمالهن، لم يهو من قبل غير واحدة اختطفها الموت مبكرا، وبعدها أدرك أن قلبه غير مخلوق للحب، أو أنه استنفد كل رصيده من العشق في غرام امرأة واحدة، وحين ماتت اصطحبت عشقه وقلبه معها إلى قبرها.

لماذا يفعل هذا الآن، ولماذا أحب تلك المخلوقة الشيطانية، هل هو جمالها النادر؟ لكنه لم يعد مراهقا ليفتنه أي جمال، أم تراه سحرها الشيطاني الذي استطاع أن يعيد للقلب الميت ما نسيه عن فنون العشق وأبواب الغرام.

ليلته السابقة معها كانت تسكره بلا خمر كلما طافت بخياله، وعطرها الفريد ما زال يملأ خياشيمه، ولولا الخجل لترك كل شيء وهام على وجهه يبحث عنها لينعم برؤيتها ويتذوق فتنتها القادمة من عوالم غامضة مرة أخرى.

وهز رأسه في عنف وكأنما يطرد تلك الأفكار الشاذة عن عقله وهو يغمغم في سره:

-تعقل يا محمد شاهين ولا تتصرف كالمراهقين، إنها مخلوق لا يعرف غير الشر فلا تنس هذا.

انتبه له الدكتور مصطفى فتمتم وهو يرمق ممسحة المطر، وهي تفرق خيوط المطر عن الزجاج بلا توقف:

-هل تقول شيئا؟

-لا شيء يا دكتور مصطفي، لا شيء.

-ومتى نصل إلى بيتك.

-لقد اقتربنا.

كان قد بلغ منتصف الطريق الدائري في تلك اللحظة، ومازال الطريق قليل الازدحام بفضل المطر، ولهذا لم يمض أكثر من نصف ساعة بعدها إلا وكانا قد بلغ الفيلّا.

بالخارج كانت الحديقة غارقة تماما في بركة كبيرة من ماء المطر، والرياح العنيفة تطوح الأشجار والنباتات القصيرة فيها بلا رحمة، بينما فاضت المياه من حمام السباحة، وراحت تتسرب منه للخارج، أما الفيلّا فقد ظهر عبر نوافذها ضوء أحمر مخيف غريب، توقف محمد شاهين بالسيارة أمام باب الفيلّا وقد تسارعت دقات قلبه وهو يرمق الفيلّا الغارقة في الضوء الأحمر وعقله يفكر في كل الاحتمالات الممكنة لذلك الضوء المرعب، ثم انتبه للضوء الدكتور مصطفى فمسح نظارته بقطعة من القماش الحريري وأعادها لعينيه ثانية وهو يرمق النوافذ قبل أن يقول:

- هل تستعمل لمبات حمراء في فيلتك يا دكتور محمد؟ لعمري هذا ذوق غريب.

لم يرغب محمد شاهين في بث الخوف في قلبه فلم يخبره بأنه لا يعلم شيئا عن هذا الضوء الأحمر، واكتفى بالقول:

- دعنا ندخل، لكن احترس من الانزلاق.

كانت الأرض مرصوفة بالحجارة، تحرك فوقها الدكتور مصطفى بحرص بينما سبقه محمد شاهين فتسلق الدرجات الأربع حتى بلغ باب الفيلّا، وفتحه في عجالة ثم دخل، قبل أن يتوقف مكانه في ذهول، لحق به الدكتور مصطفى في تلك اللحظة، فتوقف إلى جواره وقد فغر فاه في ذهول رهيب هو الآخر، كانت الفيلّا مليئة عن آخرها بعشرات القطط السوداء المكتنزة، قطط تشبه قطه "دو" تمام الشبه وكأنها تؤام له. كانت تتحرك في كل مكان دون أن تتوقف وبعضها يصدر مواء موجس مريب، بينما غمر الضوء الأحمر أرجاء الفيلّا. وقبض الدكتور مصطفى على ذراعه في توتر وهو يهمس:

-رباه، من أين يأتي هذا الضوء الأحمر، وما كل هذه القطط، ماذا يحدث في بيتك يا صديقي؟

التفت نحوه محمد شاهين ومد يده وخلع نظارته من فوق أنفه، وقد قرر ألا يدع الدكتور مصطفى يرى كل تلك العجائب المخيفة في الفيلا كي لا يزيد من فزعه وخاصة بعد التجربة المريرة التي عاشها منذ ساعات قليلة، فقال مصطفى وهو يتراجع برأسه للخلف محتجا:

-ما الذي تفعله؟

-ثق بي ولا تخش شيئا يا دكتور مصطفى، هذا الضوء قد يؤذي عينيك ولهذا يجب ألاّ تنظر إليه.

-يمكنك أن تطفئه، لكن ليس من حقك أن تنزع النظارات هكذا، إنني لا أرى شيئا بالفعل.

-يمكنك أن تمسك بذراعي وسأقودك للداخل. فقط أرجو أن تثق بي قليلا وأن تسامحني على ما فعلته.

وبينما تشبث به الدكتور مصطفى، راحت عينا محمد شاهين تنظر للجدران في توتر متصاعد، كانت الجدران تتوهج برموز حمراء من نار، أشكال حيوانات وطيور ورموز وأرقام ودوائر ونجوم وجماجم وهياكل وعيون وأذرع، أشكال تتوهج وهي تبدل من شكلها طوال الوقت، ولأنه خبير بمثل تلك الأمور فقد كان يدرك أنها طلاسم وتعاويذ.

إنه سحر عظيم لم يشهده من قبل، لكن ما فائدته ومن فعله؟

كانت رومية هي الإجابة الأولى التي برزت في عقله، فابتلع ريقه بصعوبة، وخاصة حين نظرت إليه إحدى القطط في هدوء ليرى كيف راح لون عينيها يتبدل من اللون الأصفر البراق إلى ضوء لهبي أحمر، قبل أن تفتح فمها وتصدر مواء غامضا.

وجد نفسه يهتف بصوت خفيض وكأنما يخشى أن تنتبه له تلك القطط الغريبة:

-وداد .. أين أنت؟

لم يظفر بإجابة، فبدأ التحرك بحذر وهو يقود الدكتور مصطفى وهمس:
-تحرك ببطء يا دكتور ولا تتحدث أرجوك. فقط اتبع خطواتي.
استجاب له الدكتور مصطفى الذي كان يشعر أن أمرا رهيبا يدور حوله، وقد أيقن أنه من الأفضل ألا يرى ما قد يواجهه، حتى لو كان يحمل له الموت نفسه.
كانت وداد غير موجودة في الردهة أو في المطبخ، فاتجه الدكتور محمد إلى حجرة نومها وطرق بابها برفق، وحين لم تجبه أدار المقبض ودخل، كانت الغرفة غارقة في الضوء الأحمر هي الأخرى، لكن وداد كانت هناك، جالسة فوق فراشها وقد انكمشت حول نفسها وهي متدثرة بطرف الغطاء وجسدها يرتجف في قوة وعيناها غارقتان في الدموع. وحين نظر للناحية المقابلة للفراش رأى قطا أسود يعرفه جيدا وهو جالس على قائمتيه الخلفيتين ويرمقها بثبات، كان "دو"، كان يشعر بهذا رغم أن هيئته ولونه لا يختلفان عن باقي القطط، لكن هذا القط هو قطه الذي لن يخطئه بكل تلك الأعوام، نقل بصره بين الاثنين ثم قال لوداد وهو يندفع نحوها وقد ترك الدكتور مصطفى واقفا أمام الباب:
-وداد .. كلميني، هل أنت بخير؟
ثم احتواها بين ذراعيه في حنان، بدت للحظات وكأن عقلها في عالم آخر، وبينما يربت على ظهرها انتبهت له وحركت وجهها نحوه، قبل أن تغمغم:
-أنا خائفة محمد.
رمق محمد القط الذي بادله النظر في هدوء وقال:
-ليس وأنا بجوارك، لن أسمح لأي شر بأن يمسك، اهدأي يا وداد، وأخبريني ماذا حدث؟
أشارت بإصبع مرتجف نحو القط وقالت:
-إنه قطك اللعين، إنه من فعل كل هذا.

كان الوقت قبل الفجر بقليل، حين أيقظها صوت مكتوم تسلل إلى عقلها، ارتجف جسدها ورمقت زجاج نافذتها الذي سطع البرق عبره في تلك اللحظة فأدركت أن ما سمعته هو صوت الرعد المصاحب له بلا شك، لم تكن تخشى الوحدة ولا البرد ولا حتى الأصوات الغامضة، ولهذا لم تكن تشعر بالخوف، لكنها حين استدارت للناحية الأخرى من الفراش المواجهة لباب الحجرة وجدت نفسها أمام عينين غير بشريتين ترمقانها من قلب الظلام، عينان تشعان بضوء أحمر مخيف، صرخت في فزع ثم سطع ضوء البرق ثانية في اللحظة نفسها وعلى ضوئه المنعكس من النافذة رأت القط الأسود. في اللحظة التالية أصدر القط القابع في الظلام مواء غريبا، وبعدها راحت جدران الحجرة تتوهج بضوء أحمر مخيف وعشرات الأشكال ترسم نفسها بالنار على سطح الجدران قبل أن يغمر الحجرة الضوء الأحمر مجهول المصدر، ظهرت بعدها عشرات القطط من قلب الجدران وهي تتجه نحو "دو" لم تصطف خلفه في هدوء، كان الأمر أكبر من قدرتها على التحمل، ففقدت وعيها، لا تدري كم طالت غيبوبتها لكنها حين استيقظت، وجدت نفسها بمفردها في الحجرة المتوهجة باللون الأحمر ودو جالس قبالتها وهو يراقبها في هدوء، من حسن الحظ أن الدكتور محمد شاهين أتى في تلك اللحظة، ربما لو تأخر قليلا لعاد إليها بعد فوات الأوان وقد قتلها الرعب.

انتظر الدكتور محمد شاهين حتى هدأت، ومازالت عيناه معلقة بالقط الذي ظل ينظر إليه في صبر دون أن يغير من وضعه، ثم زال الوهج الأحمر فجأة واختفت الرموز والطلاسم من فوق الجدران، بعدها تحرك "دو" للخارج. فقال محمد شاهين:

-لقد انتهى كل شيء فلا تخافي، والآن لدينا ضيف فهل يمكنني الاعتماد عليك في الاعتناء به لبعض الوقت ريثما أنتهي من بعض الأمور في المكتب؟

رمقت وداد الدكتور مصطفى الذي ظل واقفا مكانه في هدوء دون أن ينبس بكلمة واحدة، وبدا أنها تراه للمرة الأولى ثم نقلت عينيها للدكتور محمد شاهين الذي نهض من مكانه وأعاد وضع النظارة فوق أنف الدكتور مصطفى وهو يردف:

إنه الدكتور مصطفى، صديق قديم لو كنت تذكرين.

نظر الدكتور مصطفى حوله وقد عادت عيناه قادرتان على تميز الأشياء ثانية، ثم قال:

-لقد ذهبت القطط والضوء الأحمر.

-لقد انتهى الأمر يا دكتور، والآن ستقوم وداد باصطحابك لحجرة الطعام لتعد لك وجبة إفطار مناسبة، لا ريب أنك تشعر بالجوع الآن وانت لم تتناول أي شيء منذ الصباح.

ودون أن ينتظر ردا غادر المكان واتجه مباشرة للمكتب، لاحظ أن القطط السوداء قد اختفت بالفعل، وأن ضوء النهار الضعيف هو الذي يضيء الفيلّا الآن، أغلق باب المكتب خلفه بإحكام ليجد نفسه وجهها لوجه مع دو الذي كان بانتظاره، ثم رمق سطح مكتبه فوجد كتاب اللعنات مفتوحا فوقه، اتجه نحوه فرأى صفحاته الفارغة المائلة للاصفرار، وقد بدأت كلمات تكتب نفسها بالدم وباللغة اللاتينية، وبصعوبة استطاع قراءة المكتوب رغم بساطته:

"i exspectabat tibi"

ومن قلب الكتاب تصاعد دخان أزرق كثيف اتجه مباشرة نحو رأس الدكتور محمد شاهين، فشعر بالنعاس يتسلل بسرعة إلى عقله، و ..

ثم كان هناك، أمام الراهب اليوناني مرة أخرى. كانا وحيدين في قلب صحراء شاسعة في ليل بهيم لا يبدد ظلامه إلا قمر ضخم للغاية لم ير الدكتور محمد شاهين مثله من قبل.

وقال الراهب في عتاب:

-لماذا تضيع الوقت أيها البشري؟

هذه المرة قال له محمد شاهين وقد شعر بالخوف من نظرته:
-من أنت وماذا تريد مني؟
-صديق أيها البشري لا يريد إلا المساعدة.
-المساعدة في ماذا؟
-في مواجهتها، اعتقدت أنك أدركت هذا منذ رحلتنا الأولى.
-وهل سنذهب في رحلة زمنية أخرى كالمرتين السابقتين؟
ابتسم الراهب في مرارة وقال:
-لم يعد الأمر ممكنا أيها البشري الضعيف، ليس بعد أن امتزجت بك، وتذوقت ماءك وعرقك وأنفاسك.
ورغم أنه يدرك ما يقصده إلا أن محمد شاهين قال:
-لست أفهم ما تقصده؟
-لقد نكحتها أيها البشري، والآن صار بإمكانها الشعور بك والعثور عليك في أي زمن أو مكان ترحل إليه. ولهذا فمن الخطر محاولة تتبعها عبر الأزمان.
-وماذا عن هذا المكان؟
-يمكنك أن تقول أنه آمن بعض الشيء.
-هل هذه هي الأرض التي أعرفها؟
-كلا، إنها أرض أخرى في بعد آخر وزمن غير محدد، حيلة صغيرة تمنحنا بعض الأمان منها، لكن ليس لوقت طويل.
-وماذا سنفعل الآن؟
-سأخبرك بما تبقى من القصة، القاعدة الأولى حين تواجه عدوا ما، أن تعرفه جيدا، وأن تعرف كل قدراته وتاريخه.
ثم أشار له بالجلوس فجلس فوق الرمال. وبينما امتد ظليهما حولهما قال الراهب اليوناني.
-والآن أخبرني، ما الذي تعرفه عن ليليث؟

(34)

ما الذي يعرفه عن ليليث؟

وكأن الراهب اليوناني يسأل طاه ماهر عن سر أكلة يجيد صنعها!

إنه خبير في ال "ما الورائيات"، وبالنسبة له فإن ليليث واحدة من أهم الظواهر التي طالما شغلت عقول الباحثين والمهتمين بالأساطير وعلوم السحر.

في الأساطير السومرية القديمة كانت هي شيطان العواصف والرياح، حيث أطلقوا عليها "ليليث" و"ليليتو"، ظهر اسم ليليث أول مرة في لوح طيني سومري من مدينة أوروك، يعود إلى 2000 سنة قبل الميلاد، ويحكي عن أن إله السماء، أمر بإنبات شجرة الصفصاف على ضفاف نهر دجلة في مدينة أوروك، وبعد أن كبرت الشجرة اتخذ تنينٌ من جذورها بيتاً له، بينما اتخذ طائر مخيف من أغصانها عشاً له، لكن في جذع الشجرة نفسها كانت تعيش المرأة الشيطانة ليليث، ويقال أن التنين والطائر كانا يعبدانها أو يطيعانها، وأنهما كانا يخطفان الرجال والنساء والأطفال من أجلها حيث كانت تتغذى علي لحومهم وتمتص دماءهم. وعندما سمع جلجامش ملك أوروك عن تلك الشجرة حمل درعه وسيفه وقتل التنين واقتلع الشجرة من جذورها فهربت ليليث إلى البرية.

وفي أساطير بلاد ما بين البحرين القديمة عرفوها باسم آخر، "تيامات" (Tiamat)، حيث هي إلهة المحيط والمصورة في صورة ثعبان ضخم، والتي تتزوج من "أبزو" إله المياه العذبة لينتجا آلِهة أصغر. بينما تصور في نقوش أخرى في هيئة امرأة فائقة الأنوثة والجمال.

وقد عرفت كذلك في الأساطير البابلية الأولى باسم آخر هو، عشتروت، أو عشتار، هنا ظهرت في صورة أكثر جمالا ودفئا من الصور الوحشية الأولى، فـ "عشتار" هنا هي آلهة الحب والحرب والجمال والتضحية في الحروب، كما لقبها السومريون بـ "ملكة الجنة"، وكان معبدها يقع في مدينة أوروك، تلك المرأة يقابلها

لدى السومريين إنانا، وعشتاروت عند الفينيقيين، وأفروديت عند الي
ونان، وفينوس عند الرومان، وإيزيس أو سخمت في مصر.
كما كشفت بعض النقوش في آثار بابلية عن أصول ليليث، حيث هي
البغي المقدسة للإلهة "إنانا" التي أرسلت من قبل هذه الأخيرة كي تغوي
الرجال في الطريق، وتقودهم إلى معبد الإلهة حيث كانت تقام هناك
الاحتفالات المقدسة الدموية للخصوبة والتي كانت تقتضي وجود
تقديم الدم والقرابين البشرية.
لكن بقيت ليليث في أغلب التصورات القديمة في الحضارات القديمة
لبلاد ما بين النهرين كامرأة وحشية تغوي الرجال لقتلهن وتمتص
دماءهن وتتسلل للبيوت ليلا لتقتل الحوامل والأطفال الرضع.
هذا عن الأساطير القديمة، فماذا عن الديانات السماوية؟
في الإسلام لا ذكر لها على الإطلاق لا في قصص الخلق الأولى أو
الأحاديث النبوية الشريفة، وفي المسيحية يلقبها الكتاب المقدس بـ
"امرأة الليل" ويصفها كبومة نائحة تجلب الشؤم والشر.
لكن في اليهودية نجد أن ليليث شخصية شهيرة للغاية، حيث يتحدث
عنها كتاب "الزوهار" والذي هو أهم كتب تراث "الكابالا" اليهودية،
والتي يراها البعض ضربا من فنون التصوف والعلم الباطني ويراها
البعض الآخر فنا من فنون السحر الأسود يتوارثه الحاخامات اليهود
جيلٌ بعد جيل.

يخبرنا كتاب الزوهار، أنها كانت الزوجة الأولى لأدم قبل السيدة حواء،
لكنها لم ترض بسيطرة آدم عليها فهربت منه وأغواها الشيطان فصارت
عشيقة له، وراحت تلد له 100 طفل شيطاني كل يوم، هنا اشتكى آدم
لله ما فعلته ليليث، فأرسل الله إليها ثلاثة ملائكة لإعادتها إليه، لكنها
رفضت فتوعدها الملائكة الثلاثة بقتل 100 طفل من أطفالها في كل
يوم، ومنذ ذلك اليوم تعهدت ليليث بالانتقام من البشر بأن تقتل نفس
العدد في كل يوم من أبناء البشر.

يذكر الزوهار كذلك، أنها كانت الحية التي أغوت آدم وحواء للأكل من الشجرة المحرمة كانتقام منه ومن زوجته الجديدة حواء.
لقد وصفها الزوهار، بأنها امرأة جميلة جداً، تجيد فنون الغزل والإغواء، حيث يقال أنها كانت تتجسد ليلاً أمام الرجال لكي تغويهم ثم تقتلهم، كما كانت ليليث تلقب بـ "قاتلة الأطفال"، حيث يتم تصويرها كثعبان هائل له أجنحة ومخالب، يتسلل إلى البيوت ليلا لقتلهم. وقد احتوت كتب "الكابالا" على الكثير من التعويذات والصيغ السحرية التي تتخذ كوسيلة لحماية الرضع والحوامل من شر ليليث.
وفي الإصحاحين 1 و2 من سفر التكوين، نجد أن ليليث هي المرأة الأولى المخلوقة، والتي يزودها الشيطان بأجنحة تمكّنها من الهروب من جنّة عدن لتفارق آدم، وتلحق به، إلا أنها لم تتوقع أن يقتفي أثرها ثلاثة من الملائكة هم سينوئي وسنسنوئي و سامينجيلوف ليجدوها عند البحر الأحمر، ويطلبوا منها العودة، لكنها تأبى ذلك وتتزوج بالشيطان وتلد منه فيتوعدها الملائكة بقتل أولادها، فتحقد على حواء وذريتها وتقتل أبناء حواء من البشر وهذا يرجع إلى غيرتها منها خاصة وأن حواء خلقت من طين لكي تكون بديلاً عنها مع آدم.
ولهذا نجد في العصور الوسطى الكثير من التمائم التي كان الرهبان يكتبونها للنساء اللاتي يعانين من الإجهاض المتكرر أو فقدان أطفالهن الرضع، وفيها كلها توضع أسماء الملائكة الثلاثة اللذين لاحقوها "سينوئي وسنسنوئي وسامينجيلوف"، لاعتقادهم أنها تخاف منهم.
وابتسم الراهب اليوناني وقد قرأ أفكاره، وقال:
-كل ما تعرفه عنها طريف بالفعل، يحوي بعض الحقائق الضئيلة لكنه ليس الحقيقة كلها.
لم يكن محمد شاهين قد باح بشيء من تلك المعلومات التي تذكرها عقله فور أن سأله الراهب عن ليليث، فقال بانزعاج:
-هل تقرأ أفكاري؟

-لا تدع هذا يزعجك كثيرا أيها البشري، فأنا آخر من تقلق بشأنه في هذا الوقت.

-وهل تزعم أن رومية هي ليليث؟

-لنقل أن ليليث هو أكثر الأسماء التصاقا بها وأكثر أسمائها الكثيرة شهرة، لأنه ببساطة .. الاسم الأول لها. إنها ليليث وهي عشتار وعشتروت وفينوس وأفروديت وإيزيس وسخمت، وغيرها من الأسماء. لقد كانت موجودة دوما في كل مراحل التاريخ البشري وفي كل مرة حملت معها اسما مختلفا مثلما كانت تحمل معها الرعب للبشر.

-وهل هي زوجة آدم الأولى إذن؟ من العسير أن أصدق شيئا كهذا، اعذرني، فهذا يتعارض مع ديني بشدة. فالقرآن لم يذكر أن الله قد خلق امرأة لآدم غير حواء.

-ومن قال أنها كانت زوجته يوما، كلا أيها البشري، هذا لم يحدث لأنها قد خلقت قبل آدم بزمن لا يحصى، ولأنها كذلك لم تكن بشرية يوما. لكنها كانت بالفعل تلك الحية التي أغوت آدم ليأكل من شجرة الخلد مع زوجته فعاقبهما الله بالنفي من الجنة، حدث هذا بعد أن ذهب إليها الشيطان ورجاها أن تساعده في الانتقام من آدم بعد أن تسبب في طرده السماء.

شعر محمد شاهين بالتوهة والتشوش مما يسمعه، كما كانت تلك الصحراء المخيفة والقمر الضخم القريب جدا من رأسيهما يوتره بشدة، فقال في إعياء:

-لست أفهم شيئا.

-لا ألومك، فقط اصمت وسأخبرك بكل شيء، فالوقت أمامنا ليس بطويل، إنها غير قادرة على العثور عليك الآن، وحتما تتجول في كل زمن ومكان لتعثر عليك، وقد يحدث في أي لحظة من الآن، فدعني أخبرك بما لدي قبل أن تظهر.

وظهرت من قلب الظلام البعيد الكثير من الأشكال المبهمة الغامضة، فحاول محمد شاهين تجاهلها وقال:

-تحدث ولن أقاطعك.
-حسنا، لنحكي منذ البداية، لقد كانت تلك الكيانات القديمة أول من عمر الأرض، وكآدم وحواء للبشر، كان هناك المخلوق الأول آزاثوث، وليليث، خُلِقا بقوى هائلة وقدرة على التشكل في أي شكل يريدانه، ثم جاءت الذرية الأولى، داجون، ويوج "Yog" ونيغوراث، وسوثوث، وليمورا، وشيب نغوراث، ملكت تلك الكائنات قدرات هائلة، واتجه كل واحد منها ليعيش ونسله في مكان مختلف، فهناك من سكن الجبال وهناك من عاش في قاع المحيطات، وهناك من صعد ليصنع عالمه في الأجرام السماوية، وهناك من عاش في الغابات. مضى وقت طويل قبل أن تملأ ذرية آزاثوث الأب وليليث الأرض، ولأنهم مخلوقات لا تعرف إلا الشر والقسوة، فقد راحوا يتقاتلون مع بعضهم البعض بوحشية لا تتخليها، أريقت الدماء وقُتل الكثير من المخلوقات الأخرى كالحيوانات العملاقة والطيور، بدت الحياة على الأرض وكأنها في سبيلها للفناء، هنا جاء غضب الرب، فأرسل ملائكته فقاتلت تلك الكائنات وقتلت أغلبهم ومن بقي منهم تم سجنه في سجون خفية، كي لا يصل إليه أحد بعد ذلك.
-هل تعني أن تلك الملائكة قضت تماما على الكيانات القديمة.
-فقط الذرية التي كانت أضعف من الآباء، لقد اختفى أزاثوب وأبناؤه جميعا، دون أن يعلم أحد أين مكانهم، فقط وبمساعدة بعلزبول أو الشيطان كما تدعون، والذي كان وقتها أحد المقاتلين من الجان في صفوف الملائكة، نجت ليليث، من مصير الباقيين، واستطاعت الاختباء لزمن طويل للغاية. حيث راح الشيطان يزورها من وقت لآخر وقد صار تابعا لها.
-إذن فهي الأخيرة الباقية من تلك الكائنات.
ابتسم الراهب في غموض.
-ألم تسأل نفسك، كيف أعرف كل هذا وكيف تواجدت في أزمنة أخرى وقد حاولت رومية مرارا القضاء علي ولم تقدر.

كان الجواب مذهلا، لكنه كان التفسير الوحيد لبقائه حيا، رغم كل ما مر به من محاولات للقتل عبر العصور، لذا قال محمد شاهين:

-أنت واحد منهم، أليس كذلك؟

-للأسف، أنا أحد البؤساء الباقين، لا أدري كيف نجوت، لكن ما أذكره هو أنني من نسل يوج، وأنني حين قامت المعركة الكبرى كنت صغيرا للغاية، ربما نجوت لأنني لم أشترك بها، وربما أخفاني أبي في مكان ما، صدقني لو أخبرتك أنني لا أعلم. لكنني نجوت.

-ولماذا لم تتبع ليليث، المفترض أنها أمك الأولى أو جدتك لو شئنا الدقة.

-كما يخلق الله الشر في النفوس يخلق الخير، وقد عشت طويلا للغاية لأدرك أن جنسنا لم يكن ليصلح للبقاء، إننا نسل من وحوش لم يكن ليعرف السلام، ولهذا قررت الانضمام للمعسكر الآخر، وهذا يعني أن أحارب ليليث نفسها.

-ولماذا تحاربها؟ لقد انتهى أمرها مع اختفاء باقي الكيانات القديمة.

-لكنها ظلت تحلم بالانتقام، ظلت تحلم باليوم الذي تعثر فيه على أزازوث وذريتها التي حبستهم الملائكة. لقد عصى الشيطان ربه فطرده من صفوف الملائكة، فكان أن تحالفا سويا للقضاء على البشر ومحاولة البحث عن سجن الكيانات القديمة.

-ولماذا لم تقض عليها.

وهل أقدر؟ أو يقدر أحد آخر، إنها أقوى مما تعتقد أيها البشري، جل ما أمكنني فعله هو محاولة حماية البشر من شرها طوال الوقت مستعينا بفنون السحر التي ورثتها عن أبي "يوج"، أول من مارس السحر وعرف أسراره، لقد أدركت هي منذ البداية وجودي وطالما حاولت القضاء علي، وفي كل مرة كنت أنجو لأنها تجهل كيف تفعلها، لقد قيدتني مرة فوق قمة جبل، وجعلت النسور تلتهم كبدي وأحشائي كل يوم، وفي اليوم التالي كان ينبت لي كبد وأحشاء أخرى، لتأتي النسور ثانية وتعاود الكرة معي.

بروميثيوس. هل كنت أنت صاحب هذا العقاب المرعب.
-كنت ذلك البائس لنحو مائة عام قبل أن أنجح في الفرار، عشت ككاهن مصري قاومها حين اتخذت اسم سخمت، وكنت جلجامش حين ظهرت باسم ليليث في بابل، كنت عبد الله الحظرد حين ظهرت في البصرة، وكنت الراهب اليوناني حين رأست محاكم التفتيش في أوروبا في القرون الوسطى. لقد عشت ألاحقها طوال الوقت.
-كل هذا دون أن تنجح في القضاء عليها أو تقضي عليك.
-إنها أقوى من أن أقتلها وهي رغم قواها لا تعرف الوسيلة الوحيدة اللازمة لقتلي،
-وهل تعرف أنت؟
-لم أكن أعلم في البداية، لكنني بعد قرون من التعلم والتنقيب في آثار الأجداد عرفت.
-وكيف صارت رومية وكيف تزوجت مصريا قبل قرن ونصف.
-لقد كانت إحدى النجاحات القليلة لي معها، ففي المواجهة الأخيرة لنا اتخذت اسم ماري تيودر،
هتف محمد شاهين في ذهول:
-ماري الدموية؟ أنت تمزح بلا شك.
ابتسم الراهب وقال:
-وهل تراني شخصا يعرف المزاح؟ لقد قتلت ملكة بريطانيا ماري الأولى، واتخذت شكلها لتتمكن من ممارسة وحشيتها بحرية، راحت تقتل الأعداء بيديها، وتشنق الحوامل بل وتجمع الأطفال والرضع وتذبحهم لتشرب دماءهم وتستحم بها، لهذا ليس غريبا، أن أطلقوا عليها ماري الدموية،
-لكن التاريخ يقول أنها ماتت.
-لقد حدث هذا قبل قرون كثيرة ولا أحد عاش ليروي الحقيقة. حينها تمكنت من الانتصار عليها للمرة الأولى في مواجهة مباشرة بفضل تعويذة قوية، حيث نجحت في حبسها خلف جدار المرآة، لتعيش في

بعد آخر وقد فقدت ذاكرتها وإن لم تفقد قواها، بالطبع ظهر بعض الحمقى من سحرة البشر ممن حاولوا الاتصال بها في ذلك العالم عن طريق التحدث إلى المرآة في الظلام والمناداة باسمها ثلاث مرات مع بعض الطقوس الأخرى لتظهر لهم وهي تحاول الخلاص من حبسها.
-إذن نشأت أسطورة ماري الدموية من هنا؟
-هذا صحيح، لكن يبدو أن أحدهم نجح في إعادتها من ذلك العالم خلف المرآة، لكن من حسن الحظ أنها لم تستعد وقتها ذاكرتها كلها. لقد راحت تتجول في البلدان وهي تمارس شرها دون أن تعلم من تكون، حدث كل هذا دون أن أعلم، لكنني عثرت عليها في النهاية في مصر وقد تزوجت ذلك القروي في فترة الحملة الفرنسية. ولأنها لم تكن في كامل قواها ولم تكن قد استعادت ذاكرتها بعد فقد نجحتُ في القيام بطقس الثبات لترقد كالجثث داخل القبر، حتى أخرجها عامل المشرحة قبل أعوام.
-كانت مواجهة مريعة.
-هذا طبيعي، لقد كنت أتوقع أن تفيق يوما ما، وكانت طقوس مواجهتها في هذا الكتاب فأوحيت للبروفسير ديمترى أن يمنحك إياه لتهرب به إلى مصر، ثم منحتك وقتها عبر صفحات الكتاب الكثير من أسرارنا وطقوسنا لتنجح في مقاومتها حينها.
-وأين كنت أنت حين عادت، ولماذا لم تواجها ككل مرة؟
-كانت لتتعرف علي وتستعيد ذاكرتها لو رأتني، كما أنني كنت قد صنعت عالمي داخل كتاب اللعنات وقد صرت جزءا منه لأحميه وأحمى أسراره الخطيرة من أن تقع في اليد الخطأ.
غمغم محمد شاهين محاولا الفهم:
-إذن فأنت من ألف كتاب اللعنات.
هز الراهب اليوناني رأسه بالنفي وقال:

-لا. إنه كتاب أبي "YOG" لقد أخبرتك أنه أول من عمل بالسحر، وقد أودع فيه كل معارفه وأسراره، وكان أهم سر وضعه قبل اختفاءه هو مكان اختفاء باقي إخوته، وأبيه.
- يا رب السموات، لكن هذا خطير، ماذا لو وقع في يدها مثلا؟ أنت قلت أنها لا زالت تبحث عن مكان اختفاء بني جنسها.
-إنها تعلم بشأن الكتاب بالفعل، لكنني نجحت في حجبه عنها طوال كل ذلك الزمن عبر الاستعانة بتعاويذ قوية، تعلمتها منه، حتى صار من المستحيل عليها العثور عليه.
-ولماذا لم تتخلص منه؟ ألم يكن هذا أكثر أمنا؟
-ومن قال أنني لم أفعل، لكن الكتاب يحوي من السحر ما يحفظه من التلف مهما حاولت القضاء عليه، ربما جعله يوج هكذا لأنه كان يرغب في تحرير إخوته وأبيه يوما ما. ولأنني فشلت في إتلافه، فقد قررت القيام بتضحية أخيرة، لقد جعلت نفسي جزءا من الكتاب، وعشت أسير صفحاته، كل هذا كي لا يبوح بأسراره لأحد.
-وماذا عن رومية، أو ليليث، ما الذي تتوقع أن تفعله الآن؟
-ستسعى للحصول على الكتاب بالطبع وخاصة وقد قرأت أفكارك حين كنت معها وعلمت أن الكتاب في حوزتك. لهذا كان علي التدخل كي لا تحصل عليه.
تذكر محمد شاهين الأحداث الغامضة في الفيلّا، فقال في بطء:
-أعتقد أنني قد فهمت الآن سر الأحداث المريبة التي حدثت في الفيلّا قبل قليل.
-كان علي أن أقوم بمنعها من دخول البيت والعثور على الكتاب. كنت أحمي الكتاب والفيلّا في الوقت نفسه. والآن ليس أمامي غير مفارقة الكتاب والعودة لعالمكم ثانية.
-وهل تستطيع مواجهتها ثانية؟
-حتى لو لم أستطع فعلي المحاولة.
-وكيف ستغادر الكتاب، ألم تقل أنك حبست نفسك فيه؟

-لا تقلقك تلك النقطة، فهناك "دو" ليساعدني.
-سؤال أخير، من "دو"؟
-إنه وعائي البشري يا دكتور.
أظلمت الدنيا بغتة في عيني محمد شاهين قبل أن يشعر بطرقات قوية على الباب، وحين انتبه إلى أنه قد عاد ثانية لحجرته هتف في إعياء:
-من هناك؟
-وداد يا دكتور.
نهض بتثاقل نحو الباب، ثم فتحه، كانت وداد هناك، والتي قالت:
-معذرة، لكن هناك شاب يرغب في التحدث إليك ويقول أن الأمر لا يحتمل الانتظار، لقد أتى هذا الصباح ورحل، كما سأل عنك ليلة أمس، والآن قد جاء للمرة الثالثة.
-وما هو الأمر الهام الذي يريده مني هذا الشاب؟
-إنه عند الباب، اسأله بنفسك.
توجه إلى الشاب الواقف بخجل خلف الباب وقد تكونت بركة ماء ووحل صغيرة أسفل حذائه وملابسه المبللة بالمطر، وفور أن رآه قال:
-معذرة لأي إزعاج قد أسببه؟ لكن الأمر لا يحتمل الانتظار؟
-من أنت أولا؟
-اسمي هو يوسف الشوني، أنا صحفي.
مد محمد شاهين يده مرحبا، وقال:
-مرحبا يا أستاذ يوسف، لكن أي أمر خطير جئت تخبرني به؟
-حياتك يا دكتور محمد، إنها في خطر!
كان قولا عجيبا فقال محمد شاهين في انزعاج:
-لست أفهم ما تعنيه.
هنا أخرج يوسف صورة فوتوغرافية وقدمها نحو محمد شاهين وهو يقول:
-انظر إلى هذه أولا.
وحين نظر محمد شاهين إلى الصورة اتسعت عيناه في ارتياع.

ظلت صورة "رانيا" وهي مشنوقة ماثلة في عقله طوال الوقت. هل تملك تلك الشيطانة القدرة على اختراق الزمن والمستقبل فقامت بتصوير هذا الحدث في زمن لم يأت بعد، أم تراها قد زيفتها بحيلة شيطانية لتخيفه؟ في كلتا الحالتين كان الأمر خطيرا ومخيفا. إنها تهدده بحياة من يحب، وليس بحياته وحده. لم يكن أمامه غير مواصلة المهمة اللعينة ومراقبتها كما أمرته وليدعو الله أن يخلصه بقدرته من شرورها.

وفي صباح اليوم التالي عاد لينتظرها أمام الفيلّا، سوف يواصل مهمته كالمعتاد، سوف يتحرك خلفها حين تخرج بسيارتها، وسوف يلتقط عشرات الصور لها ويراقبها عن كثب ليرى أين تذهب ومن تقابل. ليرسل بعدها الصور إلى العنوان البريدي الذي أخبره به كمال البهتيمي، لكنه لن يحاول التخفي هذه المرة، فهي تعلم بأمره بالفعل.

احتاط للأمر هذه المرة، فارتدى ملابس ثقيلة لتقيه البرد الشديد، وفوقها معطف من الألياف طويل مخصص للمطر، وداخل سيارته راح ينتظر، كانت السماء مظلمة مكفهرة رغم الصباح، ولا زال الطقس السيئ مستمرا، برق ورعد وسيول من المطر. شغل الراديو وحرك المؤشر حتى وصل إلى محطة البرنامج العام، كان قرآن الصباح قد انتهى وقد بدأت الفقرة الترفيهية الخفيفة التي تسبق الساعة السابعة، وظهر صوت المذيعة وهي تقول "هذا وقد حذرت هيئة الأرصاد الجوية من استمرار موجة الطقس السيئ التي ضربت البلاد لأيام ثلاثة قادمة، نظرا لتعرض البلاد لمنخفض جوي بارد قادم من أوروبا، وقد أهابت الهيئة بالمواطنين الحذر وتجنب القيادة أو الخروج في هذا الطقس إلا للضرورة القصوى، و...".

ولم يستمع للباقي، فقد فتح باب قصر كمال البهتيمي وظهرت سيارة رومية، توقفت للحظة خارج الباب ثم نظرت رومية له باسمة وأشارت بيدها له في تحية، قبل أن تطلق ضحكة ساخرة وتنطلق بسيارتها. أدار

محرك سيارته في عجالة، وانطلق على الفور للحاق بها، وهو يتساءل هل فعلت هذا لتسخر منه؟

لم تذهب للنادي هذه المرة، واتجهت لمسار آخر لا يعرفه، هبطت من سرعتها كثيرا، ربما لتمنحه فرصة تتبعها، وبعد نحو الساعة من القيادة في المطر، بلغت فيلّا أنيقة، العجيب أن باب الفيلّا المغلق فُتح لها على الفور، وكأن هناك من ينتظرها داخل الفيلّا، فلم تكن مضطرة للتوقف ولو للحظة واحدة أمامه، أسرع بالتقاط صورة لها وهي تدخل الفيلّا. وما أن دلفت السيارة إلى الداخل حتى عاد الباب ليغلق ثانية. تردد يوسف للحظة فيما عليه أن يفعله، ثم حسم أمره، فركن سيارته بجوار سور الفيلّا ثم هبط رغم المطر، ضم ياقتي معطفه وتحرك بسرعة نحو باب الفيلّا ثم قرأ الاسم المدون:

"فيلا الدكتور نعيم عبد الحفيظ. أستاذ ورئيس قسم التشريح بكلية الطب جامعة عين شمس".

التقط صورة للوحة الاسم وهو يتساءل، هل يكون هذا الرجل عشيقا سريا آخر، وما سر شغفها بالأطباء، بالأمس تقابل طبيبا نفسيا، والآن تدخل فيلّا طبيب شرعي. أمر عجيب. وقاه المعطف الجلدي كثيرا من مياه المطر، لكن الرياح كانت عنيفة، وكان من المستحيل أن يظل هكذا بمكانه لوقت أطول، هل كان عليه أن يحاول تسلق السور مثلا عسى أن يتمكن من رؤية الفيلّا من الداخل، لكن ماذا لو قبض عليه أحدهم كالغفير المكلف بحراستها مثلا، ما الذي سيخبرهم به حينها وخاصة لو اتهموه بمحاولة السرقة، وماذا لو كانت هناك كلاب تحرسها! كانت فكرة تسلق السور حمقاء، فعاد مسرعا إلى سيارته وأغلق زجاجها خلفه، وقد تسلل البرد إلى جسده رغم كل ما يرتديه من ملابس، وبداخل السيارة جلس ينتظر، لم يطل الانتظار، فبعد نحو الربع ساعة فقط فُتح الباب ثانية وخرجت بسيارتها الحمراء، وحين تتبعها عرف وجهتها، كانت تتجه لنادي الجزيرة هذه المرة، مارست في النادي رياضة الجري والتنس كما اعتادت رغم المطر، ثم ذهبت إلى الكافتيريا المغلقة حيث

كان الجو داخلها دافئا محببا، وجلست تطالع كتابا ما، وهي تحتسي القهوة، من بعيد بدت طبيعية تماما، وهي تتصرف كسيدات المجتمع الأرستقراطي، من المستحيل أن يصدق أحدهم، أن هذه المرأة قد تصدر عنها تلك الأعمال المريعة الشريرة، كان يشعر بالجوع فجلس غير بعيد عنها وطلب بعض شطائر الجبن مع الشاي، لاحظ أنها صارت تتجاهل وجوده الآن، وكأنها لا تعرفه أو تكترث به، ولنحو أربع ساعات ظلت في مكانها تطالع الكتاب الضخم الذي بيدها، وهو يراقبها في صبر. قرب الخامسة تحركت، لاحظ يوسف أنها مرت إلى جواره دون أن تنظر نحوه، فنهض وهو يتساءل، أي لعبة جديدة تمارسها تلك اللعينة؟

مضى الوقت ببطء ومازالت تطالع كتابها، وقرب الخامسة عصرا، غادرت المطعم، واستقلت سيارتها وتحركت نحو جاردن سيتي، ثم انعطفت إلى فندق جراند حياة، أسرع باللحاق بها كي لا تتوه عن بصره، وأمام باب الدخول غادرت السيارة وقد تركت مفتاحها لأحد رجال الأمن، ليضعها في أحد المواقف المخصصة للسيارات، كان من العسير بمثل تلك السيارة أن يفعل يوسف المثل، فتتبع رجل الأمن ليعرف الطريق نحو المواقف وهو لا يدري كيف سيعرف مكانها بعد ذلك في الفندق الضخم متعدد الطوابق، ماذا لو ذهبت لحجرة أحدهم في أحد الطوابق، كيف سيعرف أين هي؟

صف سيارته وعاد مسرعا حيث دخل بهو الفندق، لم تكن هناك، أطلق سبة في سره، لكن النجدة أتت في تلك اللحظة، رأى الدكتور محمد شاهين يدخل في تلك اللحظة، كان متأكدا أنه قادم للقائها. تتبعه فوجده يصعد نحو المطعم، اختار طاولة في أحد الأركان تتيح له مراقبتهما، لم تكن رومية هناك، لكن بعد خمس دقائق ظهرت كالحوريات متجهة نحو الدكتور محمد شاهين، كانت ترتدي ثوبا آخر غير الذي أتت به، خمن يوسف أن لها حجرة أو جناح خاص بها داخل الفندق، لم يكن الأمر غريبا، في النهاية هي سيدة أعمال ثرية وزوجها

أحد أثرى رجال الأعمال في مصر، ومن يدري ربما كان شريكا بحصة كبيرة في هذا الفندق.
تعلقت العيون في المكان بها وبالدكتور محمد شاهين الذي بدا هو الآخر، في أوج أناقته ووسامته، حتى طريقته في تدخين غليونه بدت أنيقة تشي بأرستقراطية متأصلة وغير مفتعلة. رجل وامرأة يليقان ببعضيهما البعض لولا بعض العوائق الصغيرة، فهناك في البداية احتمال لا بأس به أنها غير بشرية، كما أنها سيدة متزوجة، وقد كلفه زوجها بمراقبتها. تذكر في تلك اللحظة مهمته، فراح في حرص يلتقط عشرات الصور لهما.
رقصت مع الدكتور وقد بدا الرجل هائما في عشقها، وبعد ساعات خرجت برفقته وركبت سيارته ثم انطلقا. ذهبا إلى منطقة شعبية تعجب يوسف أن يذهبا لها، لو شاءا مكانا بعيدا عن العيون لذهبا إلى أحد الشقق في الأحياء الحديثة حيث الفضول غير موجود أو لاتجها إلى أحد الفنادق الفاخرة حيث لن يسألهما أحد عما يفعلانه، لكن أن يذهبا إلى منطقة شعبية مكتظة بالسكان وهما بهذا المظهر الثري وتلك السيارة الفخمة، فهذا مثير للفضول والريبة بلا شك، وافتضاح أمرهما أمر لا مفر منه.
دخلا عمارة قديمة واختفيا داخلها، نجح قبلها في التقاط المزيد من الصور التي تشي بوجود علاقة غرام لا شك فيها بين الاثنين ثم انتظر، كان الطقس الآن أكثر سوءا، وراحت الأمطار والرياح العاصفة يضربان السيارة في عنف. كان يشعر بالبرد، لكن الحماس كان متقداً في نفسه، لقد أثبت الآن أن تلك المرأة تخون زوجها، وها هو يمتلك الدليل على هذا، بالتأكيد كان هذا كافيا لينتهي من مهمته قبل موعدها، وكي يقبض باقي المال الضخم الذي رصده له كمال البهتيمي. لذا قرر أن يظل بمكانه حتى يغادرا المكان ليحصل على المزيد من الصور قبل أن يعود لداره.
لكن سيمفونية المطر والبرد والظلام، مارست معه لعبتها الأزلية، ودون أن يشعر بنفسه تسلل النعاس إلى عينيه فنام، استيقظ بغتة شاعرا

بمثانته تكاد أن تنفجر، تلفت حوله في حيرة قبل أن ينتبه إلى مكانه، إنه لا زال داخل سيارته، نظر حوله على الفور وهو يخشى أن يكونا قد غادرا المكان أثناء نومه، لكنه رأى سيارة الدكتور محمد شاهين في مكانها، فتنهد بارتياح، فكر في أن يغادر السيارة ليتبول في أي ركن لكنه ما فتح الباب حتى وجد نفسه في مواجهة ثلاثة كلاب سوداء، تقف أمام الباب في تحفز وقد كشرت عن أنيابها في شراسة، شعر أن تلك الكلاب ليست طبيعية، تلك كلاب لا تنتمي لعالمنا.

شاعرا بالرعب أغلق الباب بسرعة وهو يغمغم بصوت مسموع "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم" ثم شغل الراديو وحرك المؤشر بسرعة نحو إذاعة القرآن الكريم، ثم راح يراقب الكلاب التي ابتعدت عن السيارة قليلا وتوارت في الظلام، وإن ظلت عيونها تتوهج أمام عينيه في العتمة.

ولأنه لا حل آخر، فقد أخرج زجاجة فارغة وتبول داخلها ثم فتح زجاج نافذته قليلا وألقاها نحو البقعة المظلمة حيث توجد الكلاب، وهو يقول غاضبا:

-خذوها مني أيها الأوغاد.

أطلق أحد الكلاب زمجرة غاضبة ثم نبح في وجهه، ارتجف يوسف وأسرع بغلق الزجاج، وهو يبسمل ويحوقل، ثم حاول تجاهلها ورفع هاتفه المحمول، لينتبه إلى أن هناك نحو 10 اتصالات من كمال البهتيمي، لم يرد عليها. رمق الهاتف في حيرة وهو يغمغم:

-عشرة اتصالات ولم أشعر ولو برنين واحد، هل كنت نائما أم كنت في غيبوبة؟!

تأكد من أن صوت الرنين في الهاتف غير خافت، ثم اتجه إلى الواتس آب، كانت هناك المزيد من الرسائل من كمال، في البداية ملف مضغوط ثم رسالة صوتية، فكر للحظة هل يفتح الملف المضغوط أولا أم يستمع للرسالة، ثم حسم أمره وفتح الرسالة:

"أستاذ يوسف، ما هذه الصور التي أرسلتها لي، هل رأيتها قبل إرسالها، وهل تملك تفسيرا لها. لقد اتصلت بك كثيرا، لكنك لا ترد، فقط كنت

أرغب في الإجابة عن سؤال واحد، هل تسخر مني؟ أنتظر اتصالك فور
أن ترى تلك الرسالة".
ازدادت دقات قلبه وسرت رجفة خفيفة في جسده مما سمعه، ما الذي
أغضب كمال هكذا في تلك الصور، حتى يتصل به بمثل هذا الجنون أو
يرسل له تلك الرسالة الغاضبة. وبتردد وهو يخشى ما قد يراه في هذا
الملف المضغوط ضغط عليه وفتحه. كانت مجموعة من الصور،
وحين بدأ في مطالعتها أدرك لماذا كان الرجل غاضبا. في الصورة الأولى
كانت رومية تمارس لعبة التنس معه وهو يبسم في وجهها كعاشق
معتوه.
أما الثانية فكان يهرول إلى جوارها بملابس رياضية وهي تعدو إلى جواره
وكلاهما ينظر للآخر في هيام، كانا في الصورة الثالثة سويا فوق المدرج
الحجري وقد التصقت به وهي تستند برأسها فوق صدره. راح يقلب
باقي الصور في جنون، ما الذي يراه؟ إنه لم يلتقط تلك الصور ببساطة
لأنها لم تحدث في الحقيقة. من أين أتت إذن، الصور التالية كانت
تجمعهما في المتحف المصري؟ كان هو إلى جوارها بدلا من الدكتور
محمد شاهين. الرجل محق إذن حين سأله، هل تسخر مني؟
عاد ليشعر بالرعب وهو يتساءل كيف فعلتها، كيف غيرت كل الصور
هكذا، ولماذا تفعل، وبيد مرتعشة اتصل بكمال، وبعد عشر رنات، أتاه
صوت أنثوي مريح:
-مرحبا
شاعرا بالارتباك، قال:
-هل يمكنني التحدث إلى السيد كمال؟
-إنه نائم، هل يمكنك التحدث إليه في الصباح؟
قالتها في هدوء، نظر إلى ساعته، كانت الساعة تقترب من الرابعة
صباحا، كان عليه أن يتوقع أنه نائم الآن ومن غير اللياقة التحدث إليه
في وقت كهذا، لذا قال معتذرا:
-أعتذر، لقد اتصلت في وقت غير مناسب.

-لا بأس.
لكنه وقبل أن تغلق الاتصال أسرع يقول:
-معذرة، لكن هل يمكنني معرفة إلى من أتحدث.
جاءته الإجابة على هيئة ضحكة ساخرة يعرفها جيدا، قبل أن تقول:
-زوجته بالطبع، ومن غيرها قد ترد على هاتفه في ساعة كهذه، أنا زوجته .. رومية.
ألقى الهاتف من يده كالممسوس، إذن فقد غادرت المكان وهو نائم، والآن هي من تجيبه بدلا من زوجها في صوت لا يشي أبدا بأنها كانت نائمة، كان متأكدا أنها كعادتها تسخر منه.
الآن لا جدوى من البقاء في هذا الظلام والبرد، كما أنه كان يرغب في مطالعة أصل الصور التي أرسلها بالأمس إلى كمال على شاشة اللاب توب، أشعل محرك السيارة واستعد للتحرك، هنا برزت الكلاب الثلاثة وتوقفت أمام السيارة في تحفز وزمجرت وكأنما ترغب في منعه من التحرك، ضغط على دواسة البنزين وهو يقول في تحذير:
-ابتعدوا عن طريقي وإلا دهستكم، أقسم أنني لن أتردد".
ولما لم تبتعد، فقد اندفع نحوها في إصرار، كان متأكدا أنها ليست كلاب شوارع ولا حتى كلاب مدربة، بل إنها كلاب لا تنتمي حتما لعالمنا الأرضي، ولهذا انطلق، لم يشعر باصطدام السيارة بأي شيء، وحين تجاوزها ضغط على مكابح السيارة وهو ينظر في المرأة الجانبية ليرى ما حدث لها، كانت الكلاب في مكانها حيث اصطدمت بها السيارة، دون أن يبدو عليها أي سوء، وهي ترمقه في شر، ثم اندفعت نحوه.
وبفزع عاد ليجري بالسيارة هاربا. قرب الفجر، بلغ منزله، كان مدخل البيت غارقا في مياه المطر، لم يكن هناك مفر من أن يخوض في بركة المياه تلك والوحل كي يصعد إلى شقته، ثم أطلق سبة بذيئة حين رأى كيف بلغ الماء البارد للغاية خصره تقريبا، وكأنه يسبح في بركة. بدل ملابسه فور أن دخل من باب الشقة، ودون إبطاء شغل اللاب توب، راح في نفاد صبر ينتظر النظام الذي يستعد للعمل، ثم فتح المجلد

الذي يحوي الصور التي طبعها، كانت الصور الأصلية نفسها، التي التقطها بالأمس، إذن كيف أتت تلك الصور التي أرسلها له كمال.
كان يشعر بالبرد جدا في تلك اللحظة، هل كان هذا بسبب الشقة الباردة بالفعل، أم هو الخوف، دخل إلى حجرة نومه وجلب لحافا ثقيلا، أحاط به جسده ثم شغل غلاية المياه ليعد لنفسه كوبا من الشاي. ومع الرشفة الساخنة الأولى شعر بدفء وانتعاش لا حد له، فعاد إلى اللاب توب ثانية، وصله بالكاميرا وراح ينقل إليه صور اليوم، ثم راح يتصفح الصور، صورها وهي خارجة من الفيلّا، ثم صورها وهي تدلف إلى تلك الفيلّا الغريبة للدكتور نعيم، والتي غابت فيها لنحو الربع ساعة، ثم صورة رجل عجوز يجلس أمام مدفأته، وبجواره رومية و ..
مهلا.
من أين جاءت تلك الصورة المخيفة، ومن هذا الرجل؟ وبإصبع مرتجف انتقل للصور التالية، كانت صور مفزعة تصور جسد العجوز وهو يندفع نحو المدفأة الحجرية، ثم جسده وقد دخل كله في جوفها واشتعلت النار في جسده وعلامات ألم هائل وصراخ لا ينقطع مطبوعة على وجهه، ثم صورة أخرى وقد عاد جالسا على مقعده وقد تفحم جسده بينما وقفت رومية إلى جواره وقد أحاطت بكفها كتفه وهي تنظر إلى الكاميرا مبتسمة وكأنما تلتقط لهما الكاميرا صورة تذكارية.
احتشد الحمض في حلقه وغثيان رهيب يتكوم في أحشائه، نهض مسرعا إلى الحمام ثم راح يفرغ ما في أحشائه في عنف. تكوم بعدها على أرضية الحمام وجسده ينتفض في رعب وهو يردد:
-تلك اللعينة، لقد أحرقته حيا، يا لها من شيطانة.
ولنحو الدقائق العشر، ظل في مكانه ينتحب. انتظر حتى هدأ ثم نهض في تثاقل وغسل فمه ثم عاد لـ "اللاب توب"، كانت الصور التالية هي نفسها التي التقطها لها، صورها وهي خارجة من الفيلّا، صورها في النادي، ثم صورها في المطعم برفقة الدكتور محمد شاهين، ثم صورها وهي تدلف معه إلى تلك العمارة في الحي الشعبي، ومرة ثانية ظهرت

المزيد من الصور التي لم يلتقطها، صورتها وهي مع الدكتور محمد شاهين في شقة أنيقة وهما يتبادلان القبل، صورتها وهي تداعبه وهي ترتدي ثوب نوم قصير، ثم صورتهما معا وهما نائمين في فراش واحد وقد تدثرا بغطاء ثقيل، ثم كانت الصورة الأخيرة، صورة الدكتور محمد شاهين وقد تعلق جسده في خطاف حديدي مغروز في رقبته، بينما سقطت مقلتاه خارج عينيه داميتين، وقد خرجت أحشاؤه من بطنه وتدلت نحو الأرض، بينما تقف رومية إلى جواره وهي تبتسم للكاميرا في سعادة وبراءة .

"هل قتلته هو الآخر؟".

تساءل في خوف. ثم لاحظ شيئا غريبا، كانت هناك نتيجة حائط واضحة في الخلفية، وحين كبر الصورة قرأ التاريخ، كان التاريخ بعد يومين من الآن، أي أن هذه الصورة قادمة من المستقبل وليس من الماضي، هل يعني هذا أنها لم تقتله بعد؟

ثم ارتفع الصوت المميز لاتصال قادم عبر تطبيق المحادثة في الفيس بوك. كانت مكالمة فيديو، وكان المتصل هو كمال البهتيمي، كان الأمر عجيبا، فالمفترض أن كمال البهتيمي لا يعرف حسابه على الفيس بوك، كما أنه كان يفضل المكالمات الصوتية.

فضغط على علامة الهاتف فوق شاشته، فظهرت شاشة سوداء وصوت أنثوي يقول:

-صباح الخير يا يوسف، لقد أردت أن أخبرك أن كمال لن يستطيع بعد الآن أن يتحدث إليك،

وببطء زال اللون الأسود لتتضح الصورة، كان كمال البهتيمي معلقا إلى السقف في أنشوطة ميتا، وبجواره وقفت رومية مبتسمة في سخرية ثم دفعت الجثة لتتأرجح، وهي تقول:

-ما رأيك في مفاجأتي هذه.

أراد أن يغلق الاتصال وقلبه يخفق في جنون، لكن الصورة كانت تتسع أمامه على شاشة هاتفه أكثر وأكثر، كان هناك شخص ثالث في الحجرة

يقف خلف الجثة المتأرجحة وبيده كاميرا صغيرة يلتقط بها المزيد من الصور، وحين اقتربت الكاميرا من وجهه أكثر، عرف من يكون.
كان هو نفسه من يلتقط تلك الصور.
كان يوسف.

(36)

انتهى يوسف من قص حكايته، ثم صمت في إعياء وإنهاك كبيرين، وبينما راح الدكتور محمد شاهين ينظر إلى الصورة التي تحمل تفاصيل موته ورومية ترمقه بتشف، غمغم الدكتور مصطفى في إشفاق:
-كم أنت تعس أيها الشاب، تلقي بنفسك في التهلكة من أجل حلم زائف بالثراء.
لم يعقب يوسف، في تلك اللحظة كان أكثر ما يتمناه أن يحظى بالقليل من النوم، ثم انتبه الدكتور محمد شاهين لضوء أحمر توهج لحظة عبر زجاج باب مكتبه، ثم اختفى. نظر إلى رفيقيه ليتأكد أنهما لم يلحظا ما حدث، ثم استأذنهما واتجه لحجرة مكتبه في ارتياب. هناك كان الراهب اليوناني واقفا خلف المكتب عاريا تماما من ثيابه، وهو يرمقه في هدوء. فقال محمد شاهين في دهشة:
-أنت؟
-أخبرتك أيها البشري، أن العودة أمر لا مفر منه.
نظر محمد شاهين في جنبات الحجرة فلم ير قطه "دو"، فعاد ليقول:
-وأين دو؟
-أراك نسيت ما أخبرتك به من قبل، دو وأنا شيء واحد. لكن قل لي أيها الصديق البشري، هل تدع ضيفك عارٍ هكذا، في مثل هذا الصباح الشتوي البارد؟
انتبه محمد شاهين إلى أن الراهب يقف بلا ملابس، فقال بسرعة:

-أوه، أنا آسف، لحظة واحدة لأحضر بعض ملابسي، من حسن الحظ أنك في مثل طولي، وإن كان جسدك أنحف قليلا، أعتقد أن لدي من الملابس ما قد يناسبك.

قالها، وأغلق الباب، واتجه لحجرته، وبعد خمس دقائق عاد بحلة أنيقة معها بعض الملابس الداخلية الجديدة وبول أوفر من الصوف، وقال له وهو يعطيها له:

-يمكنك ارتداء هذه.

ثم أغلق باب حجرة المكتب، وعاد لضيوفه، لاحظ أن الأخشاب داخل المدفأة بحاجة للمزيد، فذهب إلى هناك ووضع المزيد منها، ثم سمع رنين جرس الباب، في العادة كان لينتظر أن تفتح وداد الباب، لكن بعد ما حدث لها بالأمس من فزع، رغب في ألا يثقل عليها، خاصة وأنه كان يتوقع من القادم، إنه فؤاد بلا شك، تحرك نحو الباب، وفتحه، لكن فؤاد هذه المرة لم يأت بمفرده، كان بصحبته رجل عجوز، جالس على مقعد متحرك. نظر محمد شاهين للرجل محاولا تعرفه قبل أن تسعفه خلايا ذاكرته بمن يكون، فتهلل وجهه قائلا:

-المستشار وحيد بركات، أليس كذلك؟

-سابقا يا دكتور محمد، أنا الآن مجرد رجل متقاعد خارج الخدمة.

لكن فؤاد قال وهو يدفع المقعد المبلل للداخل:

-دعنا ندخل أولا يا دكتور ثم أكملا الترحيب فيما بعد، إنني أكاد أن أتجمد.

أفسح لهما محمد شاهين المكان ليدخلا، وقال موجها حديثه للمستشار وحيد بعد أن أغلق باب الفيلّا:

-مرحبا بك في بيتي المتواضع يا سيادة المستشار.

حرك المستشار وحيد رأسه يمينا ويسارا، ثم قال باسما:

-صدقني لو أخبرتك أنني لا أجد أي تواضع في هذا المكان يا دكتور، فكما أرى، أنت لم تبخل على فيلتك بأي مجهود أو مال لتبدو في غاية الترف والبذخ كقصور الملوك والأمراء.

ضحك محمد شاهين في رضا وقال:
-وما فائدة النقود إن لم تساعدك على الاستمتاع بالحياة يا صديقي، إنها حياة واحدة لنا فوق الأرض، فلماذا لا نحياها بالطريقة التي تسعدنا ما دام هذا ممكنا.
-صدقت. لكن المهم أن يكون الأمر ممكنا.
ثم التفت محمد شاهين إلى فؤاد، الذي قال في توتر:
-رأيت أن أتحرك بسرعة هذه المرة وأنا أتمنى لو نسبقها بخطوة، فاتجهت فور أن حدثتك لمنزل المستشار بركات دون أن أتصل به، بعد أن أخبرني أحد زملائي بمكانه، ثم رأيت آن آتي به إلى فيلتك، كي يجتمع الكل في مكان واحد.
-وهل أخبرته بما حدث؟
أجابه المستشار وحيد هذه المرة:
-لقد أخبرني الرائد فؤاد في السيارة بكل شيء. ليرحم الله الجميع. يبدو أن وقت الحساب قد آن، وإن تأخر كثيرا.
تحرك الثلاثة للداخل حيث جلس الدكتور مصطفى ويوسف، رحب الدكتور مصطفى بالمستشار وحيد في حرارة، بينما قال فؤاد في ضيق بعد أن علم هوية يوسف:
-ولماذا الصحافة يا دكتور محمد، لو انتشرت القصة بين العامة فستثير الذعر، وتفتح الباب للإشاعات.
ابتسم يوسف في إنهاك، وقال:
-ومن قال أنني هنا كصحفي، أنا هنا لتحذير الدكتور من خطر يهدد حياته.
وأكمل محمد شاهين قائلا:
-إنه متورط في الأمر مثلنا تماما، يوسف كان يراقب صديقتنا رومية.
كانت مفاجأة جديدة، فغمغم فؤاد في ارتباك:
-وهل يمكن مراقبة شيطانة كهذه؟
-يبدو أنه قد فعل.

وفي إيجاز قص محمد شاهين قصة يوسف، ثم طلب من يوسف أن يريه الصور، تطلع فؤاد إلى الصور في ارتباك، قبل أن يقول:
-إذن فنحن نعرف مكانها.
-وهذا من حسن طالعنا.
جاءت الكلمة من بعيد، من أمام حجرة المكتب حيث خرج الراهب اليوناني، كان يرتدي البذلة السوداء التي منحه إياها محمد شاهين، فبدت ملائمة له تماما، حتى أن محمد شاهين شعر أن جسد الرجل زاد بضعة كيلوجرامات ليملأ البذلة، كان شعره طويلا ينساب خلف رأسه، ولحيته كثة منتظمة، وكانت عيناه حالكتا الظلام، تبث الرهبة في نفس كل من يراه. رمقه الكل في ذهول، وتقدم هو منهم بهدوء، وغمغم الدكتور مصطفى:
-من هذا الرجل يا دكتور محمد، إنه يخيفني.
بلغه الراهب اليوناني في تلك اللحظة وهو يقول:
-ولماذا تخافني يا دكتور مصطفى، وأنا صديق.
فغر الدكتور مصطفى فاه وهو يقول:
-هل تعرفني يا سيدي؟
-وأعرف الجميع، الرائد فؤاد والمستشار وحيد وأخيرا ذلك الصحفي البائس يوسف.
تبادل فؤاد النظر مع الدكتور محمد فقال الأخير:
-لا داعي للقلق، إنه صديق كما قال لك.
-صديق لا نعرف اسمه؟
قال فؤاد ذلك بشك.
-يمكنك أن تدعوني بـ "أرتيماتسوس كالاميتاسيس" لو كانت الأسماء تهم.
قال المستشار وحيد في هدوء وكأنه يسبر أغواره:
-اسم غريب ومظهر أغرب، وكأنك يا سيدي قادم من عصر آخر رغم حلتك العصرية التي ترتديها.

-من يدري أيها الصديق، ربما تكون محقا، لكن في البداية دعوني أقم بأمر مهم.
وأمام عيونهم المذهولة راح يتحرك حولهم وهو يرسم بسبابته رموزا غريبة في الهواء، العجيب أن تلك الرموز كانت تظهر في الهواء كأشكال من دخان، وتظل معلقة في الهواء دون أن تتبدد. وهمس يوسف وقد ذهب النوم من عينيه في تلك اللحظة:
-ما الذي يفعله هذا الرجل بالضبط؟
-تعاويذ حماية، إنه يؤمن جلستنا.
رمقوه في وجوم حتى انتهى ثم عاد إليهم وجلس على أقرب مقعد، وقال:
-من المؤسف أن أخبركم أن جميكم في خطر كبير، وحياتكم مهددة بشر لا قبل لأحد به.
غمغم فؤاد في خشونة:
-ليس هذا بالخبر الجديد يا سيدي، لكننا الآن نعرف مكانها، وسأستعين بقوة كبيرة من الشرطة لمحاصرتها والقضاء عليها لو لزم الأمر.
-وكأنك تبحث عن مذبحة أيها الشرطي. كلا، ليست تلك الطريقة المثلى لمواجهتها. أسلحتكم لن تؤثر فيها للحظة، وستقضي على كل رجالك بلا عناء.
-هل يعني هذا أن نعلن الاستسلام، وأن ننتظر موتنا كدجاج الحظيرة دون مقاومة.
-ومن ذكر شيئا عن الاستسلام، لم تتعجل الاستنتاجات. سوف نواجها، لكن بطريقتي هذه المرة.
ثم نظر الراهب إلى يوسف، قائلا:
-من حسن الطالع، أن أحدنا يعرف أين تعيش، فالطريقة المثلى لمواجهتها هو مهاجمتها وهي في مسكنها أو وكرها، هناك لن يمكنها استخدام سحرها للتخفي أو الهرب، هذه هي أكبر نقاط ضعفها.
ثم التفت نحو محمد شاهين، وأردف:

-لكن علينا قبل كل شيء أن نقضي على نقطة ضعف خطيرة هنا، هل يمكننا أن نعود سويا لحجرة مكتبك لبعض الوقت؟
لم يفهم محمد شاهين ما يقصده، لكنه نهض وقال:
-كما تشاء.
في حجرة المكتب قال الراهب:
-اخلع قميصك.
-ماذا؟
-ثق بي وافعل ما آمرك به.
-ليس قبل أن أفهم.
-أنت نقطة ضعفنا الآن، لقد أصابك سحرها، ودون أن تدري صار جسدك تابعا لها، يمكنها أن ترى بعينيك، وأن تسمع بأذنيك، بل ويمكنها أن تأمر جسدك نفسه بالقتال من أجلها، ليفعل رغما عنك. ولهذا فأول شيء علينا القيام به قبل أن نذهب لمواجهتها، هو أن نزيل سحرها عنك.
شعر محمد شاهين برغبة جامحة في أن يهرب من أمامه في تلك اللحظة، وبدت على وجهه كراهية مفاجئة للراهب اليوناني، فتراجع خطوة للخلف وهو يقول:
-كلا، لن تلمسني.
لكن الراهب اليوناني قبض على ذراعه فجأة، وهو يقول في حزم:
-لقد أسأت فهمي أيها البشري، لست هنا لأنتظر موافقتك على ما سوف أفعله، سوف أفعل هذا رغما عنك لو احتاج الأمر.
حاول محمد شاهين التملص دون جدوى، كانت قبضة الراهب اليوناني قوية كالقيود الحديدية، وصرخ في ألم:
-دعني أيها اللعين، دع ذراعي.
-لن تفلح تلك الألاعيب معي يا صديقي، لست أنت من يقاوم أيها البشري، إنه سحرها الآن من يقاوم كي لا أزيله.
ثم أحاط بكفيه جانبي رأس محمد شاهين، وضغط عليهما بقوة وعيناه

تتسعان في حزم وتمتم:
-قاوم سحرها يا دكتور، حاول أن تساعدني.
راح جسد محمد شاهين ينتفض في عنف وألم، بينما راحت شفتا الراهب اليوناني تتمتان بكلمات غامضة، ويداه تضغطان على رأس الدكتور محمد في قوة، ثم راح صوت الراهب يرتفع قليلا، مع ازدياد مقاومته ومعاناته، دام الأمر بضع دقائق ثم تصاعد من جسد الدكتور محمد بغتة سحابة خفيفة من ضباب وردي، قبل أن تهمد مقاومته مرة واحدة، وقد بدا الإرهاق شديدا على وجهه الغارق في العرق رغم البرد. لكن الراهب اليوناني لم يدعه لينال قسطا من الراحة وهو يقول:
-والآن اخلع قميصك.
طاوعه محمد شاهين هذه المرة بلا مقاومة وخلع قميصه، وهو يقول:
-هل تعتقد أننا سننجح في القضاء عليها هذه المرة؟
وفي اقتضاب أجاب الراهب اليوناني وهو يقترب من صدره العاري:
-لا. لكننا سنحاول.
ثم رفع سبابته عاليا فاستطال ظفره كالقطط، وهو يردف:
-سيكون الألم عنيفا، حاول ألا تصرخ.
ثم غرس ظفره الحاد في صدره، كان الألم أقوى مما تخيله محمد شاهين، ولهذا صرخ. لكن الراهب استمر في رسم طلسمة على جلد صدره دون أن يعبأ بألمه، وحين انتهى، قال في رضا:
-الآن صرت آمنا تماما من سحرها.
-هل كان هذا ملزما؟
-سحرها قوي للغاية أيها الصديق ولا يبطله إلا الألم والدم.

(37)

دنت عقارب الساعة من الثانية والنصف صباحا، ورغم السماء المظلمة المطيرة فقد أدرك الراهب اليوناني، وهو ينظر عبر النافذة المبللة بخيوط المطر، أن الوقت قد حان، فقال في حسم:

-إنها ساعة الذئب، لنتحرك.
كان نصف الموجودين قد غفوا في مقاعدهم، وقد تدثروا بأغطية وثيرة، مستمتعين بالدفء القادم من المدفأة المشتعلة، فقط الدكتور محمد شاهين والرائد فؤاد والراهب الروماني ظلوا مستيقظين، وكل منهم هائم في عالمه الخاص، دخن فؤاد أكثر من خمسين سيجارة منذ منتصف الليل، ولم يفارق الغليون فم الدكتور محمد شاهين، بينما قبع الراهب اليوناني أمام النافذة في ثبات وجمود وهو يرمق الظلام بلا ملل.
تحرك فؤاد إثر حديث الراهب الروماني وقال:
-وما ساعة الذئب هذه؟
أجابه محمد شاهين وهو يستعد ليوقظ الباقين:
-إنها ذلك الوقت من الليل الذي يسبق قدوم الفجر بنحو الساعتين، في العربية هو وقت السَحَر، وهو أكثر ساعات الليل ظلمة وسكونا، إنه الوقت الذي تضع فيه الحوامل أجنتها، ويصاب فيه المرضى بالنوبات القلبية. هو الوقت الذي تنشط فيه الكوابيس وتنتقي فيه ضحاياها، وهو الوقت الذي يكون فيه المصابون بالاكتئاب في أوهى حالاتهم النفسية فينتحرون، إنها الساعة اللعينة التي تستيقظ فيها أوهام الخائفين وتثور فيه آلام المرضى والمعذبين.
ومن خلفهما أكمل الراهب اليوناني الحديث:
-وهي الساعة التي يستيقظ فيها السحرة والمشعوذون والشياطين، وهو الوقت نفسه الذي تكون فيه ليليث في أوج قوتها ونشاطها.
وفي استنكار هتف فؤاد:
-وهل تذهب بنا لمكانها لنقاتلها وهي في أوج قوتها كما تقول؟
-بل هذا هو الوقت المناسب للدخول إلى مسكنها أو وكرها لنستعد لقتالها، فهي لن تكون في منزلها أبدا في تلك الساعة من الليل، إنها في مكان آخر تفترس فيه الآن بعض الضحايا أو تقتات من دمائهم.
أيقظ الدكتور محمد شاهين الباقين، فنهضوا بتثاقل وتذمر، لكنهم استجابوا له في النهاية، كانت هناك بعض الأغراض طلبها الراهب

اليوناني، ونجح الدكتور محمد شاهين في تجهيزها قبل حلول الليل
تعاون يوسف وفؤاد على حملها، بينما دفع الدكتور محمد شاهين
مقعد المستشار وحيد المتحرك، وتقدم الباقون للخارج. مرة أخرى
عادوا للعراء والبرد القارص وسيول الأمطار التي لا تنقطع. ارتجفوا
بشدة، وقد فارقوا الدفء، ثم استقل الدكتور محمد شاهين سيارته
برفقة الراهب اليوناني والمستشار وحيد والدكتور مصطفى، بينما
استقل الرائد فؤاد سيارته وقد اصطحب يوسف معه ليؤنسه.
وفي السيارة الأولى شغل محمد شاهين مدفأة السيارة ومعها انسابت
موسيقى هادئة من سماعات السيارة، أما في السيارة الثانية فقد شغل
فؤاد المذياع، كان هناك مذيع ومذيعة تمتاز بصوت حاد وهي تصرخ:
-"لا أصدق أنني أحيا يا أسامة لأرى مثل هذا الطقس البارد في مصر،
وكأن مصر انتقلت إلى القطب الشمالي أو سيبيريا، لقد عشت لبعض
الوقت في إنجلترا، وصدقني لو أخبرتك أن الطقس هنا الآن لا يختلف
أبدا عن الطقس الذي شاهدته هناك".
بينما أجابها زميلها الذي يدعى "أسامه" في لزوجة:
-هذا صحيح يا "سامية"، يا للهول، ما هذا البرد الرهيب، لقد كدت
أتجمد وأنا قادم إلى الأستوديو لتقديم البرنامج، انظري إلى أناملي، لا
زالت زرقاء من البرد. أدعوا الله أن يكون المستمعين الأعزاء أكثر حظا
منا، وألا تضطرهم الظروف للخروج في مثل هذا الجو الشنيع".
وعادت سامية لتكمل بصوتها الحاد:
-"من الجنون حقا أن يخرج المرء في مساء كهذا".
وتبادل يوسف النظر مع فؤاد الذي يجاهد لرؤية الطريق المظلم عبر
الزجاج الذي تجاهد فيه المساحات لإزالة ماء المطر بعناء شديد،
وقال:
-بالفعل، الخروج في وقت كهذا يحتاج إلى رجال أصابهم الجنون.
-وخاصة لو كان هدفهم مواجهة شيطانة، لن تتوانى عن تمزيقهم لو
واجهتهم.

وارتجف يوسف من البرد وهول الفكرة، قبل أن يطرح السؤال المرعب الذي يلح على عقله طوال الوقت:
-هل سننجو؟
لكن فؤاد لم يجبه. فقط هدرت السماء في غضب رهيب في نفس اللحظة، وكأن آلاف المطارق تضرب صفحتها، وازداد المطر كثافة والعاصفة عنفا، بدا وكأن الكون نفسه من حول السيارتين غير راض عن تلك المغامرة التي يقوم بها هؤلاء البائسون، وأنه يشيعهم إلى مثواهم الأخير.
الشوارع كانت خاوية غارقة في أغلبها، والظلام في كل ركن فيها وقد أطفئت أغلب مصابيح الشوارع بفعل التلف أو انقطاع الكهرباء. وبعد نحو خمس وعشرين دقيقة كانوا أمام فيلا كمال البهتيمي. كان باب السور مفتوحا على مصراعيه، في منظر غريب. توقف محمد شاهين أمام الباب المفتوح وقد قبعت الفيلّا أمامه في ظلام دامس، وغمغم:
-هذا الباب المفتوح لا يريحني، هل يكون هناك فخ لنا؟
كانت عينا الراهب اليوناني تلمع في تلك اللحظة في ظلام السيارة قبل أن يجيب:
-إنها ليست هنا، لو كانت موجودة لشعرت بها، لكن الموت حاضر هنا بقوة.
تحركت السيارتان للداخل، وأمام باب الفيلّا الكبيرة كالقصر وقفوا، تقدم فؤاد نحو باب الفيلّا، وقد شهر مسدسه، بينما حمل في اليد الأخرى حقيبته، كان باب الفيلّا مفتوحا هو الآخر، فغمغم في توتر:
-ترى ما الذي تخبئه خلفك من شر؟
ثم دفعه برفق ودلف المكان المظلم بحذر، كانت الفيلّا باردة هي الأخرى، وفي الهواء شم رائحة دماء كثيفة أصابته بالغثيان، ظهر ضوء هاتف من خلفه بدد بعض الظلام أمامه، فاتجه فؤاد إلى الحائط وراح يتحسس الجدار بأنامله بحثا عن مفاتيح الإضاءة حتى عثر عليها فضغط عليها، ودفعة واحدة غرقت الفيلّا بأكملها في الضوء الباهر،

الذي أعمى أبصار الجميع للحظة قبل أن تعتاد عيونهم عليه. وأمام عيني الجميع شاهدوا المذبحة الرهيبة، وهتف الدكتور مصطفى في جزع:

-يا للبؤساء. أي شيطان رجيم يفعل هذا!

كانت ردهة الفيلا بأكملها مليئة بالجثث، وكلها غارقة في بحيرة من الدماء. بعض الجثث كان مذبوحا، وبعضها مبقور البطن والصدر، والباقي كان ممزق الأوصال. أحصى فؤاد الرؤوس، كانت نحو سبع وعشرين جثمانا، ومن ملابسهم أدرك من يكونون، كانوا كل العاملين في الفيلّا، الخدم وعمال الحديقة والحراس الشخصيين لـ "كمال البهتيمي"، وربما بعض أتباعه أو أصدقائه، لم يحتمل يوسف المنظر، فانحنى في أحد الأركان وراح يفرغ ما في جوفه في عنف، ثم نهض قائلا في صوت أقرب للنحيب:

-دعونا نغادر هذا المكان اللعين، لا أريد اللحاق بهؤلاء المساكين.

أجابه الراهب اليوناني في حزم:

-ليس قبل أن نتم ما بدأناه، لو فشلنا الليلة فسنلحق بمصير هؤلاء البائسين، لذا ليس أمامنا غير المضي قدما.

ثم رفع رأسه لأعلى وقال:

-مازال هناك قتيل أخير.

اندفع فؤاد برفقة محمد شاهين للأعلى عبر الدرج الداخلي، كان هناك الكثير من الغرف، راحا يفتشونها بسرعة قبل أن يبلغا الغرفة الكبرى الأخيرة. وهناك كان كمال البهتيمي عاريا تماما من ملابسه معلق من رقبته في السقف بأنشوطة مصنوعة من رباط عنق أزرق، وقد اكتسب جلده لونا أبيض شاحبا. تأمله محمد شاهين وهو يردد:

-تماما كما في الصورة التي في حوزة يوسف، يبدو أنها كانت تخبره بما قامت به.

-ولماذا تفعل هذا، لماذا تقتل الجميع وزوجها معهم.

ربما أرادت أن تطوي تلك الصفحة من حياتها بالتخلص من كل من يعرفها، لتبدأ في مكان آخر، لتنتحل شخصية أخرى من جديد، وربما كشف كمال البهتيمي حقيقتها وواجهها بالأمر فلم يكن أمامها غير التخلص منه.

اقترب فؤاد من الجثة المعلقة، والتي جحظت عيناها في شدة بينما تدلى لسانها من فمها وقد تمزق أغلبه بفعل أسنان الضحية غالبا، وقال:

-ألا تشعر كطبيب أن تلك الجثة غريبة، أتحدث عن لونها، وكأن بشرته مغطاة بالدقيق، ولا أثر لتجمع دموي في الأطراف، إنها ليست المرة الأولى التي أرى فيها شخصا مشنوقا.

استعد محمد شاهين لمغادرة الغرفة، وهو يجيب:

-لأنها جثة بلا دماء. يبدو أنها تغذت على دمائه قبل أن تقتله.

بالأسفل وجدوا الكاهن اليوناني يعمل في همة ونشاط بمساعدة يوسف، أزاح الأثاث عن بقعة نظيفة واسعة في الردهة، وأفرغ الأغراض التي طلبها من داخل الحقائب، ثم حمل وعاء من الفخار غريب الشكل، وقد نقشت عليه رموزا متداخلة غير مقروءة، واقترب من بركة الدماء الكبيرة، التي تحيط بالجثث الممزقة في الردهة وانحنى عليها فقال يوسف في جزع:

-ما الذي تفعله؟

-أحتاج لبعض الدماء البشرية من أجل طقوسنا. أم تفضل أن أمزق ذراعك لأحصل على بعضها.

صمت يوسف في خوف، فملأ الراهب اليوناني وعاءه، ثم وضعه في منتصف البقعة التي جهزوها، دس بعدها إصبعه فيه ولوثه بالدماء، ثم عاد نحو الأرض وبدأ في رسم دائرة كبيرة يزيد قطرها عن الأمتار الثلاثة، كان الأمر مألوفا للدكتور مصطفى الذي جلس على مقعد إلى جوار مقعد المستشار وحيد، وقال الأخير:

-يبدو أنه مكتوب علينا أن نشهد تلك الطقوس ثانية.

-وهل تعتقد أننا قد نعيش بعدها، لنشهد مرة ثالثة.

-وهل يهم، نحن هنا لنموت يا دكتور، فقط ادع الله أن يتم الأمر بسرعة وبغير ألم كبير.

بدأ الراهب في رسم الدائرة الثانية داخل الدائرة الكبرى في نفس اللحظة التي عاد فيها محمد شاهين وفؤاد، فرفع الراهب رأسه نحوه وقال:

-تعرف أيها البشري ما عليك فعله، لكن أسرع.

تحرك محمد شاهين نحو إناء فخاري آخر يشبه الإناء الأول واتجه إلى بركة الدماء وملأه هو الآخر ثم عاد للباقين الذين رمقوه في حيرة وقال:

-أعلم أن ما سأطلبه غريب، لكن أرجو أن تثقوا في وأن تفعلوا ما آمركم به دون إبطاء، والآن أرجو أن تخلعوا عنكم كل الملابس التي تغطي نصفكم الأعلى.

-في مثل هذا الطقس البارد؟

قالها يوسف، فأجابه فؤاد وهو يخلع قميصه:

-قبرك سيكون أكثر برودة.

كانت إجابة قوية، ولهذا لم يتأخر يوسف هذه المرة في خلع ملابسه، ساعد محمد شاهين المستشار وحيد في خلع ملابسه، وفي أقل من دقيقتين، كان الكل قد صار عاري الصدر، اقشعرت الأبدان من هذا الزمهرير، لكن إصبع محمد شاهين الذي غمسه في الوعاء المليء بالدماء كان أكثر برودة حين لامس صدورهم وهو يخط عليها بالدماء رمزا عجيبا، دائرتين وداخلها نقوش ومربعات ودوائر متداخلة. وحين انتهى كانت الدماء تسيل على صدور الجميع، وقد نقش عليها نفس الرمز، وقال فؤاد:

-ما فائدة هذا؟

-تعويذة حماية قديمة.

-وماذا عنك؟

خلع محمد شاهين قميصه فظهر صدره عاريا، داميا، كانت نفس التعويذة على صدره، لكنها لم تكن مرسومة، كانت محفورة في جلده ولحمه وكأنما تم رسمها بمبضع حاد. وقال الدكتور مصطفى في جزع:

-من فعل بك هذا يا دكتور؟
-أنا بخير يا صديقي، فلا تلق بالا.



ثم انتبه الجميع إلى الراهب الذي جلس القرفصاء داخل دائرته الدموية الواسعة بعد أن صمم داخلها نجمة سداسية تشبه نجمة داود، وفي قلب النجمة الواسع راح بإصبع رفيع وكأكثر الفنانين مهارة وسرعة، يرسم آخر وأهم طلاسمه وتعاويذه. حية ضخمة برأسين وجسد واحد، محاطة بتعويذة من علوم السحر الأولى. كانت الساعة تشير لنحو الرابعة فجرا حين انتهى، وبينما راح الجميع ينتفض من البرد بصدورهم العارية قال لهم الراهب اليوناني، وهو يجلس داخل ذراع من أذرع النجمة السداسية:
-لنبدأ أيها الفانون، فالصباح قريب.
جلس كل واحد داخل ذراع من أذرع النجمة الستة، ثم فرقع الراهب بإصبعه فأحاط الظلام بالمكان كله، وقد غمر الصمت الباقين، فرقع الراهب مرة ثانية فاشتعلت عشرات الشموع من حولهم، بعث ضوؤها

الكثير من الظلال المرعبة وخاصة مع انعكاسها من أعين الجثث المبعثرة حولهم، لكن الراهب واصل عمله. أخرج قنينة زجاجية من جيبه، وفتح سدادتها الخشبية ثم راح يطلق منها بخارا أسود يعبق برائحة عطرية محببة للنفس، ولسانه يواصل الهمهمة الغامضة بلغة منسية قديمة. راح البخار يتشكل في صورة كائنات مخيفة قبل أن يتبدد ليتشكل في شكل آخر. كانت تلك القنينة تحوي دماء الكيانات القديمة، سلاحه الأخير الذي احتفظ به لقرون من أجل المواجهة الأخيرة.
رفع صوته في صوت مخيف وردد:

peto ut venias..In nomine Domini

statim veniet، et Azath Yog، Golka.In nomine Katholo

statim veniet lellith

هبت موجة من الهواء الحار الساخن فأطفأت كل الشموع في تلك اللحظة، بينما الراهب يصرخ في جنون.

statim veniet، et Azath Yog، Golka.In nomine Katholo

statim veniet lellith

ولأن محمد شاهين يعرف اللاتينية فقد فهم التعويذة، إنه يأمرها باسم أسلافها من الكيانات القديمة بأن تحضر، ومن الظلام راحت أصوات مبهمة تصل إلى آذان الجميع، كانت أيديهم جميعا ملتصقة ببعضها، وخاصة بعد أن حذرهم الراهب اليوناني من أن يفلتوها مهما حدث، كي لا تنقطع الحلقة السحرية التي يصنعها. ثم عاد الراهب ليردد:

statim veniet lellith

فتوهجت الدوائر الدموية والخطوط بلون أحمر مشع كأنها لهب، حتى الخطوط التي رسمها محمد شاهين في صدر الباقين كانت تتوهج في تلك اللحظة، وكما حدث في فيلّا الدكتور محمد شاهين، غمر المكان لون دموي أحمر انبعث من العدم. وبينما يصرخ الراهب بأعلى صوته.

statim veniet lellith

ظهر في قلب النجمة التي يجلسون فيها، خيط من دخان كثيف، مصحوبا برائحة عطرية مثيرة يعرف الجميع إلى من تنتمي، وببطء تشكل الدخان في صورة امرأة جميلة يعرفها الجميع.
رومية.
كانت جالسة مثلهم، في منتصف النجمة السداسية الآن. رمقتهم باستخفاف قبل أن تنظر إلى الراهب اليوناني وتقول:
-تعويذة استدعاء قديمة ودماء ثمينة، أتستحق ليليث كل هذا التعب يا صغيري آزايوج، أم تحب أن أدعوك باسمك البشري، أرتيماتسوس كالاميتاسيس.
وبينما شعر الجميع بالرعب منها وعلى بعد خطوة واحدة منهم، قال الراهب اليوناني:
-إنها النهاية أيتها الأم القديمة.
نظرت ليليث حولها قبل أن تهز رأسها بالموافقة وهي تقول:
-إنها النهاية بالفعل، لكن هل أنت متيقن أنها نهاية من؟
ثم ضحكت ساخرة، فغرق المكان في الظلام بغتة.

(38)

ظل الظلام هو العدو الأول الذي عرفه البشر، كان أول ما شغل خيالهم، ما الذي يخفيه عن أعينهم من خطر، وما الذي يخبئه لهم خلف ستائره من شرور. لم يكن الإنسان الأول يعلم الإجابة ولهذا لم يكن عجبا أن يهاب الظلام وأن يعده الخطر الأعظم عليه.
وفي هذا الظلام البهيم استيقظت في نفوس الجميع المشاعر البدائية الأولى للخوف من الظلام والعتمة، خاصة وهم على بعد خطوة واحدة من شيطانة لا تعرف الرحمة، وتتفنن في اختيار الوسائل البشعة لقتل ضحاياها. كتم الجميع أنفاسه، وفي ترقب راحوا ينتظرون الخطوة القادمة، وكلهم يتساءل ما الذي ستفعله رومية بهم؟

مضت نحو الدقيقة من الترقب ثم عاد صوت الراهب اليوناني ليرتفع وهو يردد تعاويذ قديمة. اشتعلت شمعة في البداية، تبعتها ثانية فثالثة، ثم اشتعلت باقي الشموع بغتة، لتنظر أعين الجميع في رعب نحو الخطر المحدق بهم، كانت الجثث جميعها واقفة في تلك اللحظة وهي تحيط بالدائرة من كل اتجاه. وعيونها الميتة ترمقهم ببرود، وهي لا تحمل لهم غير معنى واحد. الموت للجميع. ومن فوق الدرج كان جثمان كمال البهتيمي، يهبط ببطء في تلك اللحظة، ورأسه مائلة جانبيا في مشهد غريب مخيف. أفسحت له باقي الجثث، فتحرك بينها حتى صار على حافة الدائرة الدموية، ليتوقف قبل أن يرمق الجميع بعيون باهتة ميتة وابتسامة غريبة تتشكل على وجهه.

غمغم الدكتور مصطفى في فزع:

-رحماك أيها الرحيم.

وتلفت يوسف حوله في فزع وهو يتلو:

"وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (1) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (2) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (3) إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ (4) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ (5) إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (6) وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ (7) لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (8) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (9) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ(10)"

كان يوسف يحفظ تلك الآيات من سورة الصافات كاسمه منذ الصغر، واعتاد أن يرددها قبل النوم، وحين يدخل بيته في أي وقت من اليوم. أخبره الشيخ محمد أبو غنيمي الذي قام بتحفيظه القرآن الكريم، أنها من سور القرآن التي تطرد الشياطين وتحرق الجان الكافر لو حضر، لكن هل تفلح تلك الآيات مع جثث فارقت الحياة بالفعل.

راح فؤاد يتطلع للجثث التي أحاطت بهم وحاصرتهم، وهو يتمنى لو يخلع يده من يد الدكتور مصطفى الجالس إلى جواره، ويخرج مسدسه ليواجه به هؤلاء الوحوش. بينما رمق الدكتور مصطفى والدكتور محمد شاهين والمستشار وحيد تلك الجثث في توتر وقد تذكروا أحداث

المشرحة القديمة، والمواجهة المميتة مع جثث الموتى. وصرخ الراهب فيهم:
-إياكم أن تغادروا أماكنكم، أو تتركوا أيدي بعضكم. تماسكوا أيها البشر ولا تخشوهم، لن يتجاوزوا دائرتنا مهما فعلوا.
ثم سمع الجميع صوت باب الفيلّا وهو يفتح على مصراعيه بعنف، ومن قلب الظلام بالخارج ظهر كلب حراسة ضخم يمتاز بالشراسة، انطلق نحوهم وشق طريقه بين الجثث المنتصبة، ثم توقف أمام حافة الحلقة السحرية وهو يكشر عن أنيابه ويزمجر. ظهر كلب ثان وثالث، ثم ثلاث كلاب أخرى. اتخذ كل واحد منها مكانه أمام أحد أذرع النجمة السداسية وراح ينظر في وجه من أمامه في شراسة. كانت الرسالة واضحة تماما، ففور أن تنهار تلك الدائرة السحرية سيتولى كل كلب تمزيق الشخص الذي أمامه، وحتى لو نجا من أنياب الكلب الشرس فهناك الجثث من خلفه، التي لن يفلت أحد من شركها بلا شك.
ومن قلب النجمة السداسية عادت ليليث لتتحدث:
-خدعة طريفة وفعالة يا "آزايوج"، بل وأعترف أنك نجحت بالفعل في خداعي، خاصة وأنني لم أتوقع أن تظهر ثانية في هذا الزمن أو في هذا المكان. والآن وقد حبستني في مكاني بتعويذة استدعاء قوية، وطلاسم تقييد مخلوطة بدماء الكيانات القديمة، حتى ليليث لا يمكنها الفكاك من شرك كهذا.
قال الراهب اليوناني بهدوء:
-هل يعني هذا الاستسلام.
-هذا لو كنت تعلم كيف تستفيد مما فعلته، نجاحك في منع سحري مقيد ببقاء تلك الحلقة السحرية التي صنعتها مع هؤلاء البشر، لكن هل تستمر للأبد، كلانا يعرف أن هذا لن يحدث، ولا حتى لبضع ساعات أخرى، انظر إلى أصدقائك من حولك، إنهم ضعاف وليسوا مثلنا، بعد قليل سيظهر من يحتاج لقضاء حاجته، من يحتاج لإطفاء ظمأه بالماء، ومن يجوع، ولك أن تخمن ما الذي سيحدث حينها.

كان الجميع يدركون كم هي مصيبة، ففي وقت لن يطول، ستنكسر الحلقة من أحدهم وخاصة أن بينهم المسن والمريض المقعد، حينها ستتحرر رومية - أو ليليث -، وبالطبع سيكون انتقامها مشهودا. لكن الراهب اليوناني قال في صرامة:

-اصمتي.

وعاد ليلقي تعاويذه بصوت جهوري، كلمات غير مفهومة بلغة منسية، وإن كان وقعها على الآذان يثير الرجفة والخوف، ومن فوقهم تماما، ارتفعت همسات لكائنات خفية، وراحت ظلال أكثر حلكة من الظلام تتشكل في الفراغ، رفعت رومية رأسها ورمقت ما يحدث باستخفاف دون أن تعقب، ثم أشار الراهب بإصبعه نحوها في صوت جهوري، فاندفعت كل الظلال نحو جسدها.

أطلقت رومية ضحكة ساخرة، حين تبددت الظلال كالعدم قبل أن تبلغ جسدها، وتوقفت الهمسات الخفية وقالت للراهب اليوناني الذي ابتلع تعاويذه وهي تقول:

-من الحماقة أن تستعمل نفس التعويذة مع ليليث مرتين، لقد نجح طقس الثبات في المرة الأولى لأني لم أكن بكامل قواي يا صغيري، لكن اليوم الوضع مختلف، لا يوجد سحر قادر على هزيمتي أيها الأحمق. وفر تعاويذك كلها فلا شيء منها قد يجدي.

وامتقع وجه الراهب اليوناني، كان جليا أن خطته لهزيمتها تواجه الفشل، وببطء قال فؤاد:

-هل يملك أحدكم خطة أخرى للقضاء على تلك اللعينة، تكلم يا دكتور محمد، أو حتى أنت أيها الراهب. أخبروني كيف سنقضي عليها؟

أطلقت رومية ضحكة ساخرة، وقالت:

-أجيبا صديقكما. إنه يطرح سؤال المليون جنية في هذا المساء.

كان هناك صراع عنيف يدور في رأس فؤاد، وبخبرته كطبيب نفسي قرأ محمد شاهين هذا في صفحة وجهه، فقال في بطء:

-تماسك أيها الرائد، سوف نقضي عليها. فقط لا تستسلم لمحاولاتها

في إحباطك.
أطلقت رومية ضحكة ساخرة قبل أن تكمل:
-لست بحاجة لإحباطكم يا دكتور. انظر حولك وستدرك أنكم هالكون لا محالة. إنها مسألة وقت فقط وسيذهب هذا الهراء الذي صنعتموه لتتذوقوا حينها طعم الأنياب والمخالب وأسنان الموتى، هل تخيل أحدكم أن يموت ممزقا بأنياب حيوان ضاري أو بيد جثة ميتة، تجربة مثيرة أيها الفانون، تجربة فريدة استمتع بها صديقكم القديم اللواء محمد وهدان قبل ساعات، وكانت النتيجة مبهجة.
ثم أطلقت ضحكة ساخرة أخرى قبل أن تكمل:
-ربما ستكون الوحيد يا دكتور محمد الذي قد أشعر ببعض الأسف من أجله، لا أنكر أنك تروق لي. لو كنت أكثر حنكة وذكاء لاخترت أن تكون إلى جواري، كنت لتحيا وترى ما لا تتخيله، وربما منحتك الخلود.
وبكراهية قال لها الدكتور محمد شاهين:
-لم أكن لأفعل ولو كان الموت مصيري مائة مرة.
-لأنك كالباقين، مجرد بشري أحمق.
مضى بعض الوقت ورومية تراقبهم في هدوء من يعلم أن النصر حليفه في النهاية. المستشار وحيد يراقب ما يدور في هدوء وكأنه لا يهتم بالخطر المحدق به، والدكتور مصطفى يتلفت حوله طوال الوقت وهو يدعو الله أن يموت. قبل أن تمسه أنياب تلك الحيوان الشرسة التي تزمجر في تحفز من حوله، بينما راح يوسف يقرأ صورة الصافات كلها في سره، حتى إذا انتهى منها عاد لقراءتها ثانية، بينما أغمض الراهب اليوناني عينيه وهو يردد في صوت مكتوم وبلغة نسيتها الأرض منذ قرون كثيرة تعاويذه بلا جدوى، بينما يجاهد عقل الدكتور محمد شاهين للبحث عن مخرج لتلك المصيدة، وهو يتساءل. من حقا وقع في شرك الآخر، هم أم رومية، فحتى وهي حبيسة الحلقة السحرية، فإنها تبدو المسيطرة على الوضع والأكثر تيقنا من الفوز، ما الذي يفعله الراهب اليوناني، وكيف وقع في مثل هذا الخطأ الساذج، يحبسها في

دائرة مؤقتة دون أن يُحضر طريقة فعالة لهزيمتها. هل كان كل ما حدث شرك منها لإيقاع الجميع بين يديها في وقت واحد.
أغمض الراهب اليوناني عينيه وصار جسده جامدا متيبسا كالجثث، شعر بهذا فؤاد الذي يمسك بأحد كفيه والدكتور محمد شاهين القابض على الكف الآخر، رمقه فؤاد في هدوء وقد أيقن عجزه عن فعل شيء ما، وبداخله أدرك أن الهزيمة تقترب بشدة منهم، ولأنه رجل شرطة تعلم ألا يستسلم للشر مهما حدث، ولأنه كشخص يفضل الموت على الهزيمة، فقد اتخذ قرارا خطيرا. والغريب أنه كان يشعر بهمس غريب في رأسه في تلك اللحظة يدفعه للقيام بما يفكر فيه.
نظر حوله للحظة، وفي سره قال:
-توكلت على الله.
وفي لمح البصر، نزع كفه اليمنى من يد الدكتور محمد شاهين، الذي صرخ في ثورة وذعر:
-لااااااااااا يا فؤاااااااااد.
وفي لمح البصر، التقط مسدسه من حزامه وصوبه نحو رومية وأطلق النار.
ثم ساد الظلام.
وجد فؤاد نفسه غارقا في الظلام فجأة، وحين تنفس بعمق، شعر بالرائحة العضوية العطنة المكتومة للهواء من حوله، همس في توتر وهو يحاول أن يخترق الظلام بعينيه:
-دكتور محمد، أيها الرفاق، هل أنتم هنا؟
جاوبه الصمت قبل أن تلتقط أذنه صوت أنفاس هادئة، ثم تسللت إلى أنفه الرائحة العطرية الذكية التي يعرف صاحبتها، وبتوتر لا حد له دار حول نفسه وقد شهر سلاحه وصرخ:
-أين أنت أيتها اللعينة، أظهري نفسك لو كنتِ تمتلكين الشجاعة.
ومن خلف أذنه سمع الصوت الهامس:
-وهل تعتقد أني قد أخاف سلاحك التافه هذا أيها البشري؟

شاعرا بالرعب من هول المفاجأة سقط مسدسه من يده، ورمق الظلام حيث يفترض أن تكون رومية، التي واصلت حديثها القادم من الظلام:
-أما عن الشجاعة فأنت أكثر من يحتاج إليها في تلك اللحظة لو تعلم .. هل تعلم أين أنت، هيا .. اعتصر ذهنك وخمن .. فكر في أكبر كوابيسك التي تراودك في نومك كل ليلة .. لأنك الآن تواجهها بالفعل .. والآن. وداعا أيها البشري.
وأطلقت ضحكة ساخرة ثم ذهب صوتها عن أذنه للأبد. انتظر بضع دقائق في الظلام الدامس، حتى هدأ قلبه، وهو يفكر بتوتر لا حد له فيما قالته، من أنه يواجه أكبر كوابيسه الآن. ما الذي تعنيه؟ وما هو هذا الكابوس الذي يخشاه كالموت؟ وهبط الجواب مرة واحدة على عقله.
نجع الموتى.
إنه كابوسه اليومي حين تهاجمه في الحلم تلك المومياء الملعونة وأشباحها المخيفون في قلب المغارة التي تحتوي المقبرة. الآن صار يدرك أين هو، إنه في قلب المقبرة داخل المغارة، برفقة جثمان سليم وجثمان الحاج عبد الكريم والمومياء اللعينة. وكالمجنون تذكر قداحته فأخرجها من جيبه بسرعة، واحتاج الأمر لنحو المرات الأربع حتى نجح في إشعالها، وعلى ضوء اللهب رأى كل شيء حوله، كان سليم والحاج عبد الكريم يقفان أمامه وهما ينظران إليه بعيون صفراء مشقوقة، وهما يبتسمان له في غير ترحاب، بينما راح الضباب يتصاعد من التابوت الذي يحوي المومياء. تراجع مصعوقا من الخوف، فتعثرت قدمه في نتوء ما وسقط، وسقطت القداحة من يده.
وعاد الظلام.
ثم شعر باليد الباردة التي تحيط بقدمه.
وفي مكان آخر، كان الهتاف يرتفع من حين لآخر، من حول المستشار وحيد:
-"وحدوووووووه".
-"لا إله إلا الله".

جسده مقيد بثوب ضيق محكم يقيده كله، وهو محمول في صندوق خشبي مغلق، احتاج الأمر لبعض الوقت حتى أدرك المستشار وحيد أين هو، إنه مكفن داخل نعش يحمله البعض، وهم يشيعونه نحو مثواه الأخير بلا شك، يا الله، هل مات حقا، ومتى حدث هذا؟ اعتصر عقله حتى تذكر الذكرى الأخيرة، الحلقة السحرية ورفاقه وتلك الشيطانة في المنتصف، ثم محاولة فؤاد إطلاق النار عليها، وبعدها كان الظلام الذي أفاق منه الآن. هل تراها قد قتلتهم في تلك اللحظة، وكيف فعلتها؟ إنه لا يتذكر. اهتز النعش فارتفع رأسه ثم عاد وارتطم بأرضيته الخشبية فشعر بألم حاد، فصرخ بقوة، لكن بدا وكأن لا أحد ممن يحمله سمعه، فقط ظلت تصله همهماتهم، وسمع أحدهم يقول:

-رحمه الله، رغم منصبه الرفيع فقد كان رجلا طيبا.

لماذا يشعر بأنه لم يمت بعد، وهل يشعر الموتى بمثل هذا الألم العنيف بعد الموت، ثم تذكر ما هو مقبل عليه بعد قليل، سوف يدفنونه في مقبرة عائلته، والمرعب أنه يشعر بكل شيء من حوله، هل يرافقه هذا الوعي داخل القبر، وهل يرى الملائكة والشياطين حينها، بل وهل يرى أشباح الموتى من حوله؟ كان قلبه يدق بعنف في تلك اللحظة، وشعر باختناق لا حد له، فراح يصرخ:

-أخرجوني من هنا، لا تدفنوني، أخرجوني بالله عليكم.

لكن النعش توقف فجأة ثم هبط به من يحملونه على الأرض، شعر بالأيدي التي تتلقفه، وتحمله ثم تهبط به داخل القبر، سمع الشيخ الذي يسلم على أشباح خفية وهو يفك رباط كفنه، ويعدل من وضع جسده في اتجاه القبلة، وحين أزاح الكفن من فوق رأسه، زال الظلام عن عينيه، وللمرة الأولى يرى وجه الرجل النحيف العجوز الذي يقوم بدفنه، واقترب منه الوجه العجوز الضامر وصاحبه يقول:

-أعوذ بالله. عينا الميت مفتوحة، وكأنها حية وتحدق بي.

لكن صوتا أتى من خلف العجوز، قائلا:

-هذا يحدث دوما، مسدها بكفك وغط الوجه بالكفن لننتهي بسرعة يا شيخ عبد الواحد.
شعر بالكف الخشن يغلق عينيه، حاول مقاومته وفتح عينيه ثانية فلم ينجح، حاول الصراخ بأنه ما زال حيا، فلم يخرج صوت من فمه، ثم عاد الظلام ثانية، شعر بباب القبر وهو يغلق ثم صوت بعيد لثرى يذرى على باب القبر. كان متأكدا في تلك اللحظة أنه ما زال حيا، لقد دفنوه قبل أن يموت، والمرعب أنه يسمع صوت أقدامهم وهم يبتعدون، تاركين إياه بمفرده داخل القبر. راحت دموعه تنساب على وجهه في عجز، ثم شعر بمن يزيل غطاء الكفن عن وجهه، ووصلت لأنفه تلك الرائحة العطرية المثيرة، وصاحبتها تقول:
-ما رأيك في هذه المفاجأة، ظللت طوال عمرك تخشى أن تفقد وعيك أو تهوي في غيبوبة عميقة، ويظنونك ميتا ثم يقومون بدفنك حيا. الآن قد تحققت مخاوفك، أنت في قبرك حيا وقد غادر الجميع، ترى ما الذي ستجده بانتظارك في القبر.
هنا أضاء القبر ضوء أحمر، وأمام عينيه كانت رومية ترقد فوقه وهي ترمقه في استمتاع، بينما غمر الرفات والعظام وبقايا أكثر من كفن قديم الأرض من حوله، ثم اختفت رومية بغتة، لكن ضوء اللهب لم يرحل، كان مازال قادرا على رؤية من حوله، ثم رأى القط الأسود الذي يرمقه من الجانب البعيد في هدوء، قبل أن يتحرك نحوه. وحين عاد الظلام في نفس اللحظة، أدرك أنه ليس الشخص الوحيد الحي داخل المقبرة.
شاعرا بالعجز راح الدكتور مصطفى يرمق ابنه، وهو يندفع نحو زوجته التي كانت تصرخ وهي تمسك بكف طفلها الصغير، الذي أمسك بالكف الآخر، بالطرف العاري لسلك شاحن لعبته الموصل بالكهرباء، لا يدري الدكتور مصطفى كيف وصل إلى هناك حيث يسكن ابنه في كندا، ولا هل يحلم بهذا، أم أنه شاهد حقيقي لتلك الواقعة الرهيبة، كانت الأحداث تجري أمام عينيه ببطء شديد، وكأنها فيلم فيديو يتحرك بالسرعة البطيئة، ومن خلفه سمع رومية، تقول:

-أليست هذه أسوأ مخاوفك يا دكتور مصطفى، أن تفقد أحباءك بفعل حادث عارض، والآن انظر، سوف تصل ذراع ابنك إلى جسد زوجته بعد لحظة، لكن الأحمق فقد تعقله، فلا يعلم أنه سيلتصق بها هو الآخر ليموت معها ومع ابنه صعقا بالكهرباء، في وقت آخر كان ليعلم أن ما يفعله، ليس الطريقة المثلى لإنقاذ شخص مسته الكهرباء، والآن الخيار لك، يمكنك أن تنقذ الثلاثة، لكن بشرط واحد، أن تعاني نفس آلامهم جميعا وأن تصعقك الكهرباء بدلا منهم، فماذا تختار؟

لم يكن هناك مجال للتفكير، وبلا تردد اندفع نحو جسد الثلاثة بقوة كاسحة ودفعهم بعيدا عن السلك العاري فأمسكت الكهرباء بجسده، وشعر بالنار تلتهم خلاياه. الغريب أن ابنه وزوجته لم يرياه ولم يشعرا بوجوده ولا يدريا كيف شعرا بذلك الجسد الخفي الذي دفعهم بعيدا عن الكهرباء، لكنهما أوعزا الأمر للعناية الإلهية. وحين أفاق الدكتور مصطفى، وجد نفسه على ناصية طريق سريع وابنته في الناحية الأخرى منه، وهي تحاول اجتيازه ممسكة بالهاتف في يدها دون أن تشعر بالحافلة المسرعة القادمة في سرعة نحوها من بعيد، هنا صرخ في ذعر:

-احذري.

لكن رومية الواقفة بجواره همست في أذنه، ليست هذه هي الطريقة الصحيحة لإنقاذها، أنت تعلم هذا الآن. أليس كذلك؟

كانت الأحداث تجري ببطء أمام عينيه، والحافلة تقترب من جسد ابنته وهي تجتاز الطريق غير منتبهة لموتها القريب. كان يدرك أي كابوس حقيقي يعيشه الآن وما عليه فعله، عليه أن يضحي بحياته وأن يعاني من أجل حياة أحبائه، وأن يموت كل مرة بدلا منهم. وكالمرة الأولى، اندفع بسرعة نحو الطريق ودفع جسد ابنته التي لا تراه للخلف ثم شعر بجسده يتمزق وينسحق أسفل الحافلة، وكان الألم أقوى من أن يحتمله.

ثم كان هناك أمام البحر، وابنه الآخر، وحفيديه يسبحان هناك، ومن بعيد لاحت الموجة المرتفعة القادمة نحوهم، أدرك دون أن ينتظر

إرشادات رومية هذه المرة ما سوف يحدث وما عليه القيام به، فاندفع نحو الماء وهو يفكر في الألم الرهيب القادم بعد قليل.
وجد يوسف نفسه في غرفة يعرفها جيدا. إنها غرفة خطيبته رانيا، لكن الغريب كان ذلك الضوء المريب المحيط بها وهي مقيدة برباط أسود إلى الحائط، لكن الأمر الأكثر غرابة أنه كان واقف في الناحية الأخرى من الغرفة، حيث كان يقوم بتصويرها مستخدما كاميرته. وبرعب هائل رأى الجسدين الواقفين إلى جوار رانيا، كانا نحيلين كأعواد القصب، طويلين كأعمدة الكهرباء، وكان يحيطان بوجهها بأكفهما النحيلة ذات الأصابع الطويلة التي لا تحتوي إلا على أصابع ثلاثة. كانت رانيا تنظر إليهما بعيون كلها فزع ورعب. بينما منعت الكمامة الموجودة فوق فمها أي صوت استغاثة صادر من فمها. الغريب أنه كان يلتقط الصور لما يحدث بكل سرعة وهمة رغما عن إرادته. نظر الشخصان الغريبان إليه، وأدرك أن وجهيهما مجرد كتلة من الشعر الكثيف الذي يغطيه كله ولا ملامح فيه. إنهما جنيان بلا شك، فهكذا ظل طوال عمره يتخيل شكل الجان، وبينما راح قلبه يتقافز في عنف، استعاد لسانه صورة الصافات، وقبل أن يبدأ التلاوة، شعر أن فمه غير موجود، حاول بفزع أن يصدر أي صوت فلم يقدر، حاول أن يفتح شفتيه، فلم تستجيبا، ثم نظر إلى المرآة عن يساره، كانت هناك طبقة من الجلد تغطي المكان حول فمه، كان وجهه عبارة عن عينين وأنف فقط في تلك اللحظة، وكانت رومية تقف خلفه تماما بالابتسامة نفسها، الساخرة المتهكمة اللعينة، ومالت نحو أذنه وقالت:
-ليست تلك الآيات يا يوسف، إنها تؤذيهم بالفعل.
كان جسد خطيبته ينتفض في قوة في تلك اللحظة وأحد الكائنين يحيطها بجسده، بينما رومية تهمس في أذنه:
-هؤلاء هم أصدقاء الطفولة. الجان الذين ظللت عمرك كله، تخشاهم وتقرا صورة الصافات في كل مكان كي تبعدهم، حان الوقت لتلقاهم وترى بنفسك ما يمكنهم القيام به.

في تلك اللحظة راح جسد الجني الذي يحيط بجسد خطيبته يتقلص طوله وجسده يزداد بدانة، حتى أخفى جسد خطيبته المنتفض تماما، بينما وقف الجني الآخر في الناحية الأخرى من خطيبته وهو يرمقه بوجه من شعر في ثبات.
ثم التفت إليه الجني الأول الذي تقلص حجمه ليرى كيف اكتسب شكل خطيبته وهيئتها تماما، صار صورة طبق الأصل منها، ثم ابتعد عن جسدها ليجده يوسف عبارة عن هيكل عظمي مغطى بطبقة من الجلد المترهل وقد ذوت الحياة من مقلتيها، ومن فم الجني الذي استحوذ على هيئتها خرج صوت مماثل لصوتها يقول:
-إنه دورك يا يوسف، هل أنت مستعد؟
ثم تحرك الجني الطويل نحوه. وعلم يوسف ما هو مصيره الآن.
جالسا فوق مقعده في حجرة مكتبه، راح محمد شاهين يفكر في جنون، كيف انتهى به المطاف هنا، وأين ذهب الباقون، وهل نجو أم هلكوا، وكان السؤال الأكثر إلحاحا في تلك اللحظة هو أين رومية؟
لكن رومية في اللحظة التالية كانت أمامه، بعطرها المميز وابتسامتها العذبة المتهكمة، وفتنتها الطاغية، وقالت له:
-أنا هنا يا صغيري، هنا لأسألك. ما أكثر ما قد يخيفك؟
-رمقها في حيرة، في خوف، في غير تصديق، ثم قال:
-هل أحلم؟
-لا فارق معي، أحلامي كالحقيقة وواقعي كحلم طويل.
-وأين ذهب الباقون؟
-كلٌ يواجه أبشع مخاوفه في تلك اللحظة يا دكتور، والآن جاء دورك لتخبرني عن مخاوفك.
هل تسأله مما يخاف، لو شاءت الحقيقة لأخبرها أنه يخاف من أي شيء يجهل حقيقته وكنهه، يخاف الظلام، الوحدة، النفوس المظلمة، يخاف القبر، يخاف المستقبل، بل ويخشى الذكريات، هل تسأله مم يخاف؟! هل تنتظر أن يخبرها انه يخاف الحيوانات الضارية أو الأشباح

ومصاصي الدماء والمسوخ والجان، لقد واجه الكثيرين منهم، حتى تعلم ألا يخشاهم وألا يخافهم، لو شاءت الحقيقة، فهو يخاف من نفسه هو.
وابتسمت وهي تطرق فوق مكتبه الخشبي بظفرها وتهز رأسها قائلة:
-مختلف عن الآخرين كالعادة يا دكتور حتى في مخاوفك، لكنني أعلم ما الذي يخيفك حقا.
ثم مالت بوجهها نحوه وتلاقت أنفاسهما في عناق قصير، قبل أن تهمس وهي تمس بشرتها بأناملها:
-إنها الشيخوخة والعجز، لقد سرقت أعواما من الشباب والصحة بفعل أصدقائك الغامضين، لكن ما رأيك لو سلبتك كل هذا الآن.
وكالسحر اختفت من أمامه بغتة، ظل في مكانه لبعض الوقت وهو لا يعي ما الذي حدث، لكنه حين حاول النهوض عجزت ساقاه عن حمله وشعر بألم حاد في مفاصله، وحين نظر إلى كفيه رأى الجلد المبرقش البني المجعد المليء بالبقع، والأوعية الدموية اليابسة، ثم دخلت وداد لتضرب صدرها وتصرخ:
-كلا، ليس دفعة واحدة. أنت تموت يا دكتور.
كانت في مكانها، داخل النجمة السداسية، ترمق الراهب اليوناني في هدوء وهو يبادلها النظر بالهدوء نفسه، ثم قالت:
-والآن، هل هي مواجهة جديدة؟
أجابها الراهب اليوناني:
-مواجهة لن أنتصر فيها كالعادة، وستحمل معها العذاب اللعين لنحو مائة عام كما حدث من قبل.
-ألم تكن تدرك أن هذا مصيرك يا بني، هل تنتظر أن أكافئك على خيانتي وخيانة بني جنسك لصالح البشر.
-لقد انتهى جنسنا. أنت فقط التي ترفض تصديق هذا
-ليس والكتاب معك، يمكنني إعادتهم جميعا إلى هذه الأرض والقضاء على من فيها أو حتى إبقاءهم واستعبادهم.

-ماذا ستفعلين بي الآن؟
نهضت في تلك اللحظة وتحركت نحوه ثم وقفت خلفه واحتضنت رقبته من الخلف وهي تهمس في أذنه:
-لن أعذبك لمائة عام هذه المرة، هذه المرة أعدك بعذاب دائم، حتى تنتهي الحياة نفسها يا بني الأخير.
-وماذا لو طلبت منك أن تقتليني هذه المرة، لا يمكنني فعلها بيدي، لكن بإمكانك أنت فعلها.
-أتريد الموت لتفلت من عذابك؟ لا تنتظر مثل تلك الرحمة من ليليث يا سليل القدماء.
-وماذا لو كان هناك ثمن؟
-ماذا تقصد؟
ومن صدره أخرج الكتاب، كتاب اللعنات، برقت عيناها في نشوة وهي ترمقه في لهفة، وقال:
-موتي مقابل هذا الكتاب. تعلمين أنه جزء مني ولن يمكنك الحصول عليه إلا بإذني.
نظرت إليه في شك، قبل أن تتعلق عيناها بالكتاب، الذي سوف يقودها لاستعادة زوجها وذريتها من الكائنات القديمة.
-إنني أقبل عرضك، لكن كيف أقتلك وأنا أجهل الطريقة الصحيحة؟
أغمض عينيه، وهمس، ثم فتح عينيه ثانية وقال:
-الآن تعلمين.
هزت رأسها بالإيجاب وقد أخبرها باللغة القديمة المنسية كيف تفعلها، وقالت:
- والآن أين تحب أن أفعلها؟
-هنا والآن.
ابتسمت له في عذوبة، وربتت على شعره الطويل، ثم أمسكت ذراعيه، وبأظفارها الحادة قطعت أوردتها، انساب بخار أسود من داخل الأوعية

الدموية المقطوعة، لم تنظر ليليث إلى ما يحدث، بل كانت تمسك برقبته في تلك اللحظة، وهي تقول:
-بحق القوى الأبدية أسلبك رحيق الحياة يا آزايوج بن يوج.
ثم استطالت أنيابها وهوت على أوردة عنقه لتمزقها وتبدأ تمتص دماءه، لم يقاوم الراهب ما يحدث له، فقط أشار بإصبع مرتعش للكتاب ففتحت صفحاته، ثم راحت الدماء المتدفقة من عروقه تنساب بسرعة نحو الكتاب، كان يشعر بإعياء لا حد له حين انتهت ليليث منه، ثم وقفت تترقب كيف تحول جسده لدخان اتجه نحو الكتاب ثم اختفى بين صفحاته، كانت تشعر بالظفر في تلك اللحظة، وبكف قوي أمسكت الكتاب ورفعته أمام عينيها في ظفر وهي تهتف:
-أخيرا صرت لي.
ثم ضمته لصدرها في شوق، لنحو الدقيقة وهي تغمض عينيها في نشوة، قبل أن تشعر بأن شيئا ما ليس صحيحا، فتحت عينيها وحاولت إبعاد الكتاب عن صدرها لكنه ظل ملتصقا بكفيها، صرخت فيه:
ابتعد عني أيها اللعين، كلا. لن يحدث هذا لليليث.
لكن الكتاب ازداد التصاقا بها، وفي اللحظة التالية كانت تشعر بشيء غريب يحدث لجسدها، تحولت أطرافها لدخان، ثم ابتعد الكتاب بغتة عن يدها وسقط على الأرض مفتوحا على صفحتين فارغتين، ورغما عنها راح جسدها الذي يذوب يتحول إلى دخان راح يندفع نحو الكتاب، الذي أخذ يمتصه في شهوة وشراهة، وفي أقل من دقيقة، كان الكتاب قد ابتلع جسدها بالكامل، بينما ظهرت صورة جديدة على إحدى الصفحات الفارغة، وفي عالم غريب لا تعرفه وجدت نفسها أمام الراهب اليوناني، والذي ابتسم في وجهها قائلا:
-مرحبا بك في عالمي يا أماه.

(39)

لم يكن يعرف في البداية أين هو ولا هل هو في حلم، أم أنه يقظ. كان الظلام يحيط به من كل ناحية، وكلما تحرك كان الظلام هو ما يتعثر به، فقرر ألا يتقدم وأن يظل بمكانه حتى يستيقظ لو كان حلما، أو يذهب هذا الظلام المخيف لو كان واقعا. مضى بعض الوقت ثم تناهت تلك الخطوات البطيئة لأذنيه. لا يدري لماذا فكر في أن يركض إلى الناحية الأخرى مبتعدا عن صاحب تلك الأقدام وخوف مبهم يحيط بقلبه ويدفعه للفرار، لكنه لم يتحرك، وبعد لحظات ظهر ضوء مصباح يعمل بالكيروسين، وشخص يعرفه يحمله، وحين اقترب ودنا من وجهه، أدرك محمد شاهين صدق حدسه، كان الراهب اليوناني، فقال في سعادة:

-إذن فقد نجوت؟

-ليس تماما يا صديقي، لكنني في النهاية سعيد.

-ورمية؟

-تقصد الأم ليليث؟

-أيا كان اسمها، أين هي؟

-لقد رحلت معي. لقد انتصرت هذه المرة.

رمقه محمد شاهين في شك، وتذكر لقاءه بها منذ لحظات، وكيف صار عجوزا للغاية، ثم سأله:

-وكيف فعلت؟

ابتسم الراهب وهو يجيب:

-لقد خدعتها، كانت تهتم بالكتاب أكثر من أي شيء آخر وأرادت الحصول عليه، فأعطيتها إياه.

-أعطيتها الكتاب؟!

قالها محمد شاهين في ذهول، فأجاب الراهب:

-كانت تلك هي الخطة منذ البداية يا صديقي، كل ما فعلته بمساعدتكم كان مجرد تمويه، الحلقة السحرية التي حبستها فيها، والتعاويذ الفاشلة

التي ألقيتها عليها، كل هذا كان مخططا، أردت أن أشعرها بالنصر، قبل أن أقدم لها الكتاب وقد ظهر عجزي وفشلي في مواجهتها.
-وكيف انتصرت عليها بالكتاب؟
-الأمر كان بسيطا، كانت تنوي تعذيبي ثانية، فأخبرتها أني أفضل الموت هذه المرة، وأن عليها أن تقتلني لتحصل على الكتاب، وبالفعل قامت بتمزيق يدي، وعنقي وبدأت في امتصاص دمائي لتقتلني، وكان هذا خطأها الأكبر، الذي لم تنتبه له. ففور أن امتصت الكثير من دمائي امتزجت تلك الدماء بدمائها وصار جزء مني ممتزجا بكينونتها، هنا أشرت للكتاب طالبا منه أن يعيدني إلى عالمه، لا تنس أنني منذ البداية جزء منه، ومرتبط به بأقوى سحر عرفته الحياة. لذا فقد بدأ الكتاب في جذبي لعالمه، ولأن جزءا كبيرا من دمائي كان يجري في دمائها، فقد جذبها الكتاب هي الأخرى لعالمه لأنه لم يكن ليدع أي جزء مني خارجه.
وهكذا انتصرنا يا صديقي.
ورغم سعادته بما حدث، إلا أن الشك لم يفارق الدكتور محمد، فقال:
-ألا يمكنها العودة من الكتاب مثلما فعلت أنت؟
-اطمئن، سحر الكتاب أقوى منها كثيرا، كما أنه جردها من سحرها فور أن أدخلها عالمه.
ثم ربت على كتفه وقال:
-لا تخشاها يا صديقي البشري واطمئن، لقد ذهبت ليليث للأبد.
-وماذا عن الباقين، ماذا حدث لهم؟
رمقه الراهب في أسف، قبل أن يقول:
-مات الدكتور مصطفى، والمستشار وحيد، لكنني نجحت في إنقاذ فؤاد ويوسف.
ثم تذكر محمد شاهين ما أصابه من شيخوخة وعجز ومرض، فقال متوسلا:
-وماذا عني، هل يمكنك إنقاذي من لعنتها؟

ابتسم الراهب في أسى وراح جسده يتراجع إلى الخلف ليبتلعه الظلام رويدا رويدا حتى اختفى تماما، والدكتور محمد شاهين يصرخ فيه:
-كلا، انتظر أرجوك، أخبرني كيف أتخلص من لعنتها، ساعدني أيها الراهب، ساعدني.
ثم استيقظ بغتة، كان هناك خلف مكتبه، وأمامه كان الكتاب الرهيب، كتاب اللعنات. في تلك اللحظة أدرك ما عليه فعله، نهض بتثاقل وإرهاق، ثم اتجه لخزانته السرية ووضع الكتاب فيها. ثم تحرك نحو نافذة الحجرة فأزاح ستائرها، ثم راح يرمق الشمس التي بدأت رحلتها في الأفق، والتي كان يراها للمرة الأولى منذ أسبوع كامل، اختفت فيه خلف الغيوم الكثيفة والأمطار. وفي أعماقه، كان يشعر بضعف لا حد له.
كان يشعر أن تلك المغامرة كانت مغامرته الأخيرة.

خاتمة

تحرك البروفيسور يوري بلاكوفيتش ببطء فوق طبقات الجليد الهشة محاولا ألا يتعثر أو ينزلق، وهو يحمل كومة صغيرة من الأخشاب نجح بالكاد في قطعها من إحدى أشجار الغابة التي يشرف عليها البيت. بالتأكيد كان مبالغة وصف المكان الذي يقطنه بالبيت، فهو في الواقع مجرد كوخ خشبي صغير من حجرة واحدة، وحجرة أخرى أصغر كثيرا تتصل بالحجرة الأولى من الخلف عبر باب خشبي صغير، يستعملها يوري كحمام. حياة بائسة في الواقع، لكنك لو سألته لأكد لك أنها أفضل بلا شك من أن تمضي ما بقي لك من عمرك في صقيع سيبيريا المميت. إنه في عامه الثامن والتسعين من عمره الآن، ولو قدر له الحياة ليشهد شتاء جليديا آخر فسوف يحتفل ببلوغه عامه التاسع والتسعين. من حسن حظه أنه لم يفقد الكثير من حيويته وقوته رغم بلوغه هذا العمر، ومن حسن حظه أنه مازال قادرا على الاعتناء بنفسه وليس في حاجة لمعاونة أحد، فقط عليه الحذر كي لا يصاب بأي حادث عارض يقعده، كان هذا في الواقع يعني موته، فالمنطقة التي بنى فيها كوخه قبل خمسة وعشرين عاما تطل على بحيرة متجمدة طوال الوقت وغابة كثيفة الأشجار، منطقة معزولة وخاصة لو علمت أن أقرب جار له يبعد بنحو ثلاثة كيلومترات كاملة خلف البحيرة. عزلة اختيارية لكنه في الواقع كان مجبرا عليها. فبعد أكثر من عشرين عاما من الحبس في سيبيريا، عاد من هناك وهو يخشى البشر كلهم ويتشكك في أي إنسان حوله، تجربة مريرة علمته العزلة وأورثته خوفا لا ينتهي من العودة لمثل هذا الجحيم المتجمد ثانية. عاد لعمله الأكاديمي لنحو خمس سنوات، لكنه شعر أنه مازال مراقبا وأن هناك من يحصي أنفاسه، لذا اختار عندها أن ينهي كل هذا الترقب والقلق وأن يبتعد عن البشر جميعا. انتقى تلك البقعة النائية وبنى كوخه فيها، وقرر أن يمضي ما بقي له من عمر بين كتبه هناك أمام المدفأة الحجرية بالكوخ. انتهت آخر عاصفة جليدية قرب الفجر، وكان محظوظا بهذا وخاصة أنه قد استهلك كل مخزونه من

الخشب طوال الأيام الثلاث للعاصفة، حيث لم يستطع مغادرة الكوخ خلالها. ربما لو واصلت العاصفة ثورتها ليوم رابع لتجمد من البرد أمام المدفأة الباردة. لكن ها هو مازال حيا وقد جلب من الغابة بعض الأخشاب القليلة الكافية لبعث النار في مدفأته لتدفئة الكوخ ليوم كامل، وفي الأيام التالية سوف يعمل بجد على قطع كمية مضاعفة من الأخشاب، وتخزينها للعاصفة التالية. اقترب من الكوخ قبل أن يرفع رأسه ويضيق من عينيه في توتر. كانت هناك سيارة جيب سوداء ضخمة بجوار الكوخ، سيارة لا يعلم صاحبها ولا ينتظرها. دق قلبه الواهن بغير انتظام للحظة وراح أنفه يطرد بخارا باردا كثيفا حول وجهه، من هؤلاء وماذا يريدون منه؟ أيكونون من الشرطة؟ لكن ما هي جريمته؟ أم يكونون من رجال الـ "كي جي بي" رجال المخابرات الروسية، تراخت قدماه أسفل منه عند تلك الخاطرة، حتى أنه ألقى بالأخشاب كي لا يسقط. ماذا يريدون منه الآن؟ ألم ينتهوا منه من قبل؟ ألم يتسببوا في سجنه في سيبيريا كل تلك السنوات؟ لماذا إذن عادوا يتذكرونه الآن؟ فكر في الهرب، لكن إلى أين يذهب والجليد يحيط به من كل جانب. حتى لو قرر الهرب فلن يحيا طويلا حتما وسط هذا الصقيع، سيموت متجمدا في بقعة ما بعد ساعات قليلة بلا شك. دعك من أنهم حتما يراقبونه الآن من داخل الكوخ وربما رأوه وهو قادم، ولو فكر في الهرب فسوف يدركونه على الفور. في النهاية هو مجرد عجوز في الثامنة والتسعين من عمره. لم يعد أمامه غير مواصلة طريقه نحو منزله، انحنى ببطء وقام بجمع الأخشاب التي ألقاها ثم حملها واتجه إلى الكوخ. على باب الكوخ كان هناك رجل ضخم يحمل على كتفه سلاحا كبيرا، مسدس آلي ربما. أفسح له المكان فور أن اقترب ليدخل من الباب الصغير. داخل الكوخ كان هناك ثلاثة آخرون. رجلان وامرأة. كما لاحظ يوري أن الكوخ دافئ وقد اشتعلت بكومة كبيرة من الخشب في المدفأة. جلس الثلاثة على المقاعد الثلاثة الموجودة بالكوخ. وابتسم الرجل أكبرهم سنا وقال:

-مرحبا يا بروفسير يوري بلاكوفيتش. إذن فهذا مخبأك الذي هربت فيه من العالم أجمع. لم أكن أعلم أنك اخترت مثل هذا القبر البارد لتموت فيه. عالم مثلك يستحق في شيخوخته مصيرا أفضل لو كان يحيا في وطن آخر.

ألقى يوري بالخشب أرضا في توتر وقال:

-من أنتم؟

-أصدقاء. كل من هنا أصدقاء.

ثم أشار للسيدة التي معهم والتي كانت تدخن في هدوء، وأردف:

-انظر إليها، إنها أولجا، لا تقل لي أنك قد نسيتها؟

انتقل ببصره إلى المرأة وأدرك الآن لماذا بدت له مألوفة. إنها مساعدته القديمة، أولجا تشفاشينكو. لقد لعب الزمن في خلجاتها لعبته الأثيرة فتزاحمت التجاعيد على وجهها، لكنها تظل أولجا في النهاية، لم يرها منذ خمسة وعشرين عاما، وبالتحديد حين قرر الهرب إلى هذا المكان، لكن ما شأنها به وما صلتها بهؤلاء الرجال.

-من هؤلاء يا أولجا وماذا يريدون مني؟

ابتسمت أولجا له وقالت:

-انتظرت أن ترحب بي في البداية يا بروفيسير.

-ليس قبل أن أعلم لماذا أنتم هنا.

هتف الرجل الثالث وكان شابا في منتصف العمر هذه المرة.

-نريد الكتاب يا يوري؟

اتسعت عينا يوري في توتر قبل أن يحاول تمالك نفسه وأجاب:

-أي كتاب تقصدون؟

عاد الرجل الضخم المسن للحديث هذه المرة وقال:

-لن نتكبد أكثر من عشرين عاما في البحث عنك يا بروفسير، من أجل كتاب علمي يمكن الحصول عليه عبر شبكة الإنترنت مقابل حفنة من الروبل. لا تتلاعب بنا يا بروفيسير ولا تضيع وقتنا. أنت تعلم ماذا نقصد.

كان يعلم منذ البداية، بل من سوء حظه أنه يعلم، إنه كتاب اللعنات. الكتاب الملعون الذي تسبب في فقدانه أسرته وعمله وشبابه وباقي عمره كله. الكتاب الذي تمنى لو لم يعثر عليه أبدا، لكنه كذلك لا يقبل مهما واجه أن يقع في الأيدي الخطأ. ربما كان في هذا هلاك العالم أجمع.
هتف في خشونة:
-لست أفهم عن ماذا تتحدثون، كما أرجو أن تغادروا المكان على الفور. أخبري أصدقاءك يا أولجا أنكم جميعا غير مرحب بكم هنا.
ابتسمت له أولجا وهي تنهض وتتجه نحوه قبل أن تزفر دخان سيجارتها في وجهه:
-صدقني يا بروفيسير، ليس الأمر بيدي، فحتى لو طلبت منهم الرحيل فلن يفعلوا. إنهم هنا من أجل الكتاب ولن يغادروا المكان قبل الحصول على ما يريدون، ومن أجل الأيام الحلوة التي عملت فيها معك من قبل، فأنا أرجوك أن تتحدث، لن أنسى كم كنت طيبا ومهذبا وكم ساعدتني كثيرا في الماضي، لذا أرجوك يا يوري، لا تدفعهم لفعل شيء لا أتمناه لك.
-هل هذا تهديد؟ هل ستقتلونني لو أصررت على الصمت. هيا افعلوا واقتلوني لأستريح من هذا العالم البغيض، لقد اكتفيت منه ومنكم جميعا عليكم اللعنة.
هز كبيرهم رأسه بالنفي مبتسما وقال:
-ليس الموت ما أقصده أيها الرجل الشجاع، لكن أعدك في النهاية أن تتمنى الموت بحق بعد أن ننتهي منك، هذا بالطبع لو لم تخبرنا أين الكتاب.
-وماذا تريدون من الكتاب؟ بل ولماذا تبحثون عنه؟
قهقه الرجل في استمتاع:
-أنت تعلم سر الكتاب وما قد يمنحه لصاحبه من قوة. ظننتك رجلا ذكيا فمثلك لن يسأل أبدا مثل هذا السؤال الساذج.
جلس يوري على المقعد الذي كانت تجلس عليه أولجا وقال:

-وقد يحمل الهلاك لكم ولي ولهذا العالم أجمع. أنتم تجهلون سر الكتاب الحقيقي، ولهذا تضيعون وقتكم بالبحث عنه، لو كنت مكانكم لبددت وقتي في عمل أكثر جدوى.

-دعنا نقرر هذا بأنفسنا يا يوري، فقط أخبرنا بمكان الكتاب لنرحل في هدوء ونتركك تمضي ما بقي من عمرك في كوخك الحقير هذا في سلام.

-وماذا لو قلت لكم أنني قد فقدته منذ أكثر من خمسين عاما ولا أعلم أين هو الآن.

-سيكون هذا من سوء طالعك، لأنني لا أصدقك.

ثم هتف في الحارس الضخم الواقف خلف باب الكوخ.

-ديمتري!

اندفع الرجل الضخم نحو يوري، وهو يخرج حبلا صغيرا من جيبه ثم يبدأ في تقيد قدميه، صرخ يوري في فزع:

-ماذا تفعلون. توقفوا .. لا تفعلوا هذا بالله عليكم .. لقد ضاع الكتاب ولا أدرى أين يكون.

لكن أولجا اقتربت منه وقالت له:

-يمكنك توفير كل هذا العناء لو أخبرتنا كيف نجد الكتاب، دعني أؤكد لك أننا لن نغادر المكان قبل أن تتحدث.

أدرك يوري بفزع ما هو مقبل عليه، سوف يعذبونه ثانية، قبل نحو نصف قرن عذبوه في مبني "كي جي بي" كثيرا ليتحدث، لكنه كان أصغر عمرا وأكثر قوة وأمضى عزيمة فعرف كيف يحافظ على سره ولا يتكلم، لكنه الآن في أوج ضعفه، فهل يحتمل تلك الأساليب الشنيعة ثانية.

تعالى صراخه حين بدأ ديمتري عمله، وبعد دقائق عشر فقط كانت السيارة الجيب السوداء تبتعد عن الكوخ الذي اشتعلت فيه النيران بينما رمقت أولجا في ظفر، الاسم الذي دونته في ورقة صغيرة.

"دكتور محمد شاهين – مصر".



كلمة شكر أخيرة

إلى الأخ الأكبر, الذي لولاه لما وجدت الوقت
الكافي لإتمام هذه الرواية .
إلى الدكتور جمال فريد .
شكرا.

إلى د. ماجد عبدالحميد, د. محمد حموده, د. سمير الحسيني.
شكرا.

إلى أصدقاء الصومعة, الذين منحوني ايمانهم بما أكتبه.
إلى د. أحمد رمضان, د. مؤمن محمود, د. محمد خميس, د. محمد
خميسي, د. محمد حسني, د. محمد سمير.
شكرا.

إلى د. أحمد رشاد, د. أحمد سامي , د. محمد شكري.
شكرا.

وأخيرا
إلى أخي وصديقي العبقري. محمد عصمت
شكرا



صدر للكاتب

1- الجثة الخامسة (رواية)
2- عهود الدم (رواية)
3- الشيخ الأسود (رواية)
4- نجع الموتى (رواية)
5- الحاكم بأمر الله (رواية)
6- قربان بشري (مجموعة قصصية)
7- حكايات شتوية (رواية)
8- الأعمال الكاملة للافكرافت الجزء الأول "ترجمة"
9- خارج ظل الرجل " ترجمة"

حين تبدأ حوادث قتل رهيبة وغامضة، يتدخل الدكتور شاهين، الطبيب النفسي و خبير الخوارق.وهناك يكتشف عودة (رومية) كائن شيطانى عاد لينتقم منه شخصياً. كان عليه ان يخوض مغامرة رهيبة لينجو، وأن يبحث في الوقت نفسه عن وسيلة لمواجهتها . فهل ينجح أم أن ل (رومية) رأى آخر. حسناً دعنا نقرأ سويًا لنعرف الإجابة.

حسين السيد

تصميم الغلاف: اسامة علام

